على هامش الكتاب

-٢٨-

الردُّ على كمال الصَّليبي

الخوري بولس الفغالي

الرابطة الكتابيّة

A
232.9
S1615f
c.1

A
2329
S1615f

على هامش الكتاب

-٢٨-

الردّ على كمال الصليبي

LAU Beirut campus
23 JUN 2014
Riyad Nassar Library
RECEIVED

الخوري بولس الفغالي
دكتور في الفلسفة واللاهوت
دبلوم في الكتاب المقدّس واللغات الشرقيّة

الرابطة الكتابيّة

Lib. Antoine 237712

طبعة أولى – ٢٠١٤
جميع الحقوق محفوظة
الرابطة الكتابية

الطباعة: دكّاش برينتنغ هاوس
عمشيت – لبنان – تلفون: ٦٢٢٢٨٠ / ٠٩

التوزيع: • المكتبة البولسية
شارع القديس بولس – ص.ب: ١٢٥
٥٠١٠ جونيه، لبنان

• جمعيات الكتاب المقدس
ص.ب. ١١٧٤٧ بيروت، لبنان

تقديم

وُلد كمال الصليبيّ عام ١٩٢٩ لوالدين من المذهب البروتستانتيّ، وحصل على دكتورا في تاريخ الشرق الأوسط، وعلّم في الجامعة الأميركيّة في دائرة التاريخ وعلم الآثار. بدأ وكتب في المجال التاريخيّ، إلى أن وصل سنة ١٩٨٠ ونشر تاريخ الجزيرة العربيّة. هنا تحوّل الفكر عنده والكتابة أيضًا فأطلق أوّل كتاب له في مجال الكتاب المقدّس: **التوراة جاءت من جزيرة العرب.** ظهر في الإنكليزيّة ونقله إلى العربيّة عفيف الرزاز سنة ١٩٨٥. كتاب «بحث في جغرافيا التوراة على أسس جديدة» كما قال في المقدِّمة. قال: «البيئة التاريخيّة للتوراة لم تكن في فلسطين، بل في غرب الجزيرة العربيّة بمحاذاة البحر الأحمر، وتحديدًا في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن.»

وما عتَّم أن أتبع هذا الكتاب، سنة ١٩٨٨، بمؤلَّف آخر في الخطّ عينه. عنوانه: **خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**، الطبعة الخامسة، سنة ٢٠١٢، والطبعة السابعة، ٢٠١٢. اعتبر الكاتب أنّه في خطّ الذين «تجرَّأوا على نقد نصوص الكتاب المقدَّس.» قال في المقدِّمة: «ويسود الرأي بين العلماء بأنَّ الأجزاء القصصيَّة هي في الواقع مزيج من التاريخ الشعبيّ والأساطير والخرافات، تمَّ جمعها ثمَّ تنسيقها فضبْطها في زمن متأخِّر نسبيًّا من تاريخ بني إسرائيل.»

وفي السنة عينها، أي سنة ١٩٨٨، انتقل الدكتور الصليبيّ من العهد القديم إلى الأناجيل في كتاب عنوانه: **البحث عن يسوع، قراءة جديدة في الأناجيل.** تساءل المؤلِّف: «من هو يسوع الناصريّ، ومن هم تلاميذه وأتباعه الأوائل؟... ما هي الأناجيل وما هي المصادر التي اعتُمدت في كتاباتها؟ ولماذا يوجد تناقض بين الإنجيل والآخر في رواية الأخبار عن يسوع؟»

وعاد أستاذ الجامعة الأميركيّة إلى العهد القديم، فنشر سنة ١٩٩٠، **حروب داود**. قال الدكتور كمال في المقدِّمة: «يقدِّم هذا الكتاب ترجمة جديدة لأخبار الحروب التي خاضها داود حين كان ملكًا على «جميع إسرائيل» (١٠٠٢–٩٦٢ ق.م. تقريبًا) كما هي مرويّة في الأصل العبريّ لسفر صموئيل الثاني من التوراة.

* * *

في **التوراة**... انطلق من مخيَّم جرار الموجود قرب غزَّة في فلسطين، كما يقول الكتاب المقدَّس، وإذ لم يجده، راح إلى الجزيرة العربيَّة وهناك وجده كما وَجد كلَّ الأسماء التي نقرأها في التوراة. بدَّل الحروف، وجعل حرفًا مكان آخر ونسيَ المعنى الإجماليّ للنصِّ الكتابيّ. وهكذا اكتشفنا مع هذا «الباحث» فلسطين الجديدة التي سوف يتركها العبرانيّون ويقيمون في فلسطين التي نعرفها. لا شكَّ في أنَّ هناك تقاليد دُوِّنت في الأسفار المقدَّسة، ولكنَّ هناك أمورًا تاريخيَّة تتقاطع مع وثائق آتية من خارج التوراة. نذكر مثلاً السامرة، عاصمة إسرائيل أو قبائل الشمال. فهذه استولى عليها سرجون الثاني (٧٢٢–٧٠٥) وأجلى السكَّان سنة ٧٢٢–٧٢١. خلف هذا الملكُ أخاه شلمنصَّر الخامس (٧٢٦–٧٢٢) الذي قُتل خلال حصار السامرة. ثارت المقاطع الخاضعة لأشوريا. في الغرب كان حلف مؤلَّف من حماة (سورية) ودمشق والسامرة. ومن جهة ثانية، جعلت بابل لنفسها ملكًا: مردوخ – أفلا – أدينا (صار في التوراة: «مردوخ بلادان). بعد أن ردَّ الخطر البابليّ، سحق سنة ٧٢٠ ق.م. الأحلاف «الغربيَّة» ووصل إلى غزَّة مع ملكها حنُّون الذي ساندته مصر.

أوَّل كلام: «وشعب إسرائيل» لا بدَّ أنَّه في الأصل مجموعة من قبائل بلاد السراة في غرب شبه الجزيرة العربيَّة» (**التوراة**، ص ١٩٧). أمّا «أورشليم» المعروفة منذ القرن الخامس عشر ق.م.، فهي آل شريم (الصفحة السابقة).

وجبل جرزيم الموقع المقدَّس للسامريِّين إلى أيَّامنا، لم يكن في فلسطين، بل في السراة، وانتقل إلى الموضع الذي نعرف اليوم «بفعل ساحر».

وتحدَّث هذا الكتاب عن «شيشانق» فرعون مصر. هذا كان بداية السلالة الثانية والعشرين (٩٥٠–٧٣٠) في مصر، إلاَّ إذا انتقلت مصر أيضًا إلى «أوربَّا» لتعود إلى الموقع الذي نعرفه الآن. فشيشانق هذا قام بحملة على فلسطين. ما استطاع ملك يهوذا بعاصمته أورشليم، أن يبعد الخطر إلاَّ حين قدَّم كنوز الهيكل والقصر الملكيّ (١ مل ١٤: ٢٥–٢٨: «وفي السنة الخامسة للملك رحبعام، صعد شيشانق، ملك مصر، إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الربّ وبيت الملك»). دوَّن الفرعون ما عمله على الجدار الخارجيّ لهيكل أمون في الكرنك، وأورد أسماء ١٥٠ موقعًا تمَّ احتلالها ووصل أيضًا إلى مملكة السامرة ووصل إلى سهل يزرعيل. ولبث اسمُه على مسلَّة وُجدَت في مجدُّو. كما لبث اسمه على إناء في مدينة جبيل (بيبلوس).

ولكنَّ الصليبيّ حوَّر النصوص وبدَّل التاريخ والجغرافيا. قال: «ويبدو أنَّ شيشانق عبر البحر الأحمر. ونزل إلى اليابسة على ساحل الحجاز، قرب بلدة الليث» (التوراة، ص ٢٠٩)، ثمَّ قرأ بطريقته أسماء المواقع التي احتلَّها شيشانق...

* * *

في **خفايا التوراة** قرأ الصليبيّ أوَّلاً تك ١–١١ التي هي مدخل إلى العهد القديم كلّه والتي دُوِّنت آخر ما دُوِّن. والهدف من تدوينها لاهوتيّ، لا تاريخيّ. فلماذا وضع التاريخ في أساس كلِّ مجتمع بشريّ: هو رجل وامرأة. الرجل (آدم) يشتغل في الحقل، في الأديم، في التراب. والمرأة (حوَّاء) تتميَّز بأنَّها تلد الأولاد، تعطي الحياة. وقايين وهابيل درسٌ عن الخلافات بين القبائل. الله حاضر ينبِّه قايين إلى الخطيئة التي تتهدَّده. وينبِّهنا نحن أيضًا بعد أن انقسمنا أحزابًا وفئات وطوائف... استقى الكاتب الملهم من تقاليد بابل وأعطاها وجهًا يتوافق مع النظرة إلى الإله الواحد. أمّا خبر برج بابل، فدوِّن بعد سقوط بابل.

هي المدينة المتكبِّرة وهو البرج الذي يصعده الكاهن ليقدِّم صلاة المؤمنين. انطلق الكاتب من وضع بابل المهدومة وبحثَ عن السبب: الكبرياء. ولهذا سقطت. وحين يبتعد الله عن المجتمع ينقسم المجتمع إلى ألسن ولغات، وتروح كلُّ فئة في طريق. ويقفز الكاتب من سفر التكوين ليصل إلى سفر يونان الذي هو كتاب تقويّ، لا قصَّة تاريخيَّة، ونحن نعلم أنَّ نينوى كانت مدمَّرة حين دُوِّن هذا الكتاب.

* * *

وفي **البحث عن يسوع**، يكون يسوع غير المسيح. مع أنَّ بولس الرسول لا يفصل بين الاثنين. فيسوع هو اسم ابن الله، الذي اتَّخذ جسدًا من مريم العذراء وعاش في الناصرة حتَّى بداية حياته العلنيَّة. أمّا المسيح فيدلّ على صفته بأنَّه الملك الآتي من نسل داود، بحسب الجسد، مع مهمَّة بناء «ملكوت الله». وانفصلت «أُمّ يسوع» عن مريم، فقرأ الصليبيّ يو ١٩: ٢٥ وأخطأ في القراءة حين اعتبر أنَّ اسم «أخت أمِّه مريم». فأخت أمِّه هي سالومة، والدة يعقوب ويوحنَّا. والثالثة، هي مريم زوجة كلاوبا، وأمُّ إخوة يسوع الأربعة. وربَّما نسيَ «الباحث» أن يقرأ إنجيل لوقا (٢: ٣٤) بفم سمعان الشيخ: «وقال لمريم أمِّه.» هو وقت تطهير يسوع في الهيكل. لماذا لم يقل لوقا: «مريم وأمِّه»؟ لست أدري.

أمّا يسوع هذا، فجاء من الجزيرة العربيَّة حيث لم يوفَّق في المُلك، فأتى إلى فلسطين، واستند إلى يوحنَّا المعمدان، وإلى صيادين فقراء وانتهت به الأمور موتًا على الصليب. كان والده يوسف الذي من نسل داود، غنيًّا، فأورث غناه لابنه وطلب منه أن يتابع الطريق. ولكنَّ الأناجيل التي نعرف تختلف عن إنجيل «دوَّنه» كمال الصليبيّ. فيسوع المسيح وُلد في فلسطين، كما يولد الفقراء. في بيت لحم وُلد، وفي الناصرة عاش. وهو من لم يكن له حجر يسند إليه رأسه. رفض أن يكون ذاك الملك الأرضيّ وأفهم ذلك بيلاطس الذي هزئ

به. فالإكليل الذي وضع على رأسه، لم يكن من ذهب، بل من شوك وهذا الذي مات على الصليب قام في اليوم الثالث وظهر لتلاميذه ثمَّ أرسلهم يبشِّرون باسمه في أورشليم واليهوديَّة والسامرة وإلى أقاصي الأرض.

واحد من الرسل باعه. اسمه يهوذا الإسخريوطيّ. حين رأى ما حصل لمعلِّمه، شنق نفسه واندلقت أمعاؤه. هذا ما يقول إنجيل متَّى وأعمال الرسل. أمّا إنجيل الصليبيّ فجعل يهوذا يتزوَّج ويمضي إلى الحجاز ويشتري أرضًا بالمال الذي كان في الصندوق والذي به باع يسوع، وعاش حياة هانئة، بعيدًا عن بغض سائر الرسل له. أمّا شاول – الذي صار بولس – فما عرف يسوع بالجسد، ولا وصلَتْ إليه كتابات آراميَّة خرجت من عمق الجزيرة العربيَّة. تعرَّف إلى يسوع من خلال الجماعات المسيحيَّة الأولى التي عاش في وسطها، في عرابيا، أي في حوران وفي مناطق من شرقيّ نهر الأردنّ. هذا ما تعرفه الكنيسة. أمّا الصليبيّ فيعتبر بولس أوَّل من عرف المسيح وأفضل من كتب عن المسيح. يا ليت هذا «الإنجيليّ» الخاصّ تعمَّق في شخص يسوع المسيح كما أغرم به، وتحدَّث عن ألوهيَّته كما عن كونه من نسل داود بحسب الجسد.

* * *

وحروب داود كتاب أراد أن يترجم نصّ سفر صموئيل الثاني «التفسير الصحيح». فجميع الذين سبقوا هذا الباحث منذ أوريجان وجيروم وصولاً إلى عشرات الآلاف من الباحثين في الكتاب المقدَّس، لم يعرفوا العبريَّة. أو هم أرادوا أن يشوِّهوا الكتب المقدَّسة. فهذا السفر دُوِّن في وقت أضاعت الملكيَّة في الشعب العبرانيّ أصولها، فقدَّم الكاتب الملهم صورة حلوة عن داود، ليذكِّر الملوك في عصره بأن يكونوا بحسب قلب الله، حتَّى في الخطيئة. خطئ داود ولكنَّه ندم فقال: «خطئتُ إلى الربّ». أمّا الحروب التي خاضها وكانت بسيطة جدًّا فكانت في أرض فلسطين المعروفة إلى اليوم. وعلاقاته مع ملوك صور وصيدون هو وابنه سليمان، أمرٌ لا خلاف فيه. ولكن ما حيلتنا مع كاتب

رفض أن يكون لبنان سيِّدًا مستقلاًّ، بل أراده أن يكون جزءًا من العالم العربيّ الواسع، من الخليج حتّى البحر المتوسِّط. لهذا سواء كانت فينيقيَّة بصور وصيدا على البحر المتوسِّط أو على البحر الأحمر، فالأمر لا يتغيَّر. لهذا نقل الصليبيّ دمشق السوريَّة وصيدا وصور وجبيل اللبنانيَّة وأورشليم وبيت لحم والناصرة الفلسطينيَّة ، نقل كلَّ هذا إلى الجزيرة العربيَّة. فالتوراةُ وُلدت هناك. وإبراهيم كان هناك. والإنجيل الآراميّ كان هناك. فمضى يوحنّا العارف بالآراميَّة يقرأه. أمّا لوقا الجاهل بهذه اللغة، فوجد من يترجمه له. ويبدو أنَّ متّى «الآراميّ» لم يعرف هذا الإنجيل الخاصّ الذي عرفه واحد وحيد من أرض لبنان وأوصله إلى البشريَّة في القرن العشرين. ولا نقول شيئًا عن مرقس وإنجيله هذا إذا وُجدا.

* * *

منذ ظهور **التوراة جاءت من جزيرة العرب،** قدَّمنا الردَّ على هذا الكتاب، مع باحثين اثنين، واحد عارف بالكتاب المقدَّس وآخر عارف بالحضارات القديمة. تساءلنا عن هذا الكتاب، وتردَّدنا فما قبلنا لا بتحليلاته ولا بالنتائج التي وصل إليها. معه تهنا في الرمال الصحراويَّة، وما خرجنا منها. ولكنَّ القرّاء العرب فرحوا بهذه الرواية المختلقة من جذورها التي تشبه الكثير من القصص التي نتغنّى بها في هذا الشرق فنعوِّض عمّا نحن فيه من ركب الأمم.

وكان لي سنة ١٩٨٦ أن أقدِّم دراسة مستفيضة في مجلَّة المنارة الغرّاء، فبيَّنت أهمِّيَّة اللغة العربيَّة وحضارتها لفهم العهد القديم. ضاع التاريخ، ضاعت الجغرافيا في قراءة هذه الأسفار المقدَّسة. ولكنَّ الصليبيّ اعتبر أنَّ دراسته هذه «المختلفة عن جميع الدراسات المعروفة منذ ألفي سنة»، لا تمسّ إطلاقًا «بالتوراة ككتاب يقدِّسه اليهود والمسيحيّون». لا قيمة للزمان وللمكان. وهكذا يصبح جميع «الأنبياء» معاصرين بعضهم لبعض.

وسنة ٢٠٠٠، كتبنا في المسرَّة، تلك المجلَّة العريقة حول كتاب: **البحث عن يسوع، قراءة جديدة في الإنجيل.** أراد الصليبيّ «الوقوف على الحقيقة التاريخيَّة

بشأن يسوع الناصريّ المعروف بالمسيح»، فكانت أفضل الطرق لكي نضيِّع يسوع المسيح الذي يسير وراءه مليارا ونصف المليار من البشر. هل نخاف من هذه القراءة وقد تعوَّدنا على ذلك منذ المهاجمين على الديانة المسيحيَّة وعلى يسوع المسيح بالذات، فردَّ عليهم يوستين ابن نابلس في فلسطين وأوريجان ابن الإسكندريَّة العامل في قيصريَّة فلسطين قبل أن يموت ويُدفَن في صور بلبنان؟

وكما في المسرَّة، كذلك كانت لنا جولة مع الدكتور الصليبيّ في المجلَّة الكهنوتيَّة سنة ٢٠٠٠ أيضًا حول البحث عن يسوع. وبداية المقال تُفهمنا مضمون هذا «البحث» المميَّز: «بين العامين ٢٧ و٣٦، انطلق أمير يهوديّ من عمق الجزيرة العربيَّة يطالب بملكه. توفّي أبوه وهو البكر، فتذكَّر جدَّه زربّابل...» هذا هو إنجيل ربِّنا يسوع المسيح كما كتبه كمال الصليبيّ فاختلف عن أناجيلنا الأربعة: متّى، مرقس، لوقا، يوحنّا.

وفي النهاية كتبنا في المسيرة تلك المجلَّة الأسبوعيَّة مقالاً بعنوان: «ردّ على كتاب كمال الصليبيّ: البحث عن يسوع، إنجيل جديد.»

حاولنا أكثر من مرَّة اللقاء بالدكتور كمال الصليبيّ، ولكن حالت الظروف، ومرَّة دعوناه إلى الحوار مع دارسي الكتاب المقدَّس في لبنان، فوعد ثمَّ تهرَّب. وكدنا ننسى الأمر لأنَّ الصليبيّ قدَّم لنا كتاب بيت بمنازل كثيرة، الكيان اللبنانيّ بين التصوُّر والواقع (ترجمه عن الإنكليزيَّة عفيف الرزّاز). يطلب فيه الصليبيّ من الفئات اللبنانيَّة «إعادة النظر في الأساطير التاريخيَّة التي قامت عليها الفئات المتنازعة في بلده... فيظهر أنَّ لبنان غير قادر على تحمُّل أعباء هذا الانقسام». وفي هذا الكتاب اعتبر «لبنان الكبير» تلك «المؤسَّسة المسيحيَّة الحاكمة». وأنَّها احتاجت «إلى مقولة توفِّر مسوغًا تاريخيًا لوجود لبنان كبير مستقلّ عن سورية وعن العروبة...». عندئذٍ تحدَّثوا عن فينيقيا... هذا الكتاب الذي ظهر سنة ١٩٨٨، أُعيد طبعه سنة ٢٠١٢، في الطبعة الخامسة. وفي سنة ٢٠١٢

أيضًا أُعيد نشر كتاب منطلق تاريخ لبنان. وسنة ٢٠٠٢، صدر كتاب طائر على سنديانة وهو بشكل مذكّرات «يؤرِّخ فيها حياته ونشأته». وفي النهاية، سنة ٢٠٠٨ كان الكتاب الأخير بحسب النبذة الموجودة على الإنترنيت، «عودة إلى التوراة جاءت من جزيرة العرب، أورشليم والهيكل وإحصاء داود في عسير». كانت البداية في عسير من شبه الجزيرة العربيّة، والنهاية هناك أيضًا.

* * *

في هذا الكتاب، نقدّم المقالات القديمة حول كتابَي الصليبيّ: **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ثمّ **البحث عن يسوع**: قراءة جديدة في الأناجيل. قد يكون هناك تكرار بين مقال ومقال. نعتذر من القرّاء الكرام، ولكنّنا أبقينا القديم على قدمه.

وبعد وفاة الدكتور كمال في الأوّل من أيلول سنة ٢٠٠١، كان لي أن أشارك في ندوتين، فجاء كلامي بشكل عامّ. وبناء على إلحاح المحبّين طُلب منّي هذا الكتاب، فأكملت ما يجب إكماله، وأوضحتُ الأمور، كما فعلت عن **خفايا التوراة** وعن **حروب داود**. وها هو الكتاب بين أيديكم.

القسم الأول

محاضرتان
عن الدكتور كمال الصليبي

نورد في هذا القسم نص محاضرتين عن الدكتور كمال الصليبي بعد وفاته.

١- تحيّة للمؤرّخ كمال الصليبي

٢- في البدء كانت الجزيرة العربيّة.

تحيّة للمؤرّخ كمال الصليبي (*)

منذ سنة ١٩٨٦، وأنا في رفقة الدكتور كمال الصليبي. وقد حاولتُ أكثر من مرّة أن ألتقي به لكي نتحاور شفهيًا حول الهدف الأساسيّ لأبحاثه، وهو الذي كتب على مستوى التاريخ أمورًا ولا أروع، ولكن عبثًا. والآن، وقد صار في دار الخلد، نستطيع أن نتكلّم عنه بملء الاحترام لهذه المحاولة الجديدة التي أراد القيام بها. بدأها ولكن من يستعدّ لكي يواصلها، وهو الذي جعل معلوماته التاريخيّة والجغرافيّة الواسعة، بالإضافة إلى زيارة إلى منطقة في السعوديّة، حيث جعل التوراة تولد، أي في بلاد السراة بين الطائف ومشارف اليمن؟ قرأ العهد القديم كما قرأ الأناجيل.

عرفت ثلاثة كتب على مستوى العهد القديم: **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، سنة ١٩٨٥. جاءت النسخة مترجمة عن الإلمانيّة، وكان بودّ الكاتب أن ينشر أفكاره في الفرنسيّة والإنكليزيّة والهولنديّة. ولكنّ دور النشر تمنّعت بسبب أفكار ما اعتادت عليها أوروبّا. والثاني، **خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل**، عاد إلى كتابه الأوّل وأعاد النظر في بعض الأمور وانطلق يدرس عن يونان وأبرام وأبو رهم عدا نوحًا ويوسف في أرض مصرائيم. والكتاب الثالث **حروب داود**.

ما هي طريقة الصليبي؟ يقرأ النصوص في العبريّة، ويحاول أن يجد معاني جديدة لكلمات نُقلت منذ القديم إلى اليونانيّة والسريانيّة والأرمنيّة والقبطيّة، سواء قبل المسيح أو بعده. ثمّ يأخذنا إلى الجزيرة العربيّة.

(*) محاضرة ألقيت في ٢٠ تشرين الأول ٢٠١١ في المركز الاميركي للغات – ضبيه، بدعوة من النادي اللبناني للكتاب. أدار الندوة الاستاذ ميشال معيكي، وشارك فيها الدكتور مسعود ضاهر.

أمّا في ما يخصّ الأناجيل، فعرفتُ **البحث عن يسوع: قراءة جديدة في الأناجيل**. ناقشتُه في مجلّة المسرّة سنة ٢٠٠٠ وقلتُ رأيي فيه آنذاك. وإلى هناك أخذنا الصليبي، إلى محطّ آماله، وإلى الحجاز حيث دُوِّنت الأناجيل في الآراميّة، فعرفها يوحنّا وبولس وغيرهما. وإلى تلك المنطقة أرسل الكاتب يهوذا الذي لم يشنق نفسه بل مضى يعيش حياةً سعيدة.

ما هي نتيجة هذه الدراسات بالنسبة إلى العالم العربي؟ عرّفتِ الناسَ بأسفار التوراة وبما في الأناجيل، ولكنّها شوّهت الأمور العديدة. فمثلاً هناك اختلاف بين مريم وأمّ يسوع. هما شخصان لا شخص واحد.

وعرّفَتْني أنا القارئ العاديّ إلى منطقة عربيّة لم أكن أعرفها. وقرأتُ النصوص في عودة إلى اللغة العربيّة. والتقارب واضح بين « ع ب ر » العالم العبريّ و « ع ب ر » العالم العربيّ. وهو أمر اكتشفناه مع الشاعر يوسف الخال – رحمات الله عليه – حين كنّا نُترجم الكتاب المقدّس منذ سنة ١٩٨٠. فمثلاً بدلاً من أن نقرأ في مز ٨٤: وادي البكاء أو وادي الدموع، أو وادي بلسان، قرأنا وادي الجفاف من «بكأت البئر»، قلّ ماؤها.

وأرادتْ هذه الدراسات العودة إلى الأركيولوجيا وعلم الآثار. ووعدَتْنا بأنّه متى تمّت الحفريّات ستتبدّل أمور كثيرة بسبب المسؤولين عن الحفريّات، الآتين من الغرب. ومن سوف يأتي إلى الجزيرة العربيّة سوى أبناء الذين أتوا إلى فلسطين. لا شكّ في أنّ تشويهات عديدة تأتي على يد علماء يتعبّدون للصهيونيّة ولماضي إسرائيل الحضاريّ، وهم الذين لم يكونوا يعرفون أن يُحدّدوا سكّينًا أو منجلاً أو فأسًا أو معولاً، على ما قالوا في سفر صموئيل الأوّل (١٣: ٢٠). ولكن يبقى العلماء العلماء الذين نتأكّد من صدقيّتهم. فنحن ننظر إلى الأغراض التي وجدوا ونحكم. هنا أودّ أن أذكّر أنّ اكتشاف الأماكن يستند إلى أربع ركائز: اللغة، تدرس أصول الكلام. وهنا برع الدكتور الصليبي في التلاعب على الحروف. والركيزة الثانية، الجغرافيا. فالمدينة الواقعة على شاطئ البحر

لا يمكن أن تكون في الصحراء. والركيزة الثالثة، التاريخ. هل نعرف ما كانت صور بنَقْدها الذي شابه الدولار اليوم، بمقابلته مع أيّ نقد، بحيث وُجد في قلب الهيكل؟ ولكنها صارت عند الصليبي «واحة زور». وأخيرًا لا مكان مؤكّدًا في الأركيولوجيا بدون الحفريّات. ولنا مثال على ذلك «قانا». فلا باحث يستطيع أن يقول بكلّ تأكيد: هي الموجودة في لبنان. مع أنّ النصوص العديدة تشير إلى هذا الموقع، من أوسيب القيصريّ إلى جيروم مترجم الكتاب المقدّس إلى اللاتينيّة. أمّا صرفت صيدا، الصرفند الحاليّة، فقد تمّت فيها الحفريّات، فتبيّن وجود موقع مع معبد. فإلى صرفت هذه جاء إيليّا النبيّ.

هذه الدراسات توقّفت عند فرع من فروع العبرانيّين كانوا في الجزيرة العربيّة. فهؤلاء البدو لم يأتوا من موضع واحد. فمنهم من لم يترك فلسطين أبدًا، خصوصًا أولئك المقيمين على شاطئ البحر. ومنهم من جاء من الجنوب مع أنّ الكتاب يقول إنّ الله منعهم من السير في طريق الفلسطيّين (خر١٣: ١٧). فالفكرة روحيّة قبل أن تكون تاريخيّة. المعنى: كلّهم دخلوا معًا. كلّهم عبروا نهر الأردنّ، كما سبقوا وعبروا البحر الأحمر.

والإنجيل جاء في الآراميّة. كتب أوسيب القيصريّ أنّ إنجيل متى دُوِّن في الآراميّة، وهذا واضح حين نرى التقارب بين النصوص الإسلاميّة ونصوص متّى. ولكن لم نعثر على هذا النصّ حتّى الآن. أمّا نصوص العهد الجديد التي بين أيدينا فهي كلّها في اليونانيّة. وما وصل إلينا من فم يسوع سوى أربع أو خمس عبارات: طليتا قومي، انفتح، إلوي إلوي لما سبكتاني... قال الباحثون إنّ خلفيّة الأناجيل خلفيّة آراميّة. لا شكّ في ذلك. ولكنّنا نمتلك نصوصًا يونانيّة تعود إلى بداية القرن الثاني المسيحيّ، ساعةَ لا نملك في الآراميّة نصًّا واحدًا. أتُرى من الجزيرة العربيّة جاءت كلّ كتب الديانات التوحيديّة؟ مسألةٌ فيها نظر.

جاء الدكتور الصليبي من الأصوليّة الأميركيّة التي لا تزال إلى اليوم ترسل البعثات لتبحث عن «فلك نوح»، إلى الأصوليّة الشرقيّة التي تقرأ النصوص

المقدّسة ولا تجسر أن تلمس حرفًا واحدًا. فإن وُجد مثلاً في التوراة خطأ، نتركه في النصّ ونقول: هكذا كُتب. ونضع في الحاشية: هكذا نقرأ. حرّر الدكتور الصليبي هذا الجمود الحرفيّ في مدرسة Jesus Seminar حيث يحقّ التساؤل حول كلّ خبر وكلّ عبارة وكلّ لفظ. هي طريقة هدم لقلعة مقفلة يدور المؤمنون حولها ولا يستطيعون الدخول إليها. أمّا هذه المدرسة، ففتحت ثغرات، وحطّمت البناء. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ لا شكّ أبعدت الناس عن «عقم» في قراءة الكتب المقدّسة، ودفعتهم إلى الدخول في المعنى الأخير، المعنى الروحيّ. ولكن عمليًا، لا هي دخلت في قلب الكتاب، ولا علّمت الناس كيف يجمعون حُطام الكتاب بعد أن بعثروه. صار الكتاب المقدّس أمامَنا أشلاء.

قرأ الصليبي الأناجيل فرآها مختلفة في التفاصيل، وأحبَبْنا نحن الشرقيّين أن يكون لنا إنجيل واحد، كما فعل تاتيان السوري في القرن الثاني، فأعطانا الإنجيل الرباعي أو الدياتسّارون. ولكن ماذا كانت النتيجة؟ تشويه للأناجيل. لأنّ كلّ إنجيل يقدّم نظرة لاهوتيّة إلى يسوع، تنطلق من جماعة معيّنة استندت إلى التقليد ودوّنت ما دوّنت بإلهام من الروح القدس. هناك اختلافات! لا شكّ. والحمدلله أنّ هناك اختلافات، وإلاّ حسبنا الأناجيل أربع نسخات عن نصّ واحد. أمّا طريق الصليبي فهي تقود في النهاية إلى القول بوجود التحريف، أو أقلّه القراءة الخاطئة. وهكذا لا بدّ من قراءة جديدة تُفرغ الإنجيل من ماويّته.

هنا نعود إلى التاريخ. يقول الباحثون: لا نستطيع أن نتأكّد من التاريخ الموجود في كتب التوراة قبل المقابلة مع وثائق آتية من خارج العالم العبرانيّ. وفي أيّ حال، لا يهتمّ الكاتب الملهم بالتاريخ إلاّ بالنسبة إلى المعنى اللاهوتيّ. ونأخذ مثلاً بسيطًا: قال سفر الملوك الأوّل (١٤: ٢٥-٢٦): «وفي السنة الخامسة للملك رحبعام (بن سليمان) صعد شيشق ملك مصر لمحاربة أورشليم، فنهب كلّ ما في خزائن الهيكل...» وتساءل الباحثون ما هذا الخبر؟ إنّه مختلق. إلى

أن وُجدت مدوَّنة في الكرنك يذكر فيها الفرعون ١٥٠ موقعًا استولى عليها في إسرائيل ويهوذا، من الشمال في سهل يزرعيل إلى أقصى الجنوب في النقب. ما يهمّ البيبليا، أورشليم والهيكل. وآخر همّها التاريخ. فلماذا نغوص في موقع لا يهتمّ له الكاتب إطلاقًا. تخيّلوا سليمان، هذا الملك العظيم ، يقضي عهده الطويل في بناء الهيكل! وأخاب هذا الملك الذي امتلك ألفَي مركبة وعشرة آلاف جنديّ، جعله الكاتب لا يعيش بحسب شريعة الربّ، ويقاتل إيليّا النبيّ! والبحث عن الجغرافيا؟ انطلق الصليبي من «جرار» حيث كان ابراهيم. وما أدراك ما هي «جرار»؟ المهمّ في نظر الكاتب لا المكان بل الأشخاص. اهتمّ بأن يُبيّن أنّ هناك تقوى عند الذين ليسوا مع ابراهيم، لا فقط عند العبرانيّين.

بحث في التاريخ، بحث في الجغرافيا. لا بأس وهو مجهود جبّار. ثمّ إنّ الصليبي أخذ طريقًا غير التي اعتاد عليها دارسو الكتب المقدّسة. ولكن ما كان الهدف النهائيّ؟ سواء وُجدَت الأماكن المذكورة في التوراة وفي الإنجيل في فلسطين أو في الجزيرة العربيّة، فما الذي يتغيّر في المعنى النهائيّ؟ فالله في التوراة هو إله ابراهيم وإسحاق ويعقوب قبل أن يكون إله موضع من المواضع. فهو من أقام في خيمة. وحين أراد داود أن يبني للربّ بيتًا، قال له الربّ بفم ناتان: «ما سكنتُ بيتًا من يوم أخرجتُ بني إسرائيل من مصر حتى الآن، بل في خيمة كنتُ أنتقل معهم» (٢صم ٧: ٦).

محاولة قام بها الدكتور الصليبيّ بعد أن كتب في التاريخ الحديث وفرحنا بكتاباته ولا سيّما في ما يتعلّق بالموارنة، وإن يكنْ رأينا غير رأيه بعض المرّات. هل من هدف أبعد من لذّة البحث؟ قيل هو مدفوع من البلدان العربيّة، وتحدّث بعضهم عن المال. وقال آخرون: هو مدفوع من إسرائيل وكأنّه يعلّمها أن تضع يدها على جزء من الجزيرة العربيّة. وكان لنا أن نجادله في مقالات عديدة ظهرت في المنارة، وفي المسرّة، وفي المجلّة الكهنوتيّة، وفي مجلّة دراسات الصادرة عن الجامعة اللبنانيّة. بل في المسيرة النجوى وأماكن أخرى. موقف

أخذه وحاول الغوص فيه، ونحن نحترم ما فعل، ولكنّنا لا نسير معه إلى ما وصل، لأنّه نسي البعد الروحيّ في الكتب الإلهيّة وراح يمزّق النصوص ويشلّعها، ليصل إلى فكرة مسبقة وضعها أمامه، أو أخذها من تلك المجموعة الأميركيّة. فيا ليته، وهو المؤرّخ الناجح، عرف أن يوصل القرّاء إلى مكانٍ آخر، لكان خلّص نفسه والذين يسمعونه، كما قال الرسول (١تم ١: ٤- ١٦).

في البدء كانت الجزيرة العربيّة(*)

حين نقرأ حروب داود للدكتور كمال الصليبيّ، نؤخذ بهذه السلاسة في الإخبار وهذه الحرّيّة في التعامل مع نصوص الكتاب المقدّس بعهديه القديم والجديد. حرّيّة بالنسبة إلى شرّاح عديدين، خصوصًا في العالم الغربيّ، ورفضًا لنظريّات اعتبرها الكثيرون غير قابلة للجدال. حرّيّة بالنسبة إلى قراءة النصوص العبريّة بعد أن يترك جانبًا التشكيل والضوابط، فيرى فيها نصوصًا عربيّة حُرِّفت في هذا الموضع أو ذاك. وأشير هنا بشكل عابر أنَّ تلك كانت الطريقة في ترجمة الكتاب المقدّس في ما يُسمّى الترجمة المشتركة التي صدرت أوّل ما صدرت في بداية التسعينات، التي قمنا بها مع الأستاذ يوسف الخال، الذي ذكره الدكتور الصليبيّ كمشجِّع له في هذه النظريّة. اعتدتُ أن أقرأ النصَّ كما نقرأه نحن الشرقيّين، لا كما حمل اللفظَ الجديد جماعة اليديش أو الآتين من أوروبّا الشرقيّة وخصوصًا ألمانيا، فاكتشفنا معاني جديدة أوصلناها إلى المقامات العلميّة في الكتاب المقدّس، فمنها ما قُبل، ومنا ما رُفض بسبب أفكار مسبقة ونظريّات لا يريد الباحثون أن يمسّوها لأنَّها مقدّسة.

وتحرّر الدكتور الصليبيّ من التاريخ تحرُّرًا كاملاً، كما تحرّر من الجغرافيا. فكلّ ما قيل عن حضارة البحر الأبيض المتوسّط ومدنه العامرة مثل صور وصيدا وغيرهما من المدن التي لعبت دورًا لا يمكن أن ينساه المؤرِّخون مهما حاول أن يطمسه المتعبِّدون لليونان القديمة. ففي كتابه «بيت بمنازل كثيرة» يذكر

(*) محاضرة ألقيت في المنبر الثقافي في الجمعية الاسلامية للتخصّص والتوجيه العلمي – بيروت، يوم الخميس ٢٠١٢/١/٢٦. كانت ندوة بعنوان «كمال الصليبي مؤرّخًا» الدكتور وجيه كوثراني، الدكتور أحمد حطيط والخوري د. بولس الفغالي والمنسّق الدكتور أنطوان سيف.

في فصل عنوانه «إنبعاث فينيقيا» الدور الذي لعبته مدن الساحل الفينيقيّ حين زرعوا المستعمرات في سواحل أفريقيا وأوروبّا، من قرطاجة إلى مرسيليا إلى سواحل إسبانيا وإيطاليا، والأبحاث هي اليوم جارية والحفريّات متواصلة.

هنا نقول بشكل عابر: لماذا يقول «الفينيقويّة» لا «الفينيقيّة»، استهتارًا بالذين ليسوا من رأيه؟ ولماذا يتأسّف أن يكون أهل صور وصيدا لم يتركوا وراءهم أيّة أدبيّات مكتوبة»؟ ما كتبوه كتبوه على أوراق البرديّ فوصلَتْ منه نصوص عند المؤرّخين اليونان أو اللاتين. ويبدو من إحدى الدراسات الحديثة أنَّ هومير كاتب الإلياذة والأوذيسة استلهم ما كتب الفينيقيّون عن رحلاتهم ليدوِّن ما فعله عولس، هذا البطل الإغريقيّ، حين مضى من طرواده ليصل إلى جزيرته إيتاكه.

* * *

وبعد قراءة مقدِّمة كتاب حروب داود، نصل إلى الهدف المسبق الذي وضعه هذا الباحث فجعلنا نغوص في الرمال، هي الجزيرة العربيّة. وأورد نصوصًا لمن زار بلاد الحجاز واليمن في الربع الأوّل من القرن الثالث عشر للميلاد. واسمه ابن المجاور (ص ٢٨). كما ذكر وهب بن منبّه في «كتاب التيجان» الذي توفّي سنة ١١٤هـ/٧٣٢م.

هؤلاء اليهود اضطهدهم المسيحيّون ونعموا بالسلام «برعاية الدول التي تعاقبت على حكم بلاد فارس وما يليها من بلاد العراق وآخر هذه الدول هي الدولة الساسانيّة (ص ٤١) ويواصل كلامه: «لم ينتهِ اضطهاد اليهود في بلاد الشام... حتّى زال الحكم الرومانيّ المسيحيّ فيها مع الفتح الإسلاميّ. فصار اليهود بعد ذلك ينعمون بالأمان حيثما سيطر المسلمون، ولم يقوا مضطهدين إلاّ في البلاد التي بقيَتْ السيطرة فيها للمسيحيّة» (ص ٤١). لا شكَّ في ذلك. ولكن كيف تعامل الفرس مع اليهود حين أتوا إلى مناطق الشام المسيحيّة؟ كم كان عدد القتلى وكيف رفض الإمبراطور هرقل الانتقام وما الذي حصل

في الشام حين فرض الفاتحون على الموظَّفين عندهم بين أن يتركوا دينهم أو يتركوا عملهم؟ فاختار يوحنّا الدمشقيّ أن يمضي إلى دير مار سابا، قرب أورشليم، بعد أن خدم الدولة الأمويَّة هو ووالده وغيرهما الكثيرون. وإذا كان هذا التسامح موجودًا، لماذا تحوَّلت مصر من بلد مسيحيّ إلى بلد إسلاميّ؟ هي أفكار مسبقة. من ينسى أنَّه مُنع على المسيحيِّين واليهود أن يمشوا إلى يمين الطريق؟ أما فُرض عليهم أن يلبسوا لباسًا يميِّزهم عن المسلمين ليُعرَفوا حالاً ويُحتقَروا؟ والصليبيّ نفسه يقول في «بيت بمنازل كثيرة» إنَّ السنَّة كانوا مرتاحين في لبنان، لأنَّهم كانوا بأمان. أمّا الشيعة فاضطُهدوا. ولا نقول شيئًا عن المسيحيِّين.

* * *

تحدَّث الصليبيّ عن تاريخ العبرانيِّين، وفصلَ بين إسرائيل واليهود، كما نسيَ مملكة السامرة ولاسيَّما عمري الملك الذي تحدَّثت عنه النصوص الأشوريَّة. وأخاب الذي امتلك ٢٠٠٠ مركبة وعشرة آلاف جنديّ. وإذ أضاع بلاد يهوذا وإسرائيل، مملكتي الجنوب والشمال، أضاع المدن الفينيقيَّة. صارت مدينة «صور»، لا تلك الواقعة على شاطئ البحر والتي اعتبر حزقيال ملكَها «إلهًا»، بل «زور» الوادعة في منطقة نجران. وسفنها هي القوافل المحمَّلة. وصيدون صارت «آل زيدان». وأرواد صارت رواد في مرتفعات عسير (التوراة، ص ٣٤-٣٥). أمّا لبنان المذكور عشرات المرَّات في الكتاب المقدَّس فصار لبينان. والسبب، لأنَّ ياقوت الحمويّ يقول فيه إنَّه «جبلان قرب مكّة يقال لهما لبن الأسفل ولبن الأعلى». تلك نظريَّة. ويقدِّم الصليبيّ نظريَّة أخرى تجعل لبينان في شمال اليمن. أمّا الأرز فصار العرعر، لأنَّ لا وجود للأرز في عسير...

في أيِّ حال، بالنسبة إلى كمال الصليبيّ، لا علاقة للفينيقيِّين بلبنان، كما كان يحلو لبعض أساتذة الجامعة اللبنانيَّة أن يقولوا، معتبرين أنَّ ما يُقال عن الفينيقيِّين قضيَّة آتية من الغرب من أجل خلق لبنان الكبير وفصله عن سورية، بل

عن الجزيرة العربيَّة التي يجب أن يكون امتدادها إلى البحر، لولا الإنكليز الذين خلقوا دولة «شرقيّ الأردنّ» الذي صار «الأردنّ»، والفرنسيُّون الذين قطعوا لبنان عن مداه «الصحراويّ».

هي طريقة خاصَّة في تقطيع التاريخ كما في تقطيع النصوص الكتابيَّة في خطّ طريقة أميركيَّة عُرفت بـ Jesus Seminar. القبائل العبريَّة قبل المنفى لا علاقة لها بتلك العائشة بعد المنفى. ولست أدري لماذا هؤلاء الذين كانوا عائشين في الجزيرة العربيَّة تحوَّلوا فجأةً إلى فلسطين؟ لماذا لم يلبثوا في العراق، في بابل أو في مدن أخرى؟

وهكذا كان هجوم الصليبيّ على رينان ولامنس وغيرهما من الباحثين عن تاريخ لبنان القديم. فإن جهلَ اللبنانيُّون الأمور العديدة عن الفينيقيِّين، فهل يعني هذا أنَّ هذه الحضارة لم تكن موجودة؟ وإن احتلَّ هذه البلاد شعوبٌ من هنا وهناك، فهل تتخلَّى عن هذه الأرض التي عرفت حضارات عديدة وتعاملت مع أكثر من لغة، واعتبرت اللغة الأصليَّة، الكنعانيَّة، الفينيقيَّة، الأراميَّة، السريانيَّة، وصولاً إلى العربيَّة، لغة بين اللغات. لا اللغة التي لا تضاهيها لغة. فأبناء الساحل اللبنانيّ تكلَّموا اليونانيَّة واللاتينيَّة بانتظار الإيطاليَّة مع مجيء مملكة البندقيَّة، والفرنسيَّة مع حضور فرنسا إلى الشرق، وأخيرًا الإنكليزيَّة مع مجيء الإنكليز ثمَّ الأميركان. فالشخصيَّة هي هي سواء تطعَّمت بشعوب آتية من الخارج، وبثقافات تواصلت مع الثقافة الأصليَّة. ولا بدَّ من القول إنَّ العنصر السنّيّ بدأ يأخذ باللغة التركيَّة لأنَّ لا مشكلة له مع الدولة العثمانيَّة التي يدين بدينها. أمَّا المسيحيُّون فهم الذين نهضوا باللغة العربيَّة في القرن التاسع عشر، خصوصًا في لبنان قبل أن يمضوا إلى مصر ويطلقوا جريدة «الأهرام» مع آل تقلا، ومجلَّة «الهلال» مع جرجي زيدان... وسائر المجلاَّت مع الأسماء الكبيرة مثل اليازجيِّين والبساتنة وغيرهم.

ويروي الصليبيّ بشكل «قصَّة» رفقة سليم سلام أو «أبو علي سلام» للوفد الماضي إلى باريس، وخيبة أمله من الوفد الذي طالب بلبنان الكبير بانتظار أن يصبح الجمهوريَّة اللبنانيَّة. ويواصل أنَّ المسلمين رفضوا التعاون مع الانتداب فأخذ المسيحيُّون أكثريَّة المناصب في الدولة، ولاسيَّما الموارنة منهم. فالتطلُّع كان إلى الملك فيصل والعالم العربيّ. ولكن بعد ذلك، كان التلاقي بين الطوائف التي هربت من هنا وهناك فجعلت من لبنان «الوطن الملجأ» وهو مفهوم يرفضه الصليبيّ، لأنَّ «المحتلّ» كان يستطيع من وقت إلى آخر أن يصعد إلى الجبال. ولكن لماذا بطريركيَّة الأرمن هي في لبنان؟ وبطريركيَّة السريان الكاثوليك والروم الكاثوليك. وما يُعجَب له هو أنَّ المضطهد في نظر الصليبيّ هو المسيحيّ على المسيحيّ، ساعة يبرِّئ السلطة العثمانيَّة السنِّيَّة من كلِّ تدخُّل في البلاد.

* * *

في البدء كانت الجزيرة العربيَّة. ولو نعرف من أين أتى اسم «عربيّ». هم أهلُ بلاد الرافدين، دعوا الشعوب المقيمة إلى الغرب من الفرات «عرب». وفي السريانيَّة «بيت عرباي». وقسمت البلاد إلى ثلاث مناطق. في الجنوب: عدن وبالتالي عدنان. في الوسط القحط، وبالتالي قبائل قحطان. وفي المنطقة المحاذية للبحر المتوسِّط: كنعان. فعبارة «كنع النجم» تعني مال للغروب.

من هذه الجزيرة خرجت كتب الديانات السماويَّة. أوَّلها التوراة، ذاك ما أعلنه الصليبيّ في أوَّل كتاب أطلقه في دراساته للكتاب المقدَّس صدرت سنة ١٩٨٥ في اللغة العربيَّة، بعد أن ترجمه عن الإنكليزيَّة، وكان ظهر في الألمانيَّة.

فاللغة العبريَّة؟ وما هي هذه اللغة التي نسيَها أهلُها على مرِّ الزمان، وسيطرت عليها الأراميَّة سريعًا. أمَّا الأسفار التي دُوِّنت في ما يُسمَّى اللغة العبريَّة، فلم يعد يفهمها اليهود، وبالأحرى العلماء المسيحيُّون في الغرب الذين يشوِّهون المعطيات التي يجرونها هنا وهناك في حفريَّات لا تدلُّ على المواقع الحقيقيَّة

التي يكتشفون. هذا مع العلم أنَّ هناك أمورًا حقيقيَّة مئة بالمئة. وأكتفي أن أذكر في لبنان صرفت صيدا القريبة من الصرفند الحاليَّة، والتي بيَّنت الحفريّات أنَّها وُجدَت في القرن الثالث عشر أو الرابع عشر، والتي أتى إليها إيليّا فاستضافته امرأة من تلك البلاد. إلاَّ إذا كان هذا الخبر من عالم الخيال. وما يلفت النظر هو أنَّ الصليبيّ ينتظر من يقوم بحفريّات في الجزيرة العربيَّة، غير أهل العالم الغربيّ! لا أعلّق على هذه الفكرة لعدَّة أسباب ومنها أنَّنا نطمس ما يُوجَد من أمور لا ترضي معتقداتنا، أو أنَّ الغربيِّين هم الذين يقومون بالحفريّات، فإن كذبوا في ما يُسمَّى فلسطين، فلماذا لا يكذبون في الجزيرة العربيَّة؟

نصوص يقول عنها الصليبيّ جاءت قريبة من الأحداث، مثلاً، سفر صموئيل الثاني كُتب في زمن سليمان لتمجيد داود. ولكن كيف وصل إلينا بعد العودة إلى المنفى البابليّ في النصف الأوَّل من القرن السادس ق.م. أسئلة وأسئلة تُطرَح ولا تجد جوابًا، سوى أداة «ومن المؤكَّد» التي تتبع «ومن المفترض».

التوراة جاءت من جزيرة العرب. والأناجيل أيضًا. هي أرض الوحي ولا موضع آخر للوحي. فأورشليم صارت «أياليا» كما دعاها الرومان Aelia Capitolina كما دُعيَت في النصوص المصريَّة التي تعود إلى القرن الخامس عشر ق.م. يروشلم. هي آري سلام أي مرتفع (الإله) سلام. «إلى سراة رجال الحجر». أمّا صهيون والأصل العبريّ هو «ص ي و ن» أي المدينة المصونة. وحرف «الهاء» أضافه العالم السريانيّ فانتقل إلى اللغة العربيَّة. ثمَّ لست أدري كيف تصبح «ع ي ر» العبريَّة «آري». أتُرى الشرقيُّون لا يقدرون أن يلفظوا حرف «العين». أمّا بيت لحم فهي قرية أم لحم (**حروب داود ص ١٣٨**) في أرض الفلسة. أظنُّ أنَّ الذين يحجُّون اليوم إلى موقع ميلاد يسوع لا يعرفون إلى أين يذهبون. وكذا نقول عن حبرون حيث أتى إبراهيم وهناك دُفن مع امرأته سارة. صارت «خربان» في منطقة المجاورة من تهامة رجال الحجر (**حروب داود ص ١٣٩**). يقول المثل: إذا أردت أن تبتعد عن الحقيقة فأبعِد شهودك... وعندئذٍ تقول ما تريد.

حاولتُ شخصيًّا أن ألتقي مع الدكتور الصليبيّ فلم يكن لي الحظّ، أو ربَّما طُيِّر الحظّ. ومرَّة دعوناه في الرابطة الكتابيَّة من أجل نقاش حول كتابه «البحث عن يسوع، قراءة جديدة في الأناجيل» الذي صدر سنة ١٩٩٩، فبعد أن قبل الدعوة اعتذر في الدقيقة الأخيرة وتهرَّب. فالجدال مع أخصّائيِّين غير الكلام مع جمهور لا يعرف من أمور الكتب المقدَّسة سوى النزر اليسير. خصوصًا أنَّنا ندرس معهم نصوص الكتاب المقدَّس في اللغة العبريَّة وهم لا يعرفون من هذه اللغة حروفها فكيف معانيها.

فماذا في الكتاب «البحث عن يسوع» الذي قدَّمتُ عليه ردًّا في وقته، في مجلَّة المسرَّة التي يصدرها الآباء البولسيُّون في جونيه (آذار – نيسان ٢٠٠٠. السنة ٨٦، العدد ٨٤٤، ص ٢٣٥–٢٥٣). ونشير إلى أنَّ ملحق النهار العدد ٤١١ (السبت ٢٢ ك٢، ٢٠٠٠، ص ٤–٩) قدَّم ثلاث دراسات بأقلام عبده وازن، نقولا أبو مراد، عقل العويط.

يسوع هو النجّار. والكلمة يونانيَّة τεκτων. ولكنَّها صارت أراميَّة عند الصليبيّ: نجارا هو اسم اتخذ من سلالة داود، وتحديدًا من سلالة زربّابل" (ص ٥٤–٥٥). أو بالأحرى نصّ الإنجيليّ هو في الأصل أراميّ، ونُقل إلى اليونانيَّة. ولكن أين هو هذا النصّ الشهير؟ أتلف، وهكذا طُمست الحقيقة التاريخيَّة. أمّا بولس فاستعمل الطروس التي ضاعت هي أيضًا أو أُتلفت. والسؤال المطروح: لماذا هذا الإنجيل الأراميّ حُفظ وحده وما أتلفَتْ أناجيل عديدة منحولة مثل إنجيل يعقوب، إنجيل الطفولة العربيّ، إنجيل متيّا.

والناصرة؟ "ولعلَّ مكانًا بهذا الاسم كان يُوجد هناك من قبل..." (ص ١٢٩). فالناصرة بحسب الصليبيّ قبيلة نجدها في الطائف. والجليل؟ "في يقيني أنَّ هذا الجليل هو وادي جليل بمنطقة الطائف في الحجاز" (ص ٥٥–٥٦).

نقطة الانطلاق: كان بولس في "العربيَّة" "وهناك تعلَّم الكثير عن يسوع وأتباعه الذين قدِموا أرض فلسطين عن طريق عبر الأردنّ من مكان لا بدَّ أنَّه

كان من العربيَّة» (ص ١٠٥). ثمَّ «إنجيل الأراميِّين» الذي عرفه يوحنّا في اللغة الأصليَّة، ولوقا في ترجمة يونانيَّة. وكيف اكتشف الصليبيّ هذا الإنجيل؟ من نصوص عربيَّة متأخِّرة. وفي معرض الكلام عن العشاء السرّيّ أو العشاء الربّانيّ الذي قام به يسوع ليلة آلامه، فالصليبيّ شوَّهه. ولا أريد الخوض في هذا المجال. لكنِّي أتوقَّف عند يهوذا (يوضاس). فهذا لم يضع جدًّا لحياته، بل عاد من فلسطين إلى البلاد الحجازيَّة فاشترى حقلاً في دماء من قرى الطائف بوادي ميسان، فاعتاش من هذا الحقل حتّى مماته» (ص ٩٥).

هنيئًا لمنطقة الطائف. وهنيئًا للجزيرة العربيَّة. منها انطلق كلُّ شيء وإليها يعود كلُّ شيء حتّى يهوذا الذي «عندما صُلب يسوع الذي كان يحميه من بغض (التلاميذ) أخذ الصندوق وهرب عائدًا إلى بلاد الحجاز» (ص ٩٥). هنيئًا لتلك البلاد بمؤرِّخ انطلق من أفكار مسبقة، فجعل الشعوب تنطلق من هذه المنطقة المباركة. وكذلك الكتب السماويَّة. هل نسير مع كمال الصليبيّ في طريق اعتبر أنَّه افتتحها وخصوصًا في قراءة الأناجيل؟ كلاّ. فالفرضيَّة واهية وهي لا تستند إلى شيء. وإذا كانت الفرضيَّة هكذا، فما تكون النتيجة؟ وها أنا أنهي كلامي بمقطع مأخوذ من «قراءة جديدة في الأناجيل» ص ١٩٨، جاءت مقدِّمتُها كما يلي: «أمّا بالنسبة إلى يسوع، فالذي تبيَّن لنا عنه بوضوح هو الآتي: كان يسوع ابن يوسف النجّار المعروف "بالناصريّ" (من ناصرة العربيَّة، لا من ناصرة الجليل في فلسطين) أميرًا من بيت داود. اقتدى بجدٍّ له اسمه زربّابل، فحاول الوصول إلى المُلك على إسرائيل، منفقًا على مسعاه ما كان قد ورثه عن أبيه من مال، ومن الإسرائيليِّين في زمانه، من غير اليهود، من كان ينتظر "المسيح" من بيت داود ليعيد الملك إلى الشعب الإسرائيليّ، فاعترف بيسوع على كونه ذلك المسيح، وهبَّ لنصرته. لكنَّ مطالبة يسوع بعرش إسرائيل اصطدمت بمقاومة شديدة...»

عن أيِّ يسوع يتكلَّم الدكتور الصليبيّ؟ الحمد لله أنَّ بولس اكتشف «عن طريق رؤيا خاصَّة لم يُفصح عنها، أنَّ يسوع الناصريّ الذي مات معلَّقًا على الصليب لم يكن محض أمير من بيت داود، بل ابنًا لله» (ص ١٧٠) شكرًا لك يا بولس الرسول!

القسم الثاني

التوراة جاءت من جزيرة العرب(*)

(*) دراسات ٢٠ (١٩٨٦) ص ٩٤-١٠٩.

في ندوة عُقدت سنة ١٩٨٦، ونُشرت آثارها في مجلة دراسات العدد ٢٠، سنة ١٩٨٦، وشارك فيها القس غسان خلف والدكتور حسّان سلامه سركيس، كانت لنا المداخلة التالية بعنوان «تساؤلات وتردّد» فقسمناها تسهيلاً للقارئ:

أ – المقدّمة

ب– لماذا الخوف من هذا الكتاب

ج – نهج الدكتور الصليبي

د – الطريقة الوحيدة لقراءة أسماء الأماكن في التوراة

هـ – النتائج التي توصلنا إليها

و – الخاتمة.

الفصل الثالث
تساؤلات وتردّد

أ – المقدّمة

قرأه شاعر يترجم الكتاب المقدّس فالتقى والأستاذ الصليبيّ في الرجوع إلى الجذور العربيّة لفهم النصوص العبريّة.

وقرأه باحث في العلوم الإسلاميّة فتحمّس لنظرة الدكتور الصليبيّ عن إبراهيم الذي جاء لا من أور الكلدانيّين في جنوبيّ العراق، بل كان مقامه في الجزيرة العربيّة، كما نقرأ في سورة آل عمران[١].

وقرأه أستاذ في علم الآثار فلفت نظره كاتب يبحث في الجغرافيا التاريخيّة للتوراة. وباحث يطلب إلى الاختصاصيّين الغربيّين أن يعودوا إلى النصوص القديمة فيستجلوا معانيها، وإلى الحفريّات فيقرأوها بتمعّن ودون فكر مسبق.

هذا الكتاب رفضه العالم الصهيونيّ، فتأجّل موعد النشر بضعة أشهر[٢]، ورفضه بعض العالم العربيّ لأنّه رأى في مقولة الدكتور الصليبيّ دعوة لاحتلال بلد عربيّ آخر، غير فلسطين، على يد إسرائيل[٣]... قرأه علماء اللغات الساميّة فأوصوا بنشره، والكتاب كتاب لغة فحسب. ورفض علماء التوراة الكتاب لأنّه يجعل في النتيجة ما لا نجده لا في المقدّمات ولا في سير البراهين، ولأنّهم يعتبرون أنّ دراسة أسماء الأماكن التي بدأوا بها في بداية القرن السابق[٤] هي

(١) في ص ١٤ من كتابِ الدكتور الصليبيّ نقرأ: «والواقع هو أنّ القرآن الكريم يقول بكلّ وضوح أنّ مقام إبراهيم كان بمكة (سورة آل عمران ٩٦–٩٧). وليس هناك في النصّ القرآنيّ ما يشير إلى أيّة علاقة بين بني إسرائيل وأرض فلسطين.»

(٢) راجع مقدّمة الناشر، ص ٨.

(٣) راجع مقدّمة الناشر، ص ٩.

(٤) *L'archéologie et la Bible*, Cahier n. 36, le Monde de la Bible, Bayard, Paris, 1984; on lit dans l'éditorial (p. 1) ce qui suit: «Depuis déjà longtemps le

جزء ضئيل من العلوم التي تساعدنا على التعرُّف إلى تاريخ الشعوب القديمة وجغرافيّتها. لذلك لم يُنشر الكتاب في دار نشر علميَّة، بل في مؤسَّسة «دير شبيغل» الألمانيَّة المعروفة باهتمامها بالكتاب الذي يثير حماس الرأي العامّ، ولم تتناوله بالنقد المجلاّت العلميَّة الكتابيَّة، بحسب معلوماتي.

كُتب في الإنكليزيَّة ونُقل إلى العربيَّة، ويبدو أنَّ عمليَّة النقل هذه لم تكن دقيقة كما قال لي أحد أساتذة الجامعة اللبنانيَّة وهو صديق الدكتور الصليبيّ، وقد قيِّض له أن يقابل بين النصَّين الإنكليزيّ والعربيّ. اندفع الناقل فمال بالنصّ ليؤكِّد نظريَّة المؤلِّف، فتغاضى المؤلِّف أو رضي. أمّا أنا فلم تصل يدي إلى النصّ الإنكليزيّ، لذا سأقتصر في حديثي على النصّ العربيّ كما نشرته مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة.[٥]

ولكن ماذا في هذا الكتاب الذي هزّ الرأي العامّ اللبنانيّ والذي ساهمت دار النهار[٦] في دفع القارئين ليطَّلعوا على موضوع هذا الكتاب؟ وما الذي جعل علماء الغرب يتورَّعون عن تشجيع نشره، وبعض الاختصاصيِّين الكهنة في لبنان يتخوَّفون منه ولا يرتاحون إلى نتائجه؟ هل خاف العلماء من أستاذ جامعيّ سيقلب علومهم رأسًا على عقب، وهل خاف الكهنة على التوراة وهي كتاب وحيهم بعد الإنجيل؟

rôle de l'archéologie ne consiste plus à alimenter les musées en objets précieux ou rares pour le plaisir des visiteurs; il consiste à utiliser, en vue d'une meilleure connaissance des civilisations passées toutes les données recueillies par les fouilles afin de reconstituer ce que fut la vie de ceux qui nous ont précédés en différents points du globe.»

(٥) كتب النصُّ في الإنكليزيَّة فنقله عفيف الرزّاز ونشرته مؤسَّسة الأبحاث العربيَّة سنة ١٩٨٥.

(٦) أشير هنا إلى الحوار الذي ورد في مجلَّة النهار العربيّ والدوليّ بين الدكتور الصليبيّ ومهى سماره في عدد ٢-٩ أيلول ١٩٨٤؛ راجع أيضًا النهار العربيّ والدوليّ، عدد ٩٤٤، تاريخ ٩-١٥ كانون الثاني ٥٨؛ وعدد ٤٥٠، تاريخ ١٦-٢٢ كانون الثاني ١٩٨٥؛ والمحاضرة التي نُشرت في جريدة النهار في ١٩٨١/١٠/١١.

ب – لماذا الخوف من هذا الكتاب؟

لا، لم يخف العلماء على نتائج أبحاثهم، والعالِم الحقيقيّ لا يخاف النقد البنّاء، ولا يغضب إن وجد معارضة لآرائه. على كلٍّ حال، العلماء هم في واد والدكتور الصليبيّ هو في واد، ما دام بحثه يقتصر على اللغة للتعرُّف إلى الأماكن القديمة. فمنذ القرن التاسع عشر والأركيولوجيُّون يكتشفون المدن[٧] ويبحثون عمّا فيها من فنّ بناء، وصنع فخّار...، وهم لا يخلطون عصرًا بعصر وحقبة تاريخيَّة بحقبة تاريخيَّة أخرى. فهم يعرفون مثلاً أنَّ أريحا[٨] بُنيت وهُدمت وأُعيد بناؤها عشرين مرَّة تقريبًا. ويميِّزون بين ما بُني في الألف الثامن ق.م. وبين ما بناه الرومان أو البيزنطيُّون[٩]. وينظرون إلى المصنوعات الفخّاريَّة

(٧) نقرأ في ملحق القاموس الكتابيّ المحطّات الهامَّة لعلم الآثار منذ بداية القرن التاسع عشر مع ستزن الذي زار سورية وفلسطين ودوّن كتابًا طبع في منتصف القرن التاسع عشر. V. J. SETZEN, *Reisen durch Syrien, Palâstina,* Berlin, 1854-1859

ثمّ زار المنطقة عالمٌ إنكليزيّ: J. L. BUCHARDT, Travels in Syria and the Holy Land, Londres, 1822

وتبعهما السويسريّ توبلر (١٨٣٨-١٨٥٢) والأميركيّان روبنسون (١٨٣٨-١٨٥٢) وطومسون.

أمّا الذي بدأ الحفريّات في فلسطين فكان فليسيان ده ساسي الذي قام بحفريّات في أورشليم... وفي سنة ١٨٦٥ تنظّمت مؤسَّسة استكشاف فلسطين Palestine Exploration Fund التي لعبت دورًا هامًّا في تشجيع الحفريّات في فلسطين.

- L. DELAPORTE, «Archéologie Biblique», in *DBS*, vol I, col. 602-613.
- A.G.BARROIS, Manuel d'Archéologie biblique», Picard, Paris, 1939.
- W. F. ALBRIGHT, L'Archéologie de la Palestine, tr. française R. Alepetite, Le Cerf, Paris, 1955.
- Voir aussi L. HENNEQUIN, «Fouilles et Champ de fouilles en Palestine», in *DBS* (1983) col. 318-524.

(٨) - Voir Fouilles in DBS III, Tell es-Soultan (Jéricho) col. 410-414.
- Voir aussi: J. BRIEN, Le site de Jéricho, Gabalda, Paris, 1984.

(٩) في ص ٨٨ يقول الدكتور الصليبيّ: «أقدم البقايا التي عثر عليها العلماء تعود إلى أواخر العهد الرومانيّ أو إلى العهد البيزنطيّ» ولكنَّ الواقع هو غير ذلك. في قادش برنيع اكتشف رودلف كوهن الكثير من الفخّاريّات وبعض الكتابات التي تخبرنا عن القبائل التي عاشت هناك، وتعرّفنا إلى سلسلة من الحصون بأشكال متنوّعة (مربّعة، مستطيلة، بيضاويّة) تدل على الزمن الذي بُنيت فيه.

فيشيرون إلى أنَّ مدن النقب (أي جنوبي كنعان) بُنيت في القرن الحادي عشر ق.م. ولا ينكرون ما اقتصر على ذكره الدكتور الصليبيّ من وجود آثار تعود إلى العهد الرومانيّ أو البيزنطيّ.

لا، لم يكن عالم التوراة الحقيقيّ جاهلاً لأصول اللغات الشرقيّة وهو الذي زار تلّ العمانة في مصر ورأس شمرا شمالي اللاذقيّة، وتلّ الحريريّ على الفرات، وتل المرديخ قرب حلب، ونوزو وأشور ونينوى في العراق... بدأ بقراءة هذه النصوص، وكلُّنا يعرف مثلاً الصعوبات التي واجهها شمبوليون لفكِّ رموز اللغة الغيروغليفيّة. ولمّا أراد فهم النصوص الساميّة لم يكن بين يديه إلاَّ اللغة العبريّة كما نقرأها اليوم في التوراة، وهي إحدى اللغات أو اللهجات الكنعانيّة. ولكن سيأتي يوم تتحرَّر هذه اللغات القديمة من الوصاية العبريَّة لتقف وإيَّاها وقفة النِدّ للندّ. ويكفي أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر كيف أنَّ الأب اليسوعيّ داود، اللبنانيّ الأصل والأميركيّ اللغة، انطلق من لغة رأس شمرا ليوضح نصوص التوراة ويستجلي معانيها(١٠). أمّا الاستعانة بالعربيّة فأمر اختبرناه في ترجمة الكتاب المقدَّس مع الأستاذ يوسف الخال واختصاصيِّين عديدين، وهو لا يخفى على أحد، لكنَّه لا يفرض نفسه على أحد بسبب تعدُّد

Qadesh-Bar néa: une étape de l'Exode. Les fortresses du Négev central, - .Cahier n. 39, Le Monde de la Bible, Bayard, Paris, 1985

ونشير هنا إلى لاخيش (تل الدوير) وإلى الطريقة التي بها عامل د. الطرابلسيّ النقش الذي وجد فيها (١٠٨-١١٠).

-TUPENELL, *Lakish (Tell-ed-Duweir) III: The Iron Age,* Oxford, University, 1953.

- B. VAN DE WALLE, «Inscriptions et autres textes concernant l'histoire biblique», in *DBS* IV (Paris, 1949) col 384-482, spéc. col 411-417 et la bibliographie.

(١٠) -M. DAHOOD, *Ugaritic-Hebrew Philology, Marginal notes on Recent Publications,* coll. Biblica et Orientalia, n. 17, Roma, 1965.
- Id., *Proverbs and Northwest Semitic Philology,* Rome, 1963.

اللغات وتشابكها(١١). هل نعرف اليوم الصعوبات التي تواجه قرّاء اللوحات التي اكتشفت في تل المرديخ: يبدو أنَّ بعض النصوص تُقرأ بعشر طرق مختلفة، وهذا ما يجعل الباحث يحتار.

لا، ولم يكن بعض الكهنة خائفًا من كتاب ينقل موطن التوراة من أرض فلسطين إلى غرب شبه الجزيرة العربيَّة. فالدكتور الصليبيّ طمأننا المرَّة بعد المرَّة أنَّ هدفه علميّ محض، وأنَّ بني إسرائيل هم غير اليهود، وأنَّ ما يبحث فيه «لا يمسُّ إطلاقًا بالتوراة ككتاب يقدِّسه المسيحيُّون واليهود، لأنَّ الدين اليهوديّ والدين المسيحيّ هما شيء، والتاريخ والجغرافيا هما شيء آخر»(١٢). ولكن هل يعتبر الصليبيّ الدين أمرًا نظريًّا لا يرتبط بالواقع؟ وهل ينسى أنَّ كلمة الله تتجسَّد في مكان وزمان معيَّنين؟ أن تقول للمؤمن اليوم إنَّ أورشليم التي يقدِّسها اليهوديّ والمسيحيّ والمسلم، غير موجودة في فلسطين، وإنّ اسمها الحقيقيّ آل شريم وموقعها في بلاد السراة في شبه الجزيرة العربيَّة، فالأمر لا يبدو في غاية السهولة، وأن تقول للمسيحيّ إنَّ بيت لحم حيث وُلد المسيح هي بنت البارحة واسمها الحقيقيّ «أمّ لحم» وهي تقع في وادي أضم، وأن تؤكِّد هذا الأمر وكأنّه منزل لا يقبل المناقشة والجدل فهذا ما يزعج القارئ العاديّ. قال الدكتور الصليبيّ(١٣): «قليلون منّا هم القادرون على النظر في صحَّة ما يقوله الاختصاصيُّون. فليس كلُّنا عالم آثار... ولهذا عندما يقول الاختصاصيُّون رأيهم في موضوع ما، نأخذ ما يقولون على أنَّه كلام ثقة... وهذا ما يمكِّنهم أن ينفذوا بأخطائهم دون حساب في المسائل التي يختارون الاتِّفاق عليها». وأزيد أنا أنَّ الدكتور الصليبيّ أضاف اختصاصًا هو درس أسماء الأماكن في الجزيرة العربيَّة.

(١١) نورد على سبيل المثال الصراع القائم بين البروفسير ماتاي وبتياتو الطليانيّين في ما يتعلّق بنصوص إبلا – تلّ المرديخ.

(١٢) الصليبيّ، التوراة جاءت من جزيرة العرب، ص ٢٩٦. وهكذا كل مرة نذكر «الصليبي» في هذا المقال.

(١٣) الصليبيّ، ص ١٠٥.

نحن نعرف والدكتور الصليبيّ يؤكّد أنّ الشكوك التاريخيّة لم تؤثّر على شيء من أسس الدينين اليهوديّ والمسيحيّ. ولكنّ القول صحيح بالنسبة إلى العالم والباحث لا إلى المؤمن. وهنا تبدو مسؤوليّة الاختصاصيّ جسيمة وتأثيره هامًّا عندما ينطلق من مبادئ تنفي أقوال الباحثين السابقين كلّهم، وعندما يجعل علماء التوراة «كذَبة» (والاستنتاج من عندي) حوّروا النصوص واتّفقوا على أن يقولوا لنا هذا القول ويخفوا عنّا القول الآخر. فما قول الناقد بهذه الجمل التي تفتح الفصل الثاني وعنوانه: مسألة نهج: «كلّ معرفة صحيحة تتضمّن قدرًا من نبذ المتداول، ومثل هذا النبذ هو الجوهر في مجال الدراسات التوراتيّة»[١٤]. فالمصوريتيّون (علماء التقليد) الذين تحلّوا «بالأمانة العلميّة الدقيقة» كما نقرأ في الكتاب[١٥] «قاموا بتحريف النصوص التوراتيّة عن طريق إدخال الحركات والضوابط بطريقة اعتباطيّة في أحيان كثيرة»[١٦]. وقبِلَ المسيحيّون بهذا النصّ المصوريتيّ الذي لم يكن صحيحًا في مواقع كثيرة وكأنّهم خُدعوا به. أمّا علماء التوراة الغربيّون وجلّهم من المسيحيّين الذين لولاهم ما استطعنا اليوم أن نناقش النصوص القديمة، فقد خضعوا «للأحكام المسبقة»[١٧]. اكتشفوا في حفريّاتهم بقايا ماديّة في مناطق معيّنة حدّدوها مسبقًا على أنّها أرض التوراة، فسارعوا إلى الاستنتاج وأكّدوا ما أكّدوا «على أساس دلائل أثريّة غير حاسمة»[١٨]. وبعد أن يعطي أمثلة عن منقوشات وسجلاّت قديمة يستنتج: «لقد أُخذتْ هذه المنقوشاتُ والسجلاّت على «أنها تتعلّق بفلسطين لأنها تورد أسماء أمكنة توراتيّة (وهذا صحيح)، ولأنه يُعتقد بأن أسماء الأمكنة التوراتيّة تخصّ فلسطين (وهذا خطأ)». إذًا، الأمكنة التوراتيّة ليست في فلطسين. وينهي كلامه: «وكلّما أعيد تفحّص هذه السجلاّت القديمة ظهر أنّه بدلاً من ذلك تتعلّق بغرب شبه الجزيرة العربيّة، تمامًا كما هو الأمر بالنسبة للتوراة العبريّة نفسها.»[١٩]

(١٤) الصليبيّ، ص ٥٧.
(١٥) الصليبيّ، ص ٥٨.
(١٦) الصليبيّ، ص ١٥.
(١٧) الصليبيّ، ص ٥٢، ٥٨.
(١٨) الصليبيّ، ص ١٠٦.
(١٩) الصليبيّ، ص ١٢١.

ج – نهج الدكتور الصليبيّ

ولأنّ الحالة العلميّة بالنسبة إلى التوراة هي في حالة ضياع، دعا الدكتور الصليبيّ علماء لغات الشرق إلى إعادة درس نصوصهم على ضوء ما اكتشفه هو من أسماء في هذه الأرض التي طوّبها أرضَ التوراة. ثمّ قدّم لهم نهجًا يسيرون عليه وخريطة يستنيرون بها فلا يضلّون الطريق كما فعلوا إلى الآن وما زالوا يفعلون. أعفيكم من الحديث عن الخريطة لضيق الوقت، أمّا النهج فيتلخّص في بعض نقاط.

– ماتت اللغة العبريّة في القرن السادس كلغة محكيّة وعاشت مع الحركة الصهيونيّة، أو بالأحرى خُلقت من العدم من جديد أو بفعل سحر ساحر بعد أن جهلها على عصور حتّى علماء اللغة المصوريتيّون. إذًا، إن أردتَ أن تفهم نصوص التوراة اليوم أمامك طريقان لا ثالث لهما: الرجوع إلى العبريّة الحديثة أو الاسترشاد باللغات الساميّة التي ما زالت حيّة مثل العربيّة والسريانيّة. لستُ أدري لماذا تعلّق الصليبيّ بالسريانيّة، وترك جانبًا العبريّة الحديثة التي ظلّت الجماعات اليهوديّة تتكلّمها عبر تاريخها في مجابرها[٢٠] حتّى في أيّام هتلر التعيسة. أيعقل بالنسبة إلى شعب وعى تاريخه إلى هذا الحدّ، كما يقول الصليبيّ[٢١]، أن يأتي يومٌ يجهل اللغة التي كتب فيها تاريخه؟

ولكنّ هذا الشعب الذي كتب التوراة مات هو أيضًا. مات في أرض السراة ليحيا في أرض فلسطين، كيف؟ هذا ما لا يقوله الكاتب بوضوح. متى؟ هنا يتردّد الكاتب، إنّما يجعل موت الشعب العبرانيّ يموت يوم تموت لغته أي بعد دمار أورشليم، عفوًا آل شريم (كما يسمّيها الكاتب) سنة ٥٨٦. ولكنّ الشعب الذي كان في أرض السراة في شبه الجزيرة العربيّة هو غير الشعب

(٢٠) من المعروف أنّ اليهود عاشوا في أيّامهم الحالكة في أحياء منعزلة ومقطوعة عن سائر الأحياء وهذا ما يسمّى بالفرنسيّة Ghetto.
(٢١) الصليبيّ، ص ٥٣.

الذي سيكون في فلسطين على أيّام الحشمونيّين الذين حكموا اليهوديّة في القرنين الثاني والأوّل ق.م. وكان منهم هيرودس الكبير الذي في زمانه وُلد يسوع المسيح.

القاسم المشترك بين بني إسرائيل الذين أقاموا في أرض السراة وبين اليهود الذين أقاموا في أرض فلسطين هو إحساس مرهف بالتاريخ[٢٢]. الأوّلون كتبوا ولكنّهم لم يتركوا أثرًا لكتابتهم في الجزيرة العربيّة، ولعلّها بادت كما باد بنو إسرائيل الذين يحسبهم الدكتور الصليبيّ من القبائل البائدة. أمّا اللاحقون فعملوا في أيّام الحشمونيّين ما لم يفعله أحد من شعوب الشرق سواهم: أعادوا تأويل الجغرافيا التوراتيّة فلسطينيًا بدلاً من تأويلها حسب جغرافيا شبه الجزيرة العربيّة بهدف الترويج لشرعيّة يهوديّتهم[٢٣]. لا شكّ أنّ الكاتب يطرح هذا الكلام كفرضيّة وبكلّ الحذر اللازم، كما يقول، ولكنّنا نفهم أنّه ينطلق من الحاضر ليعود إلى الماضي متناسيًا أنّ التاريخ ينطلق من الماضي ليصل إلى الحاضر. لا شكّ في أنّ التاريخ يؤوّل، والشعب اليهوديّ كان من أوائل من فسّر تاريخه على ضوء الوحي بالإله الواحد، ولكن كيف نفرض الحاضر على الماضي وننطلق من صهيونيّة القرن العشرين لنفهم التوراة، التي كتبت بمئات السنين قبل المسيح؟! وكيف نفرض أسماء قرأناها في جغرافيّات بدأت في الظهور سنة ١٩٧٧ ب.م. فنعتبرها أسماء شعوب بادت في القرون السابقة للمسيح؟! فهذا أمر يأباه الفكر الواعي. إذا أردنا أن نحارب الصهيونيّة في الشرق وتأثيرها في الغرب، فأنا لا أظنّ أنّ مثل هذا الأسلوب يُقنع العقل بل يكتفي بأن يدغدغ العاطفة. وهكذا نبقى في عيون أصحاب الرأي أناسًا تستهوينا نظريّات نستنبطها وما نعتّم أن نصدّقها، وعندما نصحو من غفوتنا يكون الناس سبقونا بأشواط.

(٢٢) نقرأ في الصليبيّ، ص ٥٣: «وبين شعوب الشرق الأدنى القديم يبدو أنّ بني إسرائيل كانوا وحدهم المالكين لإحساس مرهف بالتاريخ، أو هم، على الأقلّ، الوحيدون الذين فهموا أنفسهم تاريخيًّا».

(٢٣) الصليبيّ، ص ٤٩، حاشية ٢٤.

– هذا التاريخ قرأه الدكتور الصليبيّ في التوراة، التي لا تعني له الأسفار الخمسة المنسوبة إلى موسى فحسب، بل ما يُسمّى العهد القديم. ولكنّه لم يقرأ التوراة كما يقرأها أديبٌ يأخذ بعين الاعتبار الفنّ الأدبيّ الذي يتوسّله الكاتب، بل كلغويّ اقتطع الكلمات من أماكنها – أو المقاطع القصيرة – وبنى بها بناءً جديدًا[٢٤]. احتفظ بالأحداث التاريخيّة كما نقرأها في الكتاب المقدّس بعهده القديم، لكنّه نقل هذه الأحداث إلى شبه الجزيرة العربيّة. فهو كما يقول، اكتشف في هذه المنطقة أسماء قرأ مثلها في التوراة فوضح له الأمر. عاد إلى كتب الجغرافيا، قديمها (وهو يعود إلى القرن ١٠–١٣ب.م.) وحديثها وتبيّن فيها أسماء العلم، وسافر إلى شبه الجزيرة العربيّة فحدّد فيها موضع أورشليم والسامرة وبيت لحم وحبرون، وصور وصيدا ولبنان، وموطن بني إسرائيل والفلسطيّين (الذين أقاموا قديمًا على الشاطئ الفلسطينيّ) والفينيقيّين، ومسار الحملات العسكريّة التي جرّدها الفراعنة إلى منطقة الشام كما يسمّيها.

– ونسأله هل قام بحفريّات في هذه الأمكنة؟

ولكنّ الدكتور الصليبيّ يعتبر أنّ الحفريّات التي تمّت في الشرق لا تفيد العالِم الباحث بدقّة عن الأمور. أتكون الدول المتحضّرة عند هذا الحدّ من الغباوة؟ أيكون أشخاص قضوا حياتهم بين الأتربة والغبار أضاعوا العمر من دون جدوى؟ أم أنّ الذين درسوا هذه الحفريّات لم يعرفوا أو لم يريدوا أن يستنتجوا ما يجب أن يستنتجوا لأنّ أفكارًا مسبقة – ملطّخة بالصهيونيّة – تمنعهم من ذلك؟ على كلّ حال، لا وجود للحفريّات في الأرض التي يعتبرها الصليبيّ موطن بني إسرائيل. وهو ينتظر الحفريّات التي ستكشف كنوزًا لا يتصوّرها العقل. هذا ممكن وربّما أكيد، ولكن أن تعيننا الحفريّات المنتظرة في

(٢٤) هذا ما فعله الكاتب حين تحدّث عن جلعاد القرية من وادي الزرقاء. قرأ الكاتب من سفر التكوين ٣١: ٤٧–٤٩ (ص ٣٠–٣١)، ولكنّه لم يربط هذه الآيات بما سبق أو بما لحق. فيعقوب غير مخّاضة يبّوق (٣٢: ٢٢) فكان على أحد روافد الأردنّ المعروف بوادي الزرقاء. ولكنّي أخاف أن يجعل الدكتور الصليبيّ هذا الوادي في مكان ما في بلاد السراة.

أرض السراة على اكتشاف آثار الشعب التوراتيّ الذي عاش في أرض فلسطين ولم تكن قبائله يهوديّة فحسب، فمسألة فيها نظر!

وعلى كلٍّ حال، وإن تمّت هذه الحفريّات بحسب الأصول، فتبقى نتائجها محدودة بالنسبة إلى ما نستطيع الحصول عليه في علم دراسة أسماء الأمكنة ومواقعها[٢٥]. أما ترى علماء التوراة يتردّدون في تحديد هذا الموضع أو ذاك، وفي التعرُّف إلى البقايا التي تركها القدماء؟

– أمّا البقايا التي يعتبر الصليبيّ أساسها ثابتًا فهي أسماء الأمكنة عمومًا، «إذ إنَّ هذه الأسماء تنتقل بدورها من جيل إلى جيل بالتوارث التقليديّ ولا تشهد تغييرًا على الأقلّ في بنيتها الأساسيّة، مهما مرَّ عليها من زمن»[٢٦]. ويزيد الصليبيّ فيقول: «ودراسة أسماء الأماكن تخدم بطريقتها الخاصّة الغرض نفسه الذي يخدمه علم الآثار الميدانيّ، مع فارق واحد هامّ، هو أنَّ الاكتشافات الأثريّة هي اكتشافات خرساء، ما لم تتضمَّن كتابات منقوشة، في حين أنَّ أسماء الأمكنة ناطقة»[٢٧]. هذا أمر لا شكَّ فيه، وقد أخذ به علماء الآثار منذ زمن بعيد وعلى هذا الأساس حدَّدوا موقع إبلا أي تلّ المرديخ[٢٨]. ولكنَّهم لم يكتفوا به[٢٩] كما فعل الصليبيّ، بل زادوا عليه معلومات وجدوها في البقايا البشريّة،

(٢٥) هذا ما نسمّيه في الفرنسيّة: onomastique et toponymie

(٢٦) الصليبيّ، ص ٥٩.

(٢٧) الصليبيّ، ص ٦٠.

(٢٨) P. MATTHIAE, «Royaume d'Ebla», in *Encyclopaedia Universalis*, Unversalia, 1977, p. 193-196.

(٢٩) هناك أسس لاستعمال النتائج التي يكتشفها علماء الحفريّات. M. BROSHI, «Recherches archéologiques», in *DBS* IX, (Paris 1979), col. 1475-1479.

أكانت نقودًا أو فخّاريّات[٣٠] أو بناء أو كتابات. فأورشليم[٣١] مثلاً التي أعتبرُها أنا بنت فلسطين منذ العهد الكنعانيّ القديم، إن لم يكن قبل ذلك العهد (أي حوالي الألف الثالث)، تركتْ لنا بقايا سور يرجع عهده إلى القرن ١٨ ق.م.، وأخرى من القرن التاسع تربط مدينة داود بهيكل أورشليم، وأخرى تعود إلى القرن ٧ وهي تحاذي بقايا من عهد الحشمونيّين. هناك جدار بُني قديمًا وأُعيد بناء ما تهدّم منه بعد الرجوع من جلاء بابل أي سنة ٥٣٨ ق.م. بحسب الفنّ المعماري الفارسيّ، كلُّ هذا يفهمنا أنَّ تاريخ المدينة هو في الحجر قبل أن ينطق في البشر.

– ولكن هل يقبل الدكتور الصليبيّ بما كتبه البشر وبما تركه لنا القدماء من نقوش؟ لا شكّ، ولكنَّه يقرأ هذه الكتابات عكس علماء التوراة، فيجعل الأماكن المذكورة فيها لا في أرض فلسطين كما يفعلون، بل في أرض السراة. فعمود شيشانق الأوّل، فرعون مصر، خضع «لسوء التأويل التقليديّ للجغرافيا التوراتيّة»[٣٢]، ونقش ميشع، ملك موآب[٣٣] قُرِئَ قراءة خاطئة. وهكذا قل عن جميع النصوص القديمة أكانت مصريّة أو عراقيّة قديمة. إذًا يجب إعادة قراءتها في لغاتها الأصليّة وليس في الترجمات المتوفِّرة لها حتّى الآن[٣٤]، وأزيد أنا

(٣٠) الآثار الفخّاريّة مهمّة جدًّا وتأتي أهمّيّتها حين لا نجد نقودًا ولا كتابات في أماكن الحفريّات. فنحن نستطيع أن نقابل وعاء فخّار نكتشفه في هذا المكان بوعاء آخر نستطيع أن نحدّد تاريخه بما اكتشفنا بجانبه من نقود: راجع: P. E. BONNARD, «Poterie Palestinienne, in *DBS* VIII (Paris, 1972), col. 136-240. Voir aussi l'abondante bibliographie.

(٣١) راجع. L. H. VINCENT, «Jérusalem», in *DBS* IV (Paris, 1949), col. 897-966. في هذا المقال يذكر الكاتب بناء المدينة القديمة، وأسوارها المتعدّدة والأماكن المعروفة فيها منذ زمن يشوع بن نون حتّى داود وسليمان وإلى ما بعد الجلاء. «Jérusalem, les prières et les hommes», *Le Monde de la Bible,* n. 1, Bayard, Paris يحدّثنا الكتاب عن أبواب المدينة وأسوارها منذ القديم حتّى أيّام العثمانيّين.

(٣٢) الصليبيّ، ص ٢٠٧.

(٣٣) موآب منطقة تقابل البحر الميت. ولكنَّ وجود «ديني» يحملنا لا إلى القرية الحاليّة ذبيان إلى الشمال من منطقة الكرك في المملكة الأردنيّة بل إلى ديبان في الحجاز (الصليبيّ، ص ١١٣) لماذا؟ لست أدري. Voir J. BRIEND, & M. -J. SEUX, *Textes du Proche Orient ancien*, Le Cerf, Paris, 1977, p. 90-92.

(٣٤) راجع الصليبيّ، ص ٦٨–٦٩.

شخصيًّا، لما في هذه الترجمات من تحريف. هكذا الحكم يصل إلى التوراة. ويقترح الدكتور الصليبيّ ترجمة بعض النصوص للقارئ العاديّ الذي لا يتمكّن من قراءتها في لغتها الأصليَّة. وإليك هذا المقطع الشعريّ الجميل من سفر زكريّا (١١: ١-٣) كما ترجمناه:

افتح يا لبنان أبوابك، فتأكل النيران أرزك

ولول أيُّها السرو على سقوط أرز لبنان

ودمار أشجاره العظيمة.

وَلوِلْ يا بلُّوط باشان على تكسُّر غاباته الوافرة

ها صوت ولولة الرعاة على خراب مراعيهم!

ها صوت زئير الأشبال على دمار زهو الأردنّ!

وإليك الترجمة المقترحة[٣٥]: «افتح أبوابك يا لبينان فتأكل النار عرعرك. ولول يا سرو لأنَّ العرعر الذي أخربته الذرى قد سقط. ولول يا بطم البثنة لأنَّ غابة الصابر قد سقطت. اسمع ولولة أهل ريع لأنَّ ذروتهم خربت. اسمع زمجرة الرفقات لأنَّ غوان ريدان قد خرب.»

يريد الصليبي بالذرى الذرى البركانيَّة، لأنَّ المنطقة المفروضة علينا منطقة بركانيَّة. والعرعر هو الأرز لأنَّ الأرز لا وجود له في ذلك الموضع الذي حدَّده لنا كموطن التوراة. وريع هو وادٍ في ناحية بني الغازي، والرفقات قرية في جبل هروب. وأنا أترك للقارئ أن يقابل ويختار بين ترجمتين، وبالتالي أن يتعرَّف إلى نمط الدكتور الصليبيّ في قراءة النصوص الشعريَّة وغيرها على طريقة علماء الجغرافيا.

(٣٥) الصليبيّ، ص ١٥٤: أمّا كيف يصل الدكتور الصليبيّ إلى هذا النصّ؟ فهو ينطلق من مسلَّمة لا تقبل النقاش، وهي أنَّ هذه الأماكن موقعها في أرض الجزيرة العربيَّة. ثمَّ يقرأ الكلمات بطريقة تساعده على اكتشاف الأمكنة التي قرأها مسبقًا في المنطقة التي حدَّدها. لبنان هو لبنون في العبريّة فيصير لبينان. أزر هو أرز في العبريّة فيصير العرعر. «أدريم» صارت الذرى. باشان هو بشن في العبريَّة فصار البثنة. «بصور» هي الصابر والرعاة ريع، الأشبال (كفيريم) الرفقات، وكبرياء (جاه) الأردنّ (ج ء و ن. هـ ي ر د ن) صار غوان ريدان. فتأمَّل!

د – الطريقة الوحيدة لقراءة أسماء الأماكن في التوراة

أُغلقت كلُّ الطرق بوجهنا، فما بقي لنا إلاَّ أن نقرأ أسماء الأماكن الموجودة في التوراة كما فعل الدكتور الصليبيّ. ولكنَّ القارئ يسأل الكاتب: كيف صارت «بيت عرم» قرية عمر مقبول في ناحية المضايا، «ويدهمرك» المراكة في وادي العرضيَّة الشماليَّة من منطقة القنفذة[٣٦]؟ أما قال الكاتب إنَّ الأسماء ثابتة لا تشهد تغييرًا؟ ولكنَّ الدكتور الصليبيّ أنقذ نفسه حين حصر عدم التغيير في البنية الأساسيَّة، ثمَّ فتح الطريق أمام كلِّ التغييرات ليصل بنا إلى ما في خريطةٍ وضَعها في الفصل الثالث من كتابه من غرب شبه الجزيرة العربيَّة.

قابلَ الدكتور الصليبيّ الأبجديَّة العبريَّة بالأبجديَّة العربيَّة، وأبرز الجذور المشتركة بين العبريَّة التوراتيَّة والعربيَّة، ثمَّ أعلن تحوُّلات الأحرف التي يقرُّها علماء اللغات الساميَّة بين اللغتين. وإليك بعض الأمثلة: ج في العبريَّة تصبح في العربيَّة غ، ق؛ د تصبح ذ، ز، وأحيانًا ت، ص ، ظ في اللفظ العامّيّ؛ ز تصبح ذ، ص، ض، ظ...

وهكذا نجد نفوسنا أمام إمكانيَّات عديدة لنقرأ في العربيَّة كلمة وردت في التوراة العبريَّة. مثلاً جرار والقرار، وهذان الاسمان موجودان في غرب شبه الجزيرة العربيَّة، وعلي الغي، وصيدون زيدان. ولكنَّ الدكتور الصليبيّ نسي أنَّ التحوُّلات غير محدودة. ويمكننا أن نزيد على لائحته على سبيل المثال لا الحصر: أ تصبح ح (أفّ، حفَّ) أو ق (أطاد، قتاد) أو هـ (أجر، هجر)؛ ج تصبح ك (شجر، سكر)، ط (نجح، نطح)؛ ب تصبح م (بحن، محن)؛ هـ تصبح ح (أهب، أحب). هنا تفهمون كيف استطاع الدكتور الصليبيّ أن يجد في أرض السراة بعض الأمكنة المذكورة في التوراة. ولو توقَّف الدكتور الصليبيّ عند هذا الحدّ لهان الأمر. ولكنَّه لجأ إلى الاستبدال[٣٧] أي قلب الأحرف في

(٣٦) الصليبيّ، ص ٢١٢-٢١٣.

(٣٧) في الفرنسيَّة (Métathèse)

الجذر المشترك بين لغة وأخرى (يعطي مثلاً في اللغة العاميّة: زوج، جوز)، كما لجأ إلى وسائل أخرى لا سبيل إلى ذكرها. وبهذه الطريقة قرأ أسماء التوراة التي وردت على ذهنه وجعلها في بلاد السراة، والأمر سهل لأنّنا في لغات ساميّة متقاربة الحروف: فصارت جلعاد الجعد، تعنك عنقه، وصار الأردنّ العظيم (ج ء و ن – هـ– ي ر د ن) غوان ريدان. وجبيل القابل، ولبنان لبينان، وهو مثنّى لبن لأنّ ياقوت الحمويّ يذكر جبلين قرب مكّة يقال لهما لبن الأسفل ولبن الأعلى (لست أدري من أين جاءت الياء بين الباء والنون). ويمكن أن يكون لبنان هو المذكور عند الهمذانيّ في صفة جزيرة العرب: هناك لبينان في شمال اليمن في جوار منطقة نجران. إذًا لن نتحدّث عن لبنان الشام ما دام يحتاج إلى صفة ليعرَّف وهو المذكور منذ القديم، بل عن لبينان؛ ولن نتحدّث عن الأرز الذي ذكرته الملحمات القديمة بل عن العرعر وهو موجود بكثرة لا في لبنان الشام بل في أسرار منطقة همذان اليمنيّة(٣٨). كيف تحوّل الأرز إلى عرعر والأستاذ الصليبيّ وعدنا بأنّه لا يترجم الأسماء!

أتتعجّبون بعد هذا أن يتوصّل الدكتور الصليبيّ أن يقرأ ما نُقش في عمود أمون في الكرنك عن حملة شيشانق الأوّل على أرض كنعان سنة ٩٢٥ ق.م.؟ ظلّ العلماء الغربيّون سنوات يحاولون قراءة هذه الكلمات الهيروغليفيّة، فتعرّفوا إلى بعض الأسماء الموجودة في أرض فلسطين، وأعلنوا جهلهم لأسماء أخرى تذكرها الكتابة المنقوشة. ولكنّ الأسماء التي تأكّدوا منها (مع ما ورد في التوراة) تشير إلى مسار حملة شيشانق الذي دمّر حصونًا بناها سليمان جنوبيّ بئر سبع بما فيها قادش أي عيد قُديس، ووصل إلى أورشليم، فدفع له رحبعام جزية باهظة. ثمّ عاد بطريق البحر عبر مجدُّو الكعنة، وشنمي، مشينة في سراة زهران وشنريء شريان ويدرم المرداء وشود الديش. وأترك للقارئ أن يتتبّع مسار حملة شيشانق في ص ٢٠٧ وما يلي، فيرافقه عبر بحر الأحمر

(٣٨) الصليبيّ، ص ١٥٢.

ويتوغّل وإيّاه في أراضي الجزيرة العربيّة. ويسأل الباحث الدكتور الصليبيّ: إنّ العلماء التوراتيّين قد اكتشفوا بقايا حصون بناها سليمان طريقًا لقوافله وجيوشه، فوصلوا إلى بعض اليقين مع ما قرأوه في النصّ المذكور، فكيف تمكّن هو من تحديد الأماكن التي غزاها شيشانق؟ يجيب: «على العموم، فإنّه يكفي القول إنّه يظهر أنّ الغازي المصريّ اندفع بغزواته شرقًا حتّى حرّة البقوم حيث أغار على بير التي هي اليوم واحة الوبر بمنطقة تربة. والواضح أيضًا أنّه اتّجه جنوبًا من سراة زهران... وقد وصل شيشانق في غزواته الداخليّة إلى وادي بيشه...»(٣٩).

أترك للقارئ أن يحكم على هذه الأمور ولا أظنّه غبيًّا إلى هذا الحدّ من الغباوة!

(٣٩) الصليبيّ، ص ٢١٨.

هـ - النتائج التي توصَّلنا إليها

تحدَّثتُ بهذه اللهجة القاسية على كتاب أَعتبرُه خطرًا على القرّاء العرب لأنَّه يقينا في العصور الجاهليَّة التي وسَّعها الكاتب وما حدَّدها، لأنَّه ترك التاريخ والتحق بالجغرافيا. وهنا أذكر ما قال لي باحث العلوم الإسلاميَّة الذي قرأ مقتطفات لكتاب الصليبيّ في «القبس» الكويتيَّة قال: «قراءته لذيذة وإن كنتُ لا أصدِّق شيئًا ممّا يقوله». ولكن ماذا ترى يفعل القارئ العاديّ الذي يقال له إنَّ أرض التوراة بلاد عسير في غربيّ الجزيرة لا أرض فلسطين؟ القارئ العاديّ لا يستطيع أن يجاري رجال الاختصاص في معارج اللغة، ولكنَّه يكتفي بالنتائج والنتائج أكيدة عند الدكتور الصليبيّ. وسوف نقرأ معكم أوَّل مثَل حدَّثنا عنه وأطال الحديث: موقع جرار.

جرار مكان في النقب أقام قربه إبراهيم وإسحق، ولم يعثر الباحثون على آثاره الدقيقة إلى اليوم رغم المحاولات العديدة. أمّا الصليبيّ فانطلق من تردُّد العلماء هذا، وجعل جرار في شبه الجزيرة العربيَّة. كيف توصَّل إلى ذلك؟ قابلَ النصوص العبريَّة التي تورد اسم هذا الموقع. ولمّا رآها متضاربة، قال لا يمكن أن تكون جرار في جنوبيّ كنعان، إذًا هي في شبه الجزيرة العربيَّة. ولكنَّ هناك مواقع عديدة بهذا الاسم في أرض عسير: غُرار (بضمّ الغين) وغِرار (بكسر الغين) والجرار والقرارة. لا حاجة إلى القول لكم كيف صارت صيدون زيدان، ومصر المصرمة، إنَّما أسوق إليكم نهاية البحث في موقع جرار. يقول الصليبيّ: «وفي ضوء ما ورد أعلاه، فإنَّ أرض الكنعانيِّين التوراتيِّين في شبه الجزيرة العربيَّة وليس في فلسطين[٤٠]... ويتَّضح تمامًا ممّا ورد أعلاه... وهكذا أصبحت القضيَّة الآن واضحة، فليست هناك أي جرار قرب غزَّة في

(٤٠) الصليبيّ، ص ١٠١: نلاحظ هنا إحدى طرق الدكتور الصليبيّ في التأكيد على أقواله دون أن يبرهن عليها إطلاقًا. وأشير هنا إلى أنَّه كتبَ في مقدِّمته بعد أن أحدث الكتاب ما أحدث من ضجّة فأعلن أنَّه ربَّما وقع في بعض الأخطاء. وأنَّه طرح المقولة، وهو ينتظر أن تثبت صحَّتُها (ص ١٩). ولكن كلّ فصل ينتهي بكلمات تؤكِّد ما يقوله ولا تترك مجالاً للشكّ.

فلسطين، وبين الكثيرات الموجودات في عسير فإنَّ واحدة (القرارة، قرب خميس مشيط) هي جرار المذكورة في سفر التكوين ٢٠ و٢٦». وهكذا قال الكتاب وانتهى النقاش.

لو كان الكاتب يبحث عن الحقيقة ليخضع لها، لكان توقَّف عند المدن المذكورة مع جرار وهي معروفة في التاريخ القديم، ومثله مثل من لا يجد ضيعة قرب صيدا وبيروت فيترك صيدا وبيروت ويذهب إلى تركيّا يبحث عن هذه الضيعة. ففي سفر التكوين ١٠: ١٩ ترد جرار مع صيدون وغزَّة، ولست بحاجة إلى أن أعرِّف عن هذين الاسمين؛ وفي ٢٠: ١-٢ ترد مع قادش وشور القريتين من الحدود المصريَّة. يقول الكاتب إنَّ علماء الآثار وجدوا فقط بقايا بيزنطيَّة في تلك المنطقة. والواقع هو أنَّ قادش بُنيَت مرَّة أولى في القرن ١١ ق.م.، وبعد أن دُمِّرت على يد شيشانق الأوَّل، أعاد بناءها الملك عزيًّا (٧٨٤-٧٣٣ ق.م.). ودُمِّرت مرَّة ثالثة على يد القبائل الآتية من الصحراء؛ فأعاد بناءها الملك يوشيّا (٦٤٠-٦٠٩ ق.م.). وستُدمَّر أخيرًا مع سائر مدن يهوذا وأورشليم سنة ٥٨٦ ق.م. هذا ما اكتشفه علماء الآثار بالدليل الحسّيّ.

وإذا رجعنا إلى النصِّ العبريّ المذكور في سفر التكوين (٢٠: ١) فهو يقول: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وسكن بين قادش وشور وتغرَّب في جرار[٤١]». هل تجدون في النصِّ ما ينبئ بأنَّ جرار تقع بين قادش وشور، وهذه «البين» هي الأساس في برهان الصليبيّ، ينطلق منها ليقول إنَّ جرار لا يمكن أن تكون قرب صيدون بين قادش وشور. والنصّ المذكور في أخبار الأيّام الثاني (١٤: ١١-١٢) والذي نقرأ فيه عن «كوشيم» ألا يمكن أن يكون كوشان قرب مديان كما نقرأ في سفر حبقوق (٣: ٧)، ومديان تقع جنوبيّ كنعان.

(٤١) وإليك النصّ العبريّ: و ي ش ب/ ب ي ن/ ق د ش/ وب ي ن/ ش و ر / و ي ج ر/ ب ج ر ر. إذًا لا وجود لكلمة بين قبل جرار. لو رجع الدكتور الصليبيّ إلى الفنون الأدبيَّة والتقاليد الكتابيَّة لعرف أنَّ ما يهمُّ الكاتب هو الوصول إلى جرار حيث يقيم إبراهيم غريبًا.

اعتبرَ الدكتور الصليبيّ أنّ النصوص تناقض بعضها، فلم يكن الأمر صحيحًا. ولكن وإن افترضنا أنّ التناقض حاصل في فهم التوراتيّين للنصوص، فما الذي يدفعنا إلى القول بأنّ جرار هي القرار في ثلاثة نصوص، والجرار في النصّ الرابع؟ تتابع الأسماء نقرأها كما نشاء، كما يقول الكاتب!

أمّا أورشليم المعروفة في النصوص القديمة فهي القرية الحاليّة آل شريم في مرتفعات النماص، «وفي يوم ما قد يؤكّد علم الآثار التحديد المقترح لموقع أورشليم التوراتيّة»[٤٢]. والشيء الأكيد هو أنّ مدينة داود (أي أورشليم كما يقول العلماء) التي هي اليوم أمّ حمدة في ألمع، كانت مكانًا مختلفًا تمامًا عن أورشليم هذه. كيف وصل الدكتور الصليبيّ إلى هذه النتيجة؟ قرأ بالتدقيق النصّ العبريّ لصموئيل الثاني (٥: ٦–١٠) الذي يتحدّث عن كيفيّة استيلاء داود على أورشليم، فوجد أنّ صهيون[٤٣] هي قصوة الصوّان، والعميان والعرج هم العورائيّون والصحيفيّون الساكنون في جبل عوراء إلى الشمال من جبل هروب، وصحيف من قرى جبل الحشر جنوب جبل هروب... كان غموض في النصّ، فإذا قرأناه بهذه الطريق تصبح الجغرافيا المطروحة واضحة تمامًا. لا حاجة إلى أيّ تعليق. ونحن لا نستطيع أن نقول شيئًا عن علاقة سليمان بأحيرام، لأنّ لا وجود لأحيرام في صور، بل في جبيل[٤٤]، وصور أصبحت الواحة الحاليّة

(٤٢) الصليبيّ، ص ١٩٢: وأتوسّع هنا في طريقة الدكتور الصليبيّ فأصل معه إلى وضوح تام في جغرافيَّة النصّ (ص ١٨١) كما يقول: ينطلق من النصّ الذي يروي كيف أخذ داود مدينة أورشليم وجعلها عاصمته كما هو مذكور في سفر صموئيل الثاني ٥: ٦–١٠ ويعتبر أنّ هناك تقصيرًا في الطريقة التي قرئ بها النصّ. رفض أوّلًا أن يكون داود قد توجّه إلى أورشليم ليحتلّها بصورة نهائيّة لا بطريقة عابرة، ثمّ فصل بين أورشليم وبرجه، برج صهيون، وأفهمنا كيف يجب أن تترجم الآية ٧. ثمّ جعل العور والعميان قبيلتين، بينما المعنى واضح وهو أنّه لو بقي أعمى أو أعرج في القلعة فسيقاوم داود ويمنعه من الدخول إلى الحصن. أمّا إله الصباؤوت، أي إله الجنود، فصار إله الصبيّات في جوار النماص من سراة عسير... ويستنتج الكاتب: «وفي ضوء ما قيل حتّى الآن، يجب البحث عن أورشليم التوراتيّة في منطقة ما إلى الشمال من قعوة الصيان» (ص ١٨٣) وأربأ بالقارئ أن أسيّره في معارج لا يستطيع الخروج منها.

(٤٣) هي المرّة الوحيدة يرجع فيها الكاتب إلى اللغة السريانيّة على ما أظنّ. راجع ص ١٧٨.

(٤٤) الصليبيّ، ص ٣٥، حاشية ٨: بأيّة سهولة يحذف الكاتب اسم أحيرام كملك لصور، لأنّ هناك أحيرام في غير نصوص، كان ملكا لجبيل.

الكبيرة زور. وسفنها المعروفة كانت في الحقيقة قوافل حيوانات. والهيكل الذي بناه سليمان بأرز لبنان (١ مل ٥: ٦؛ ١ أخ ٢: ٨)، لم يكن أرزًا بل عرعرًا، جاء من لبينان بحرًا إلى يافا (٢ أخ ٢: ١٦)؛ أمّا الهيكل الذي يذكره عزرا (٣: ٧) فأرزه من أيّ لبنان جاء وقد أوصله الصيدونيّون والصوريّون بحرًا إلى يافا بموجب إذن كورش ملك فارس؟ أما ترى أنّ الذين جاؤوا من المنفى في عهد الأخمينيّين فعلوا كما فعل سليمان وبنوا هيكلهم حيث كان هيكل سليمان الذي أُحرق؟

وماذا نقول عن السامرة التي صارت شمرون، وحبرون التي هي الخربان[٤٥] والتي نجدها في خمسة أمكنة على المنحدرات البحريّة لعسير؟ أمّا حبرون[٤٦] فلسطين فلم يكن اسمها كذلك، بل اسمها الأصليّ الخليل. فاليهود والمسيحيّون أطلقوا هذا الاسم العربيّ الأصل، وقبلت التقاليد الإسلاميّة بذلك، وكأنّي بالشعب المغلوب يفرض إرادته على الفاتح، والعربيّة سيطرت على اللغات الساميّة التي سبقتها. ماذا تقولون؟ في التوراة العبريّة الكلمة التي تعني خليل هي آهب أي محبّ، والنصّ اليونانيّ للسبعونيّة كما يقرأها المسيحيّون يعود إلى كلمة «أغابه» أي المحبّة، وفي رسالة القدّيس يعقوب (٢: ٢٣)، إبراهيم هو «فيلوس ثيو» أو خليل الله. فما هي الظروف التاريخيّة التي حوّلت حبرون إلى الخليل؟

أطلْتُ عليكم الحديث. عذرًا، ولكنّ الكتاب الذي نناقش يتطرّق أيضًا إلى أمور عديدة جدًّا: فأبواب مدينة أورشليم تصبح قرى، والفلسطيّون[٤٧]

(٤٥) الصليبيّ، ص ٢٠٣، رقم ١٥.

(٤٦) M. DU BUIT, *Géographie de la Terre Sainte,* Le Cerf, Paris, 1958, p. 205
W. F. ALBRIGHT, *op. cit.,* p. 46;
MOWINCKEL, «Die Grundung von Hebron», dans *Orientalia Sulcana,* 4 (1955), p. 67-76.

(٤٧) عن الفلسطينيّين الآتين من جزيرة كريت وغيرها من الجزر اليونانيّة راجع: T. DOTHAN, «Archeological Reflections on the Palestine problem», dans *Antiquity and*

المرتبطون بجزيرة كريت (فخّاريّات – أختام) والذين لا يمارسون شريعة الختان (أو التطهير) والذين أقاموا على الساحل الكنعانيّ في مدن خمس، كان موطنهم وادي كريت في مرتفعات رجال ألمع. هذا الشعب الذي حارب رعمسيس الثاني ورعمسيس الثالث ومنفتاح عاش في قرية الفلسة وانتهى أمره كشعب مستقلّ في القرن ١٠ ق.م. على يد بني إسرائيل، فهاجروا إلى الشام حيث أعطوا اسمهم لأرض فلسطين[٤٨].

وأنهي حديثي عن لبنان، وقد تركت الموضوع لصديقي القسّ غسّان خلف الذي أتحفنا بدراسة لاهوتيّة وتاريخيّة موضوعها: لبنان في الكتاب المقدّس[٤٩]. إنّما أسمح لنفسي ببضع كلمات ختاميّة أبيّن الطريقة التي بها تعامل الكاتب مع النصوص وكيف أكّد نتائجه. يورد مقطعًا من نشيد الأناشيد (٤: ٨) إليكم نصّه:

تعالي معي من لبنان يا عروس، معي من لبنان.

من أعالي أمانة انظري، من رأس شنير وحرمون،

من مرابض الأسود انظري، من جبال النمور.

لا ينطلق الكاتب من العبريّة بل من العربيّة بحسب الأسلوب الذي ذكرناه في تحوُّل الحروف والاستبدال وغيرها، فيصل بنا إلى ترجمة جديدة.

يعتبر المفسّرون أنّ «أمانة» يدلّ على إحدى قمم لبنان و»شنير» على إحدى قمم حرمون، وبما أنّ هذه الجبال كانت مكسوّة بالغابات فلا عجب أن

Survival (1957), p. 151-164.
M. DELCOR, «Philistins», dans *DBS* VII (Paris, 1966), col. 1233-1288.
G. E. WRIGHT, «Fresh Evidence for the Philistine story», dans *The biblical Archeologist*, 29 (1966), p. 70-86.
R. DE VAUX, *Histoire ancienne d'Israël: des origines à l'installation en Canaan*, Gabalda, 1971p. 456-480. Les Philistins sont ces peuples de la mer qui ont à un moment menacé l'Égypte.

(٤٨) الصليبيّ، ص ٢٥٣، حاشية ٥.

(٤٩) القسّ غسّان خلف، **لبنان في الكتاب المقدّس**، المنشورات المعمدانيّة، بيروت، ١٩٨٥.

تكون مرابض للأسود وجبالاً للنمور. ولكنّ للدكتور الصليبيّ تفسيرًا آخر[٥٠]: «إنّ لبنان وأمانة وشنير وحرمون هنا، هي مرتفعات لبينان في شمال اليمن، ويماني المروي في ناحية العارضة، وشريانة في جبل هروب وخمران في ناحية الحرث». ثمّ تصبح مرابض الأسود «الريث» وجبال النمور قمم جبل «ذونمّر»... وبعد هذا ستصبح دمشق القرية الحاليّة ذا مسك لأنّ عروسة نشيد الأناشيد (٧: ٦) أنفها كبرج لبنان المشرف على دمشق. من جعل العرعر[٥١] محلّ الأرز لأنّ لا وجود للأرز في تلك المنطقة التي يجب أن تكون أرض التوراة، لا يستنكف أن يجعل من دمشق قرية صغيرة، وصور سيّدة البحار واحة، ومصر مكانًا لا يكاد يعرفه أحد، كأنّ تاريخ الشرق كلّه ما اهتمّ إلاّ بهذه البقعة التي هي جنّة عدن والتي اسمها في كتاب الدكتور الصليبيّ. بلاد السراة، والتي موقعها غرب شبه الجزيرة العربيّة.

(٥٠) الصليبيّ، ص ٢٨٦: «أمانة» صارت يماني، و»شير» شريانة، و»أريوت» الريث بدل الأسود، و»نمريم» ذو نمر بدل النمور.

(٥١) ذُكرت كلمة أرز عشرات المرّات في الكتاب المقدّس، أمّا كلمة عرعر فذكرت مرّتين في إرميا. الأولى في ١٧: ١٦ (ويكون مثل العرعر في البادية) والثانية في ٤٨: ٦ (كونوا كعرعر في البرّيّة).

و – الخاتمة

كتاب للدكتور كمال الصليبيّ، قرأته وأُعجبت بهذا المجهود الذي قام به، وبكثرة المراجع التي اطّلع عليها: اللغات القديمة، علوم الآثار، جغرافيا المملكة العربيّة السعوديّة. ولفت نظري معرفته للغة العبريّة وإلمامه الواسع بمنطقة الجزيرة العربيّة. اتّبعت آثاره في عالم الكتاب المقدّس، ولم أستطع اللحاق به إلى الجزيرة العربيّة لأنّ الموضوع خارج عن اختصاصي. مراجعه في علوم الآثار ضئيلة، إن لم تكن مقصورة على بعض الكتّاب. أمّا في استقائه من الجغرافيّين العرب، فهو يكتفي أكثر الأحيان بالمراجع الحديثة، ويستفيد من السماع كما من القراءة. زار المنطقة العربيّة التي يتحدّث عليها، وسمع أسماء الأماكن من فم المقيمين فيها، وقابلها بما قرأه هنا أو هناك. عمل جبّار ولا شكّ، وأمّا النتيجة بالنسبة إليّ فهي تنتظر اثنين: تنتظر عالِمًا بالآثار يكشف الكنوز الدفينة التي يتكهّن الكاتب بوجودها، ومؤرّخًا يربط بين يهود فلسطين في زمن المسيح وبين من كانوا في عسير، أي بني إسرائيل، في الأزمنة القديمة. وبانتظار ذلك تبقى نظريّة الدكتور الصليبيّ افتراضًا يصلح للمناقشة ككلّ افتراض. غير أنّي أستبعد الحصول على نتيجة، ما دمنا ننتظر أن يكشف آثارنا وبقايا مدننا عالِم أجنبيّ سيشوّه الأمور بأفكاره المسبقة. وما دمنا نتّكل على البراهين التي نسوقها لا على العلوم (حفريّات، نقوش، نقود)، بل على اللغة التي تفرض ذاتها والكلام الذي نردّده، فنثير العاطفة والشعور ولا نأخذ بطريق العقل. أما هكذا فهم القرّاء العرب كتاب الدكتور الصليبيّ؟!

أمور عديدة يطرحها كتاب **التوراة جاءت من جزيرة العرب**. لو أردت التطرّق إليها لاحتجت إلى ثلاثة مجلّدات، ولكنّي أجمل رأيي بوضوح فأشدّد على ثلاثة أمور أظنّها تشكّل نقاط ضعف في الكتاب:

الأوّل: على مستوى الأركيولوجيا أو علم الآثار. أعطانا الكاتب الأمثلة القليلة التي يبدو فيها تردُّد العلماء في تحديد هذا المكان أو ذاك. ولكنّ

الأبحاث الأركيولوجيّة في أرض فلسطين التي عمرها مئة سنة ونيّف هي ثابتة في تسعين بالمئة بالنسبة إلى أسماء الأماكن الواردة في التوراة.

الثاني: على مستوى المقابلة بين اللغات. يدرس الكاتب نصًّا من النصوص راجعًا إلى مبادئ اللغة العبريّة، ثمّ يعود فيقرأ من خلال أسماء الأماكن التي اكتشفها في كتب جغرافيا شبه جزيرة العرب، فلا يستفيد هنا ممّا اكتشفه هناك أو هو يستنتج ما يشاء، وهذا هو الخلل الأساسيّ في الكتاب.

الثالث: على مستوى النهج. فهم الكاتب النصوص العبريّة بطريقته الخاصّة، فصار صاحب مدرسة جديدة. وكلّ جديد له رهجته. غير أنّ الأسس التي يبني عليها هذه المدرسة تظلّ واهية، ما دامت مرتكزة على تفرُّد في الرأي، ورفضٍ لما يقوله العلماء، وضعفٍ في علم الآثار، وتلاعب بالألفاظ والكلمات.

من أجل كلّ هذا نتردّد ولا نسير في الطريق التي حاول الدكتور الصليبي أن يفتحها لنا.

الفصل الرابع

كتاب الدكتور كمال الصليبي: التوراة جاءت من جزيرة العرب

طلب مني حضرة الأب أغناطيوس سعادة دراسة عن هذا الكتاب، فما تراجعت. وها أنا أضع هذا المقال في كتابنا ردّ على كمال الصليبي. لاشك، سوف نجد بعض التكرار. ولكن في كل مقال نظرة خاصة. أما المواضيع فجاءت كما يلي:

أ – المقدّمة

ب – نقطة الانطلاق

ج – اللغة العربية وحدها باقيه

د – أرض عبر موطن التوراة

هـ – البحث عن جرار

و – أرض يهوذا وعاصمتها أورشليم

ز – لبنان جار فلسطين

ح – خاتمة وحكم عام.

أ – المقدّمة

كتاب وضعه الدكتور كمال الصليبيّ في الإنكليزيّة وعرضه على دور النشر العلميّة في أوروبّا، فرفضت نشره. أخيرًا، طلبت مؤسّسة «دير شبيغل» الألمانيّة حقوق النشر من المؤلّف وعزمت على طبعه باللغات الألمانيّة والإنكليزيّة والفرنسيّة والهولنديّة والدانمركيّة. ولكن جاءت صعوبات وملابسات، فنشر بالإنكليزيّة والألمانيّة فقط، سنة ١٩٨٥. واجه الكتاب حملة مفتعلة من أجهزة الإعلام والدوائر الغربيّة والصهيونيّة، ومن بعض الأوساط العربيّة، التي رأت فيه دعوة إلى إسرائيل لاحتلال بلد آخر غير فلسطين هو بلاد عسير الواقعة في غرب شبه الجزيرة العربيّة. ذلك أنّ الكاتب يعتبر أنّ الأسماء التي نقرأها في التوراة ليست موجودة في فلسطين بل في عسير؛ فلا وجود لأورشليم حيث أقام داود وسليمان، بل هناك آل شريم في جزيرة العرب، وبيت لحم هي أمّ لحم في وادي أضم. ولبنان انتقل إلى الجزيرة العربيّة، وصارت صور واحة من واحات تلك المنطقة فغزت الشرق والغرب لا بأساطيل من السفن، بل بقوافل الحيوانات.

كيف توصّل الدكتور الصليبيّ إلى كلّ هذه النتائج التي لم يسبقه إليها أحد؟

ب – نقطة الانطلاق

يحدّثنا الكتاب عن اكتشاف تمّ بالصدفة. كان يبحث عن أسماء الأمكنة ذات الأصول غير العربيّة في غرب شبه الجزيرة العربيّة، ففوجئ بوجود أرض التوراة كلّها هناك (ص ٢٧). أجل! كلّها، كما يقول. وأوّل ما تنبّه إليه أنّ في هذه المنطقة أسماء أمكنة تشبه أسماء الأمكنة المذكورة في التوراة. وسرعان ما تبيّن له أنّ كلّ أسماء الأمكنة التوراتيّة العالقة في ذهنه، أو جلّها، ما زال موجودًا في ما يسمّى اليوم عسير والجزء الجنوبيّ من الحجاز. وما علق في ذهنه من أسماء يكفي لكي يعمّم اختبارًا جزئيًا على كتاب تتجاوز صفحاته الألفين، هو التوراة أو الكتاب المقدّس بعهده القديم.

ولمّا رأى تجمّع أسماء عديدة، قدَّم الاستنتاج الشخصيّ المذهل، قال: اليهوديّة لم تُولد في فلسطين بل في غرب شبه الجزيرة العربيّة، ومسار تاريخ بني إسرائيل، كما هو وارد في التوراة العبريّة، كان هناك، في غرب شبه الجزيرة العربيّة، وليس في أيّ مكان آخر.

كيف وصل الكاتب إلى هذا الاستنتاج؟

اعتبر، أوّلاً، أنّ علماء اليهود (المصوريتيّون) حرّفوا النصوص عن جهل أو عن سوء نيّة، وأنّ علماء التوراة، ومعظمهم من المسيحيّين، يتصرّفون بأفكار مسبقة، إن لم تكن مغرضة، بسبب الدعاية الصهيونيّة. يكتشفون بعض الآثار هنا أو هناك فيسارعون إلى القول إنّ هذا المكان موجود في فلسطين، ويحدّدون موقعه. ولكنّ آراءهم تتضارب، لأنّ أرض التوراة ليست أرض فلسطين، كما يقول.

هنا لا بدّ من توضيح الفرق بين العلماء وأنصاف العلماء. العالِم لا يؤكّد نظريّته، لأنّه يعلم أنّه يعرف شيئًا وتغيب عنه أشياء. هكذا علماء التوراة. ولكن إن هم لم يحدّدوا مكانًا بالضبط، إلاّ أنّهم لا يكونون بعيدين عن الحقيقة. فمثلاً مدينة أريحا القديمة هي تلّ السلطان التي لا تبعد كثيرًا عن أريحا الحاليّة. ثمّ إنّ علماء التوراة يقدّمون افتراضًا ولا يفرضونه على أنّه صحيح، بل يعتبرون ما

يقدّمونه عرضة للجدل، لأنّ المعرفة تتقدّم. وهم ليسوا، كما يقول المؤلّف (ص ١٠٥) اختصاصيّين اتّفقوا على القرّاء الذي يجهلون مجالات اختصاص التاريخ القديم، بل هم خدّام الحقيقة، بل خدّام كلمة الله يحاولون جاهدين أن يفهموها مستعينين بكلّ الوسائل التي بيدهم.

ويبدأ الكتاب بملاحظات لغويّة. هناك جذور مشتركة بين العبريّة التوراتيّة والعربيّة، وهذا أمر يعرفه كلّ باحث. وهناك تحوّل في الأحرف، وهذا أمر يقرّه علماء اللغات الساميّة. فحرف «ش» في العبريّة يمكن أن يصير «س» في العربيّة، وكلمة شمس العربيّة تقابل شمش العبريّة. وقدّم لنا الكاتب لائحة بالتحوّلات التي اكتشفها. مثلاً، ج تصبح غ، ق. د تصبح ذ، ز، وأحيانًا ت، ض، ظ في اللفظ العاميّ. ز تصبح ذ، ص، ض، ظ، إلخ. هنا، نوضح أنّ اللائحة التي قدّمها لا تستنفد كلّ الاحتمالات، ونعطي مثلين على ذلك فقط: أ تصبح ق. مثلاً، أطاد تصبح قتاد. هـ تصبح ح. أهب تصبح أحب. إذًا الإمكانيّات غير محدودة ولا يمكن، بالتالي حصرها.

ثمّ يستعين الكاتب بالاستبدال، أي قلب الأحرف في الجذر المشترك، كما في العامّيّة: الزوج (في الفصحى) والجوز (في العامّيّة)، أي رجل المرأة. وهناك أمور أخرى لا مجال لذكرها.

ج – اللغة العربيّة وحدها باقية

ويقول الكاتب: عاش بنو إسرائيل في أرض السراة حتّى الجلاء إلى بابل، سنة ٥٨٦ ق.م. ولمّا عادوا إلى بلادهم لم يجدوا لهم مكانًا هناك، فتوجّهوا إلى فلسطين وأقاموا فيها أيّام حكم الأخمينيّين الفرس على منطقة الشرق الأدنى. وكما سيُعين الإنكليز الصهاينة لإقامة دولة إسرائيل في القرن العشرين، هكذا فعل الفرس في القرن السادس ق.م. فصارت أرض بني إسرائيل في فلسطين منذ ذلك الوقت، بل زال بنو إسرائيل مع من يُسمّيها التاريخ القبائل البائدة، ووُلدت اليهوديّة في فلسطين، وكتبت تاريخها على ضوء الواقع الجديد. وبما أنّ اليهود يملكون إحساسًا مرهفًا بالتاريخ، كما يقول، كتبوا تاريخهم الذي نعرفه في التوراة التي بين أيدينا، ولكنّهم نقلوا جغرافيا التوراة من غرب شبه الجزيرة إلى فلسطين. فيجب على الباحث اليوم، والحالة هذه، أن ينقل جغرافيا التوراة من فلسطين ويعيدها إلى مكانها الأصليّ. ولكنّنا نسأل الكاتب: هناك السجلّات المصريّة والشاميّة، وسجلّات العراق القديم، فكيف نوافقها مع هذه النظريّة الجديدة؟ فيجيب: على العالِم العودة إلى قراءة هذه السجلّات القديمة على ضوء هذا التوافق الجغرافيّ الجديد للتاريخ التوراتيّ. ونسأله: هناك لبنان المجاور لأرض بني إسرائيل؟ فينقل لبنان أيضًا إلى شمال اليمن. وهناك الفلسطيّون الذين كانوا في مدن مثل غزّة وأشقلون؟ فيجيب: عاشوا في وادي فلسة قبل أن يقهرهم بنو إسرائيل، فانكفأوا إلى الشام، وتسمّت فلسطين باسمهم.

ونحدّثه عن الحفريّات، فيرفض نتائجها جملة وتفصيلاً بسبب الأفكار المسبقة عند علماء التوراة، ويعدنا بنتائج مذهلة يوم تبدأ الحفريّات في أرض السراة. وعلى كلّ حال، ما قيمة الحفريّات أمام أسماء الأماكن التي ترد على ألسنة الناس في منطقة السراة، والتي أورد بعضها الجغرافيّون القدماء، أمثال الحسن بن أحمد الهمذانيّ (+٩٤٥)، وياقوت الحمويّ (١١٧٩-١٢٢٩)، وجمعها الجغرافيّون المعاصرون، أمثال حمد الجاسر ورفاقه في «المعجم

الجغرافيّ للمملكة العربيّة السعوديّة» الذي بدأ في الظهور عام ١٩٧٧. آثار النقوش والفخّاريّات والمصكوكات خرساء، أمّا أسماء الأماكن فهي ناطقة تغني عن أيّ بيان. ونسأل الكاتب: إنّ أقدم نصّ عربيّ دُوِّن يعود إلى القرن الثامن، والكتب التي تستعين بها تعود إلى القرن العاشر، إن لم يكن إلى القرن العشرين، أمّا التوراة، فكتبتْ قبل المسيح بمئات السنين؟ فيجيب: وأنا آخذ بالتوراة، ولكنّني أقرأها على ضوء اللغة العربيّة، وأحلّ رموز أسماء الأماكن على ضوء جغرافيا جزيرة العرب. ويضيف: تشتّت بنو إسرائيل، بعد سنة ٥٨٦، فتكوَّن شعب جديد في أرض فلسطين نسي لغته العبريّة المحكيّة. ولكن، كيف ولدت العبريّة الحديثة التي لا يركن إليها الكاتب إطلاقًا؟ وبعد هذا، كيف السبيل، إذن، إلى فهم كلمات التوراة؟ بالرجوع إلى العربيّة، وأسماء الأماكن بالرجوع إلى الجزيرة العربيّة، كما حدّدها لنا بدقّة في الفصل الثالث (ص ٧٣-٨٣).

د – أرض عسير موطن التوراة

عسير هو الاسم الحديث لبلاد السراة، وكلمة إسرائيل تربطنا باليَسر في منطقة محايل، واليَسرى في منطقة النماص، واليِسرى في منطقة الطائف. ويورد الصليبي اثني عشر اسمًا، كما أنّ هناك أسماء أخرى يمكن أن تضاف إلى تلك، مشتقّة من سرو (ص ١٩٦). المهمّ أنّ المؤلّف جعل في هذه المنطقة المحظوظة الأسماء التوراتيّة، ودرس جغرافيّتها الطبيعيّة والاقتصاديّة، وانتهى إلى القول: لا شكّ في أنّ عسير القديمة كانت بلادًا تجاريّة في غاية الازدهار (ص ٨١)، ولهذا مرّ بها الفاتحون وتركوا آثارهم خرابًا ودمارًا.

ويتساءل القارئ ونتساءل نحن معه: كيف استطاع المؤلّف أن يجعل جلّ الأسماء، إن لم يكن كلّها، في تلك المنطقة من الأرض؟ فإذا صحّ ذلك فنظريّته صحيحة. غير أنّه لم يذكر من الأسماء إلاّ بعضها. وفرض رأيه على القارئ فرضًا دون أي جدل، وقد نسي ما أكّده في المقدّمة (ص ١٩) أنّه «يطرح مقولته علنًا حتّى تثبت صحّتها أو لا تثبت عن طريق الأخذ والردّ... وأنه اجتهد قدر الإمكان في دراسة الموضوع وليس بالضرورة أن يكون كلّ مجتهد مصيبًا».

ولكنّه في نهاية كلّ فصل من فصول الكتاب تطالعنا كلمات مثل هذه: «يتّضح تمامًا ممّا ورد أعلاه»؛ «في ضوء هذا كلّه»؛ «وهكذا أصبحت القضيّة واضحة» (ص ١٠٣). ويمكننا أن نقرأ مثل هذه العبارة بعد براهين لا تستند إلاّ إلى أسماء المواضع الجغرافيّة التي قرأها في هذا الكتاب أو ذاك، ولكنّها براهين لا تبرهن على شيء، لأنّ الفكرة المسبقة عند الدكتور الصليبي تجعله يقرأ الكلمات كما يشاء. فصور تصبح واحة الزور، وجبيل قابل، وأورشليم آل شريم، ومصر العظيمة ضيعة مصرمة، إلخ. ولتبيان الطريقة التي عمد إليها الكاتب، نعطي مثَل «عمود شيشانق» الذي أفرد له فصلاً بكامله هو الفصل الحادي عشر (ص ٢٠٧-٢٢٠). ما هي قصّة هذا العمود؟

اكتشف علماء الآثار عمودًا في هيكل أمون في الكرنك بمصر، يحدّثنا عن مسار حملة شيشانق الأوّل سنة ٩٢٥ ق.م. على منطقة كنعان. ولكن كيف السبيل إلى قراءة نصّ هيروغليفيّ معقّد ومشوّه؟ وتعدّدت المحاولات إلى أن توصّل العلماء إلى فكّ رموز بعض الكلمات، مثل النقب، وأورشليم، والأردنّ. وقابلوا هذه النصوص بما قاموا به من حفريّات في منطقة النقب. وكان سليمان الحكيم قد بنى سلسلة من الحصون (كلمة ترد في العمود المذكور) جنوب بئر سبع، لتأمين الطرق التجاريّة والعسكريّة، ولكنّها هُدمت فيما بعد، فاستنتجوا مع ما قرأوه في التوراة أن شيشانق الأوّل مرّ من هناك متوجّهًا إلى أورشليم، وصعد هضاب المنطقة فوصل إلى مجدّو، ومن هناك قفل راجعًا على الطريق الساحليّة.

أمّا الدكتور الصليبيّ فاعتبر أنّ نصّ التوراة الذي يتحدّث عن هذه الحملة (١مل ١٤: ٢٥–٢٦؛ ٢أخ ١٢: ٢–٩) لا يفي بالمراد، لأنّه يتحدّث عن أورشليم فقط، وعن رحبعام الملك. هل نسي المؤرّخ أنّ الذي كتب التوراة لم يدوّن إلاّ الأمور التي تهمّ أورشليم والسلالة الداوديّة؟ ثمّ إنّ الملك المصريّ الذي نهب ما في خزائن هيكل الربّ وما في هياكل قصر الملك، أتُراه أبقى على شيء في سائر المدن الحصينة التي بيهوذا؟

ولكنّ الدكتور الصليبيّ لا يهتمّ بالتاريخ، بل بالجغرافيا. ويتوصّل، انطلاقًا من نظريّته، إلى تحديد جميع الأماكن التي مرَّ بها شيشانق الأوّل، وهو أمر لم يسبقه إليه عالم من علماء التوراة الذين يفرضون على القارئ العاديّ أرض فلسطين موطنًا للتوراة، كما يقول. وهذه بعض الأمثال التي تساعد القارئ على تحديد مسار حملة الفرعون إلى أرض السراة، في رأيه: «تعنكي» هي اليوم «الكهنة» في تهامة زهران، «شنميء» هي «مشنية» في سراة زهران، «شنريء» هي «شريان» من قرى بني مالك أو «شريان» من قرى ميسان، وكلتاهما في منطقة الطائف.

بعد ذلك تابع شيشانق سيره باتّجاه الجنوب إلى وسط أراضي يهوذا. يقول الكاتب: ويهوذا موجودة في منطقتي القنفذة والبرك. وهنا تصبح «بدرم» المرداء في منطقة المجاردة، و»شود» الديش في منطقة صلي. وقد تكون السودة في منطقة بارق، أو السودة في منطقة القنفذة، من جملة احتمالات أخرى.

ويتابع: يجب أن يكون شيشانق تقدّم للهجوم على آل شريم، وهي أورشليم المقترحة في هذه الدراسة. أجل! على أساس مثل هذه الجغرافيا الصحيحة وحدها، تمكن الدكتور الصليبيّ من قراءة ١٥٠ اسمًا؛ وهكذا يمكن لحقائق التاريخ أن تُبنى بشكل مرضٍ ومقنع، استنادًا إلى السجلاّت المتوفّرة عن منطقة السراة، فيزول عنها الالتباس والغموض وتصبح واضحة جليّة (ص ٢٢٠). أتُرانا بحاجة إلى تعليق؟

هـ - البحث عن جرار

بدأ الكاتب حملته على العلماء التوراتيّين يوم بدأ البحث عن جرار. وما أدراك ما هي أهميّة جرار التي ستدلّ القارئ العاديّ على النتيجة الحاصلة في تحديد الأماكن التوراتيّة. فهؤلاء العلماء يريدون أن تطابق الجغرافيا التوراتيّة جغرافيا فلسطين، فيبدو دليلهم ضعيفًا. أمّا الدكتور الصليبيّ فسيقدّم لنا البرهان على مدى الدقّة في مطابقة الجغرافيا التوراة العبريّة لجغرافيا غرب شبه الجزيرة العربيّة (ص ٨٥).

أوّلاً: أورد المقاطع التي تتحدّث عن جرار. في تك ١٠: ١٩، نقرأ: «وكانت تخوم الكنعانيّين من صيدون وأنت آتٍ نحو جرار، إلى غزّة وأنت آتٍ نحو سدوم». يعتبر النقّاد أنّ جرار تقع جنوبيّ صيدون، كما تقع غزّة غربيّ سدوم؛ أمّا الدكتور الصليبيّ فينفي أيّ حديث عن الاتّجاه. وفي تك ٢٠: ١، نقرأ: «وارتحل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب وأقام بين قادش وشور ونزل بجرار». فاستنتج الدكتور أنّ جرار تقع بين شور وقادش، مع أنّ كلمة «بين» غير موجودة. وتساءل، المرّة بعد المرّة، كيف تكون جرار بين شور (على الحدود المصريّة) وقادش، وتكون في الوقت ذاته بين غزّة وصيدون، مع أنّ النصّ لا يقول كذلك؟ وفي تك ٢٦: ١ نقرأ: «إنّ إسحق مضى إلى أبيملك ملك فلسطين في جرار». هذا النصّ لا يعني شيئًا بالنسبة إلى الدكتور الصليبيّ، إلاّ أنّه يرتبط بالآبار الواردة في الفصل ٢٦ المذكور: عسق، وسطنة ورحوبوت، وشبعه، التي هي في نظره أمكنة في الجزيرة العربيّة. والمقطع الرابع الذي يرد فيه اسم جرار فهو ٢أخ ١٤: ٨، حيث نقرأ: «وطارد الملك آسا الكوشيّين إلى جرار». أمّا الكوشيّون فليسوا أهل الحبشة، كما يقول علماء التوراة؛ فكوشيم، هي في زعمه، الكوثة قرب خميس مشيط في شبه الجزيرة العربيّة، إذ لا يُعقل أن يجيء أهل الحبشة إلى هذا المكان.

ثانيًا: ينتقل بنا الكاتب إلى غربيّ الجزيرة العربيّة ليدلّنا هناك على موقع

«المدن» المذكورة في هذه النصوص. فصيدون ليست المدينة الفينيقيّة المعروفة بل زيدان، ومصرايم التي تعني مصر هي قرية المصرمة، وفلشتيم هي الفلسة. أمّا جرار، موضوع بحثنا؟ فيقول الدكتور الصليبيّ: «أصبحت القضيّة واضحة. فليست هناك أيّة «جرار» قرب غزّة في فلسطين. وبين الكثيرات الموجودات في عسير فإنّ واحدة (القرارة، قرب خميس مشيط) هي جرار المذكورة في سفر التكوين ٢٠ و٢٦ وفي أخبار الأيّام الثاني ١٤، وأخرى (أي من غرار والجرار وغِرار والقرارة بين جبل بين مالك وسراة بلّحمر) هي تلك المذكورة في سفر التكوين ١٠» (ص ١٠٣). ويبقى لنا أن ننتظر علماء الآثار ليقوموا بالحفريّات اللازمة ويقدّموا لنا مفاجآت كثيرة (ص ١٠٤). وبانتظار ذلك، نسأل الدكتور الصليبيّ:

١- لماذا هذا الاهتمام بموقع جرار عندما نتحدّث عن صيدون وغزّة، وكلتاهما مدينتان مشهورتان؟ من يبحث عن موضع اندثرت آثاره بين طرابلس وبيروت ويتنكّر لطرابلس وبيروت ويبحث عن تلك القرية في السودان مثلاً؟

٢- سمح الدكتور الصليبيّ لنفسه بأن يكون هناك «جراران»: جرار هي القرار، وجرار هي غرار أو غيرها. فلماذا لا يسمح لعلماء التوراة بأن يكون لهم «جراران»، واحدة في قادش وشور، وأخرى بين صيدون وغزّة؟

٣- لماذا يشدّد الدكتور على أنّ جرار تقع بين قادش وشور، مع أنّ النصّ لا يقول ذلك إطلاقًا؟ وإذا افترضنا أنّ جرار غير موجودة في أرض فلسطين، فما الذي يدفعنا إلى القول إنّها في أرض السراة؟ ولماذا لا تكون، مثلاً في العراق أو غيره من دول المنطقة؟

٤- كيف يسمح الدكتور الصليبيّ لنفسه بالقول إنّ موقع قادش غير معروف، وإنّ ما وجد من حفريّات في عين قديس يعود إلى العهد البيزنطيّ، مع أنّ الآثار الموجودة هناك تعود بنا إلى القرن ١١ ق.م.؟

والتقليد الذي يحدّثنا عن مصر وصيدون وغزّة لا يمكن أن نرميه جانبًا

بشطحة قلم، أو بحدس وتكهّن لا يستند إلى واقع ثابت. فالعالِم العالِم، عندما يرفض نظريّة، يقدّم نظريّة أخرى بديلة تكون معقولة.

ثمّ إنّ أهميّة جرار لا ترتكز على عظمتها في التاريخ، بل لأنّ إبراهيم وإسحق مرّا فيها، وهذا ما يهمّ الكاتب التوراتيّ بالدرجة الأولى، الذي يروي تاريخًا مقدّسًا. أمّا ذكر الفلسطيّين في تك ٢٦: ١، فلأنّ الكاتب الذي دوّن هذا القسم من التوراة، عاش في عهد كان الفلسطيّون مقيمين في ساحل كنعان، في غزّة وأشقلون وعقرون وجرار. فلو أراد أن يكتب التاريخ مثلنا اليوم لما ذكر الفلسطيّين الذين وصلوا إلى شواطئ كنعان في القرن ١٢ ق.م. ولكن ما لنا والحديث عن كنعان وهي لا تمتّ بصلة إلى فلسطين. فكنعان الحقيقيّة التي تتحدّث عنها التوراة موجودة في شبه الجزيرة العربيّة وهي القناع، أو القنعات، أو القنعة، أو آل كنعان، كما يقول الصليبيّ.

وأخيرًا، إنّ الدكتور الصليبيّ على حقّ عندما يقول إنّ الكوشيّين المذكورين في ٢أخ ١٤ ليسوا الأحباش. ولكن أما نسي أنّ كوشيم يمكن أن تكون تلك المذكورة في حب ٣: ٧ حيث نقرأ: «رأيت أخبية كوش تحت البلاء وشقق أرض مدين رجفت». فإذا أخذنا بالتوازي المعروف في اللغات الساميّة، وإذا عرفنا أنّ مديان تقع في شبه جزيرة سيناء، عرفنا أنّ كوش لن تكون بعيدة عنها.

وهكذا تكون جرار مدينة من مدن النقب في جنوب كنعان، أقام فيها إبراهيم وإسحق، واحتلّها الفلسطيّون؛ وسمّاها أوسيب القيصريّ في القرن الرابع ب.م. تلّ الشريعة، والعلماء المعاصرون تلّ أبو هريرة.

لقد أطلنا الحديث عن جرار، لا لأهميّته، بل لنبيّن الأسلوب الذي اتّبعه الدكتور الصليبيّ. فهو لا ينكر التاريخ التوراتيّ، ولكنّه ينقل هذا التاريخ من أرض فلسطين إلى أرض السراة، انطلاقًا من دراسة أسماء حوّر فيها ما شاء، لتتكيّف مع الخريطة التي فرضها على قرّاء الكتاب المقدّس.

و – أرض يهوذا وعاصمتها أورشليم

يبدأ الفصل الثامن بهذه الكلمات: «كانت أرض يهوذا في الأزمنة التوراتيّة تشمل الجانب البحريّ من عسير الجغرافيّة». يقولون إنّ يهوذا هو سبط من أسباط إسرائيل، أمّا بالنسبة إلى الدكتور الصليبيّ فهو اسم جغرافيّ يعود إلى جذر «وهد» العربيّ ويعني الانخفاض (ص ١٥٥). والواقع أنّ الأرض الممتدّة على الجانب البحريّ من عسير الجغرافيّة تحتوي على وهاد منخفضة. ولا شكّ في أنّ هذا هو ما أعطى يهوذا القديمة اسمها. وانتهى الدليل، وما على القارئ إلاّ أن يقبل به. ولإقناع القارئ، يورد الكاتب أسماء القبائل والأسر التي ترد في عز ٢: ٣-٦٣، وفي نح ٧: ٨-٦٥ فيعتبرها أماكن موجودة في بلاد السراة. إنّنا لا نناقش الأمر، إنّما نورد ما يقوله في ختام هذا الفصل: «من بين أسماء الأماكن ال ١٣٠ الواردة في لائحة عزرا ونحميا، والمحدّدة بقرى غرب شبه الجزيرة العربيّة الواردة أعلاه، هناك أماكن قليلة قد تبقى غير مؤكّدة» (ص ١٧٤). ولكنّه يستدرك – ولا ندري لماذا– أنّ بيت لحم، ولدّ، ونبو، وأريحا لم تجد مكانًا لها في تلك البلاد البعيدة مع أنّه في لائحة شيشناق جعل من بيت لحم «أمّ لحم» وموقعها وادي أضم في شبه الجزيرة العربيّة.

فإذا كانت أرض يهوذا في الجانب البحريّ من عسير، فأين تقع أورشليم وهي المدينة المقدّسة عند الطوائف اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة؟ لا أورشليم في فلسطين قبل القرن الخامس ق.م. هذا ما يقول الدكتور الصليبيّ عن هذه المدينة التي عرفتها الوثائق القديمة والتي اكتشف العلماء بعضًا من أسوارها يعود إلى القرن ١٨ ق.م.، وإلى زمن داود وحزقيّا وغيرهم. أورشليم، عنده، هي يروشليم، أي قرية آل شريم الموجودة في شبه الجزيرة العربيّة. لماذا؟ لأنّ الكاتب قرأ بعض النصوص الكتابيّة فبانت له أخطاء في الترجمة لا يمكن أن يقبل بها الباحث المتبحّر. المقطع الأوّل نقرأه في ٢صم ٥: ٦-١٠: «وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم، إلى اليبوسيّين (ا ل ه – يبوسي) سكّان

الأرض، فكلّموا داود قائلين: لا تدخل إلى هنا ما لم تنزع العميان والعرج (عوريم، فسحيم في العبريّة). وأخذ داود حصن صهيون». النصّ واضح وهو يعني: حتّى العميان والعرج سيتصدّون لداود فلا يدخل المدينة. ولكن للدكتور الصليبيّ مدرسته الخاصّة؛ فصار «حصن صهيون» (هنا يعود إلى السريانيّة) حصن العميان. والعميان (عوريم) والعرج (فسحيم) هي جبال عوراء وصحيف في جبل هروب. أمّا إله الجنود (الصباؤوت) فصارت الصبيّات في جوار النماص من سراة عسير. ثمّ إنّ النصّ لا يقول هنا إنّ أورشليم هي مدينة داود، إذن أورشليم ليست مدينة داود.

وهكذا تتّضح للباحث حقيقة أورشليم التوراتيّة، فهي ليست أورشليم القدس، بل آل شريم الحاليّة في منطقة النماص من سراة عسير. كيف توصّل الكاتب إلى هذه النتيجة؟ بدراسة أسماء الأماكن، وترك النتائج التي تدلّ عليها الآثار القديمة. وينقلنا الدكتور الصليبيّ إلى أبواب أورشليم، التي هي في الواقع موضع في شبه الجزيرة العربيّة؛ فباب بنيامين الذي يقع في القسم الشماليّ من جدار المدينة والذي ينطلق بنا في الطريق التي تصل إلى موقع قبيلة بنيامين، صار «ذات يومين»، وهو في العبريّة «بن يمن». وباب الزاوية (ه – فنه) الذي عرفه صاحب سفر أخبار الأيّام الثاني (٢٥: ٢٣) صار النيافة، إلخ. ووهكذا تفكّكت أورشليم، وانتُزعت أبوابها الخمسة والعشرون وصارت مواضع ومواقع في شبه الجزيرة العربيّة.

وينهي الدكتور الصليبيّ هذه الدراسة اللغويّة بهذا الكلام: «وفي يوم ما، قد يؤكّد علم الآثار التحديد المقترح لأورشليم التوراتيّة» (ص ١٩). ولكن من يقوم بالحفريّات؟ علماء الآثار الآتون من الغرب بنظريّاتهم المسبقة. وهكذا نبقى حيث نحن وتبقى نتائجنا التوراتيّة والعلميّة معلّقة إلى ما شاء الله.

ز – لبنان جار فلسطين

ولكن، كيف التحدّث عن فلسطين دون ذكر اسم لبنان الذي يعني الأبيض بسبب الثلوج التي تغطّي جباله؟ وكيف التحدّث عن داود دون ذكر أحيرام الذي ارتبط وسليمان بمعاهدات تجاريّة ليس آخرها بناء القصر الملكيّ وهيكل أورشليم في القرن العاشر ق.م.؟ وكيف التحدّث عن أورشليم والسامرة دون ذكر صيدون وصور؟ ويجارينا الدكتور الصليبيّ؛ ولكنّه ينقل كلّ هذه المدن إلى أرض الجزيرة العربيّة، لأنّ الكلمات تتشابه بعد توسّل التحوّلات اللازمة لخدمة أغراضه.

وهكذا، فصور ليست مدينة على شاطئ البحر، بل «زور» الوادعة في منطقة نجران. وسفنها (ءنيوت بالعبريّة) هي قوافل الحيوانات المحمّلة (الأون في العربيّة). وصور التي هاجمها الإسكندر أين تقع، إذًا، ولماذا احتاج إلى أسطول ضخم ليتغلّب عليها؟ هذا ما لا يجيب عليه الدكتور الصليبيّ الذي نفى أيضًا أن يكون هناك أحيرام حكمَ مدينة صور، بل جبيل التي صارت القابل في إقليم نجران. أمّا صيدون فصارت آل زيدان، وجزيرة أرواد صارت رواد في مرتفعات عسير (ص ٣٤–٣٥). وهكذا ذابت المدن الفينيقيّة التي غزت البحر المتوسّط وشيّدت قرطاجة التي زاحمت رومة سيّدة العالم في ذلك الزمان، أو بالأحرى انتقلت إلى غربيّ شبه الجزيرة العربيّة، مع أنّ الهجرة، كما يقول المؤلّف نفسه في موضع آخر، جاءت من شبه الجزيرة إلى الساحل الكنعانيّ وليس بالعكس.

ولبنان، جار بني إسرائيل وأرض السراة، لا يمكن أن يكون إلاّ في شمال اليمن، واسمه الحقيقيّ «لبينان»، ولا بدّ من زيادة الياء بين الباء والنون لتصحّ التسمية ويحدّد المكان. ولكن كيف توصّل الكاتب إلى هذه النتيجة؟ قرأ النصوص التوراتيّة كما لم يقرأها أحد. كانت غامضة فصارت واضحة كعين الشمس.

وإليك النصّ الأوّل وهو من سفر زكريّا (١١: ١–٣)، الذي كُتب بعد

الرجوع من الجلاء سنة ٥٨٦ ق.م.، فيه يدعو الطبيعة لتشاركه حزنه على الممالك التي ستدمَّر. هكذا ترجمناه:

«إفتح يا لبنان أبوابك، فتأكل النيران أرزك.

ولول أيّها السرو على سقوط أرز لبنان ودمار أشجاره العظيمة.

ولول يا بلّوط باشان على تكسّر غاباته الوارفة.

ها صوت ولولة الرعاة على خراب مراعيهم!

ها صوت زئير الأشبال على دمار زهو الأردنّ».

ولكنّ الدكتور الصليبيّ يصحّح الترجمة. فلبنان (لبنون في العبريّة) صار لبينان. لماذا؟ لأنّ ياقوت الحمويّ يقول فيه إنه «جبلان قرب مكّة يقال لهما لبن الأسفل ولبن الأعلى». وإضافة إلى ذلك، هناك لبينان في شمال اليمن، والرأي الثاني هو الأصحّ، ولا ندري لماذا.

أمّا الأرز فهو العرعر، كما تقول بعض القواميس، لأنّ الأرز لا وجود له في منطقة عسير. إذًا، ماذا يمنع أن يكون عرعر (والكلمة عبريّة أيضًا) لبينان هو ذاته أرز لبنان؟ وإذا لم يكن في اليمن ثلج، فندعو الثلج ليكون على جبل لبينان، وتكتمل الصورة.

ونعفي القارئ من الملاحظات اللغويّة الباقية، ونقدّم له ما اقترحه الدكتور الصليبيّ من ترجمة: «افتح أبوابك يا لبينان فتأكل النار عرعرك. ولول يا سرو لأنّ العرعر الذي أخربت الذرى قد سقط. ولول يا بطم البثنة لأنّ غابة الصابر قد سقطت. اسمع ولولة أهل ريع لأنّ ذروتهم خربت. اسمع زمجرة الرفقات لأنّ غوّان ريدان قد خرب» (ص ١٥٤).

أمّا بالنسبة إلى الأرز الذي اقتطع من غاب لبنان ووصل إلى أورشليم من أجل هيكل سليمان، فإنّه أرسل عبر يافا في القرن العاشر ق.م. فمن أين جاء ذاك الأرز، وهل يختلف عن الأرز الذي أرسل بالطريقة ذاتها في أيّام الفرس بأمر

من الملك كورش بعد أن زالت قبائل بني إسرائيل في السراة وقامت في أرض فلسطين؟

وإليك النصّ الثاني من نشيد الأناشيد (٤ : ٨):

«تعالي معي من لبنان يا عروس، معي من لبنان.

من أعالي أمانة انظري، من رأس شنير وحرمون

من مرابض الأسود انظري، من جبال النمور».

أمانة إحدى قمم لبنان، وشنير إحدى قمم حرمون. ولكن الدكتور الصليبيّ يقرأ ما لا يستطيع قراءتَه غيرُه من العلماء: «فلبنان وأمانة وشنير وحرمون هنا هي مرتفعات لبينان في شمال اليمن. هو اليمانيّ (يمن) المرويّ في ناجية العارضة، وشريانة (شرين) في جبل هروب، وخمران المعاين... وجبال النمور هي بوضوح قمم جبل ذو نِمر» (ص ٢٨٦–٢٨٧)

ح – خاتمة وحكم عام

هذا قليل من كثير؛ فالدكتور الصليبيّ يذكر أسماء عديدة بطريقة عابرة ويطليها بالطابع العلميّ ليبهر القارئ العاديّ، ويجعله يضيع في متاهات لا قِبَل له بها، فيرفع يده مستسلمًا عندما يقرأ العبارة الختاميّة لدى كلّ قول: «ومن الواضح أنّه...».

هذا الكتاب ينطلق من مسلّمة لا يعود عنها، فيردّدها مرارًا وتكرارًا، وهو يريد أن يفرضها على قارئه دون أن يسندها بالبرهان العلميّ كالحفريّات والنقوش وغيرها، بل يكتفي بالبرهان اللغويّ. وبرهانه هنا برهانان لا شيء يجمع بينهما: برهان على مستوى اللغة العبريّة يحلّلها، ثمّ برهان على مستوى الجغرافيا العربيّة؛ ثم يستنتج ما لم يبرهن عنه في المقدّمات.

في المقدّمة يعرض الكاتب فكرته بعد أن تردّد خوفًا من أن يحدث بلبلة في أفكار الناس، أو أن يقع في الخطأ. ولكن هذه المقدّمة كانت فخًّا سيوقع فيه القارئ عندما يؤكّد له أنّ نظريّته هي الصحيحة وكلّ ما عداها من نظريّات خاطئ. أيكون الصليبيّ صاحب مدرسة جديدة، أم إنّه ابن مدرسة أخرى ما استطعنا التعرّف إليها؟

ويقول الصليبيّ إنّ هناك فقط أربعة أسماء في التوراة لم يجد لها مكانًا في السراة، وربّما تكون في فلسطين، وما تبقّى من أسماء فموجودة كلّها في أرض السراة. ونحن بدورنا نسأله عن نسبة الأسماء التي درسها بالمقابل مع أسماء الأماكن العديدة الموجودة في التوراة؟ ثمّ نفيده أنّ تسعين بالمئة ممّا اكتشفه علماء الآثار هو صحيح؛ والتردّد الحاصل هنا أو هناك إنّما هو تردّد حول التفاصيل لا في الأساس.

في الخاتمة يقول الصليبيّ: «إنّ هذا كلّه لا يمسّ إطلاقًا بالتوراة ككتاب يقدّسه المسيحيّن واليهود، لأنّ الدين اليهوديّ والدين المسيحيّ هما شيء، والتاريخ والجغرافيا هما شيء آخر» (ص ٢٩٦). وهكذا، بعد أن ضلّل القارئ

العاديّ بأفكاره المسبقة وتحليلاته اللاعلميّة، ها هو يضلّل المؤمن العاديّ. أين صارت أرض فلسطين التي عرفها آباؤنا في الإيمان؟ كيف تحوّلت أورشليم الأرض المقدّسة والمدينة التي تحمل السلام إلى المؤمنين بالله الواحد، إلى قرية صغيرة اسمها آل شريم في شبه الجزيرة العربيّة؟ وبيت لحم حيث ولد يسوع المسيح هل هي في فلسطين، كما يقول الكتاب، أم هي أمّ لحم في وادي الضيم؟ ونهر الأردنّ وحبرون...؟

ويقول: هذه الشكوك التاريخيّة واللغويّة لا تؤثّر على شيء من أسس الدين اليهوديّ والمسيحيّ. فنرجو أن يتحلّى القرّاء بالفطنة والوعي فلا تنفذ إليهم أخطاء كتب تدّعي الدقّة والأمانة في العمل، اللتين هما من شيم أهل الاختصاص. أجل، الناس ليسوا قاصرين لنفرض عليهم نظرتنا في أمور تهمّ حياتهم السياسيّة والدينيّة، ولكنّهم ليسوا كلّهم من ذوي الاختصاص ليدقّقوا في «معارف سرّيّة» اكتشفها الباحثون. هنا تكمن مسؤوليّة ذوي الاختصاص والعلم.

وأخيرًا، يعتبر الدكتور الصليبيّ أنّ التوراة كتبت أو أعيدت كتابتها في أرض فلسطين في زمن الحشمونيّين أو غيرهم، وأنّ الذين كتبوها جعلوا أرضها فلسطين وهي في الواقع جاءت من جزيرة العرب، كما يقول عنوان الكتاب. وهكذا يكون الأنبياء والكتّاب الملهمون كذبَة ومخادعين. وبعد هذا، ماذا يبقى من التوراة، هذا الكتاب الذي يقدّسه اليهود والمسيحيّون، والذي يعتبرونه كلمة الله الموحاة التي وصلت إلينا عبر البشر؟

الفصل الخامس

موقعان في التوراة

بعد دراسة أولى في مجلة "دراسات" ودراسة ثانية في مجلة "المنارة"، ولكل دراسة وجهتها، نقدّم هنا مقالاً عن موقعين نالا البحث الواسع عن الصليبي.

أ – البحث عن جرار

ب – موقع نهر الاردن.

أ – البحث عن جرار

قالت القواميس: «جرار مدينة كنعانيَّة قديمة. أبيمالك، ملك الفلسطيِّين» (تك ٢٦: ١، ٨) هو الحاكم فيها. أقام فيها إبراهيم (تك ٢٠: ١) وإسحق (تك ٢٦: ١، ٦). في جرار كان الحادث بين سارة وأبيمالك (تك ٢٠: ١٥). لم تُذكَر هذه المدينة في لائحة المدن الرئيسيَّة لدى الفلسطيِّين: غزَّة، أشدود، عسقلان، جتّ، عقرون (يش ١٣: ٣)، ولا بين المدن التي احتلَّها يشوع. روى سفر الأخبار الأوَّل أنَّ آسا، ملك يهوذا، انتصر على الكوشيِّين ولحق بهم إلى جرار «المستريحة والمطمئنَّة» (١ أخ ٤: ٣٩–٤٠). ويروي سفر الأخبار الثاني (١٤: ١٣–١٥) كيف أنَّ آسا ضرب الكوشيِّين فهربوا. «فطاردهم آسا والشعب الذي معه إلى جرار، وسقط (الكثير) من الكوشيِّين حتَّى لم يكن (= يبقَ) لهم حيّ، لأنَّهم انكسروا أمام الربِّ وأمام جيشه، فحملوا غنيمة كثيرة. وضربوا جميع الأمم التي حول جرار، لأنَّ رعب الربِّ كان عليهم، ونهبوا كلَّ المدن، لأنَّه كان فيها نهبٌ كثير». قد تكون جرار اليوم تلّ الشريعة التي تبعد ٢٤ كلم إلى الجنوب الشرقيّ من غزَّة. وهو موقع يوافق مع ما نقرأ في تك ١٠: ١٩ (= «كانت تخوم الكنعانيّ (أو الفينيقيّ) من صيدون حينما تجيء نحو جرار إلى غزَّة...») وفي ١ أخ ٤: ٣٩–٤٠. وقد تكون «تل هرار» القريبة من تلّ الشريعة.

أمّا غزَّة التي ارتبطت بالعزِّ والقوَّة (ع ز ة) فكان اسمها «غزاتو» كما كان في لبنان: كوسباتا (كوسبا)، أرداتا (أرده) في الشمال. إحدى مدن الفلسطيِّين الخمس، والواقعة حيث غزَّة الحاليَّة. بما أنَّها كانت تحت السيطرة مدَّة طويلة، لم تترك آثارًا قديمة للأركيولوجيا، ولكن بعض الفخّاريَّات التي تدلُّ على أنَّ هذا الموقع سُكن في عصر البرونز الحديث (١٥٥٠–١٢٠٠ ق.م.). في بداية هذه الحقبة، كانت لنا أوَّل إشارة مكتوبة. فإنَّ تحوتمس الثالث (١٥٠٤–١٤٥٠ ق.م.) جعلها منطلقًا لحملاته العسكريَّة (سنة ١٤٨١) في فلسطين

وسورية ولبنان، كما قالت **نصوص الشرق الأدنى ذات العلاقة بالعهد القديم** (رقم ٢٣٥). وموقع المدينة على «طريق البحر» (إش ٨: ٢٣) التي تقود من مصر إلى آسيا. وبسبب خصب المنطقة المجاورة صارت غزَّة محطَّة هامَّة للقوافل، ونقطة الانطلاق لحملات الفراعنة العسكريَّة. ذُكرت هذه المدينة في القرن الخامس عشر (رسالة «ت ن ك»، ٦)، وفي القرن الرابع عشر في **رسائل تل العمارنة** (٢٨٩: ١٧، ٣٣، ٤٠؛ ٢٩٦: ٣٢)، وفي القرن الثالث عشر، في الوثائق المصريَّة المنشورة في **نصوص الشرق الأوسط** (رقم ٢٥٨). ولبثت غزَّة خاضعة للفراعنة مع السلالة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة، مع المملكة الحديثة التي بدأت سنة ١٥٨٠ ق.م. وبمبادرة من الفرعون رعمسيس الثالث (١١٨٢–١١٥١) أو موافقته، أقام الفلسطيُّون فيها سنة ١١٧٥ ق.م. هذا ما نعرفه من حفريَّات تمَّت في دير البلح، الواقع إلى الجنوب الغربيّ من غزَّة. سنة ١١٠٠ أورد ألينجو لائحة بأسماء المدن (أونومستيكن) فجاءت مع عسقلان وأشدود. سنة ٧٣٤ ق.م. خضعت لتغلت فلاسر (**نصوص الشرق**، الرقم ٢٨٣). ثار حنون، ملك غزَّة، فأتى سرجون الثاني (الذي سبى السامرة سنة ٧٢١ ق.م.) واقتاده أسيرًا إلى أشور (**نصوص الشرق**، الرقم ٢٨٥).

نتوقَّف هنا بالنسبة إلى غزَّة التي يمتدُّ تاريخها في العهد الجديد حيث عرفت مدرسة مشهورة في البلاغة. وأوردنا عمدًا النصوص المكتوبة لتكون الشاهد الذي نثق به، لا ذاك الذي نفترضه أو نتخيَّله لنؤكِّده فيما بعد، فيسير وراءنا الناس على ما قال المثل: الشعب عميان يقودهم بصير واحد.

* * *

ماذا يقول الصليبيّ؟ يحدِّثنا عن الدقَّة في ما يقول. «قبل بداية البرهان على مدى الدقَّة في مطابقة جغرافيا التوراة العبريَّة لجغرافيا غرب شبه الجزيرة العربيَّة، لا بدَّ من إيراد الدليل، لو بجملة واحدة من الأمثلة، على مدى الضعف في مطابقة تلك الجغرافيا لجغرافيا فلسطين» (ص ٨٥). والمثل الذي يعطيه هذا المؤرِّخ هو جرار (ج ر ر، في العبريَّة). وينتقد الصليبيّ «الطريقة التي عالج

فيها علماء التوراة حتَّى الآن مسألة «جرار». كلُّ هؤلاء الدارسين والباحثين والمنقِّبين لم يصلوا إلى نتيجة بعد أن ضاعت آثار «جرار». أمّا الصليبيّ فسوف يكتشفها. ولهذا يقرأ ونقرأ معه أربعة نصوص تتحدَّث عن «جرار».

أ. **تك ١٠: ١٩**

«كانت تخوم الكنعانيّ من صيدون، آتيًا نحو جرار إلى غزّة.»

هي الطريق من الشمال إلى الجنوب. ومن لا يعرف أنَّ الفينيقيِّين وصلوا إلى عكا على الساحل الفلسطينيّ، بعد أن امتدَّت القبائل العبرانيّة إلى الشرق من صور. وهنا نذكر صرفت صيدا التي جاء إليها إيليّا وأقام عند الأرملة (١ مل ١٩: ٨). هي تقابل الصرفند كما قالت الحفريّات عن مدينة ذُكرت في إبلا (تل المرديخ إلى الجنوب من حلب) في الألف الثالث ق.م.

أجل، الكلام عن الكنعانيّ، لأنّ اسم «الفينيقيّ» ظهر في حقبة متأخِّرة، فكانوا يذكرون المدن الساحليّة: جبيل، بيروت، صيدون وصور. وما تقول التواريخ هو أنَّ الكنعانيِّين أقاموا على ساحل البحر المتوسِّط من مصر حتَّى تركيّا الحاليّة. ويبدو أنَّ السبعينيّة ترجمت «كنعان» بلفظ «فينيقية».

«هـ. ك ن ع ن ي». كذا في العبريّة. وفي السريانيّة: ك ن ع ن ي ا. ولكن أين هي كنعان؟ على شاطئ البحر الأبيض المتوسِّط؟ كلاَّ، يقول الصليبي فاليهود جاؤوا من الجزيرة العربيّة، والفلسطيّون (ص ٣٣) أيضًا، مع أنَّ التاريخ يسمِّيهم شعوب البحر الذين أتوا من الجزر اليونانيّة، إلاّ إذا كانت السفن التي أقلّتهم هي الجِمال، كما قال الصليبيّ في الكلام عن صور (ص ٣٤، حاشية ٨). هكذا نكتب التاريخ ولا نحتاج إلى وثائق، مع أنَّ رمال مصر كشفت لنا وثائق تعود إلى ما قبل المسيح بمئات السنين.

«وصيدون». هي أيضًا في الجزيرة العربيّة. «ص ي د ن» في العبريَة. «أُخذَتْ على أنّها «صيدون» أي صيدا الفينيقيّة» (ص ٨٥). أنتم على خطأ كبير. وغزّة (ع ز ه) أُخذَت على أنّها غزّة الفلسطينيّة. لا وألف لا.

إذًا، تبيَّن في يقين أوّل، بحسب الصليبيّ، أنَّ جرار ليست في فلسطين. ونقرأ المقطع الثاني الذي يورده أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركيّة. هو ينطلق من الكتاب المقدَّس ولا وثيقة أخرى له. فيدرس «تهجئة الحروف». فماذا تصبح «صيدون» التي صارت «صيدا» في الزمن الحاليّ؟ ويقول في **التوراة** (ص ١٠٤): «تحدَّد الهويّة الجغرافيّة لأرض كنعان التوراتيّة على منحدرات عسير البحريّة، بين منطقتي المجاردة وجيزان. وعلماء الآثار لم يحفروا بعد المناطق موضوع البحث...».

ب. تك ٢٠: ١ي: إبراهيم وأبيمالك

إبراهيم شخص معروف في التقاليد اليهوديّة والمسيحيّة والإسلاميّة. لكن تبدَّل اسمه عند الصليبيّ. فسَّر الكتاب المقدَّس الاسم: أبٌ لجمهور كبير. ولكن لا بأس والتوراة تتحدَّث عنه في تك ١٢–٢٥. ويعود ذكره هنا وهناك. وأبيمالك هو ملك جرار التي صارت من أرض الفلسطيِّين في تك ٢١: ٣٢. وهذا الملك هو بطل قصّة مرتبطة هنا بإبراهيم. حسب التقليد الإلوهيميّ، خطف أبيمالك سارة التي أعلن إبراهيم أنَّها أخته. ولكنَّ الله نبَّه أبيمالك في الحلم فردَّ المرأة إلى زوجها. الدرس هنا، كما في مصر (تك ١٢) هو أنَّ إبراهيم يحاول أن ينجو بنفسه على حساب سارة. ثمّ «يحوِّر» الأمور بحيث يبدو أبيمالك أكثر صدقًا منه. قال للربّ: «بسلامة قلبي ونقاوة يديَّ فعلت هذا» (تك ٢٠: ٥). وافق الربُّ أبيمالك على ما قال: «وأنا أيضًا أعلم أنَّك بسلامة قلبك فعلتَ هذا». وإن كان الملك ابتعد عن الزنا، فبنعمة من لدنه تعالى: «أمسكتك عن أن تخطئ إليَّ». وبانت نيّة الملك الحسنة حين أطاع الربَّ في الحال. ولكنّه وبَّخ إبراهيم وحسنًا فعل. أمّا إبراهيم فما اكتفى بأن «يبيع» امرأته، بل نسيَ أنّها حاملة الوعد وهي حُبلى بإسحق. ونسأل: لماذا لم يعاقبه الله؟ ونجيب: لأنَّ الله لا يندم ولا يتراجع. ولو أنَّ الإنسان تراجع.

ماذا اكتشف الصليبيّ في هذا النصّ، الذي هو تعليميّ قبل كلِّ شيء؟ اسم جرار. نقرأ ٢٠: ١: «وانتقل إبراهيم من هناك إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور، وتغرَّب (أي: عاش غريبًا، و ي ج ر في العبريَّة. وفي السريانيَّة: و ي ت ب: وسكن) في جرار». ندرس الموقعين المذكورين مع جرار. الأوَّل، قادش والثاني، شور.

«قادش» (ق د ش، في العبريَّة). هي المدينة المقدَّسة. أماكن عديدة عُرِفَتْ بهذا الاسم. هي الواقعة على نهار العاصي، والتي تبعد ٦٢ كلم إلى الشمال الشرقيّ من طرابلس (لبنان) و٢٧ كلم إلى الجنوب الغربيّ من حمص. ثمَّ هي مدينة في الجليل، واقعة في جبل نفتالي (يش ٢٠: ٧). مدينة ملجأ ومدينة لاويَّة (يش ٢١: ٣٢). احتلَّها تغلت فلاسر الثالث حين احتلَّ الجليل (٢ مل ١٥: ٢٩). هي اليوم تل قادش وتبعد ١٠ كلم إلى الشمال من حاصور، تلك المدينة الهامَّة.

وقادش في يهوذا. يذكرها يش ١٥: ٢٣. وتبقى المدينة، الأهمّ: قادش برنيع تقع إلى الجنوب من يهوذا ولا تبعد عن غزَّة كثيرًا. دمَّرها الفرعون شيشانق، فأُعيد بناؤها في أيَّام عزيًّا (٧٨٠–٧٤٠) كما جدَّدها يوشيًّا. كُشفَت فيها الفخَّاريَّات ونصوص مكتوبة على شحفات...

وتُذكر أيضًا «شور» (في العبريَّة «ش و ر» أي السور). بعض بريَّة سيناء. تقع على الطريق بين بئر سبع والإسماعيليَّة (مصر). انطلق إبراهيم فوصل إلى الجنوب (ن ج ب التي تترجم «النقب»)) ولكنَّ الصليبيّ لا يرضى بهذه الترجمة. إذًا، لنمضِ إلى الجزيرة العربيَّة وهناك نكتشف شاطئ البحر المتوسِّط كلِّه: ص ي د ن، ع ز ه، ا ر ص. هـ. ن ج ب. وها نحن ننتظر الجواب بعد استطرادات لا تشفي غليلاً.

ج. كتاب الأخبار

لم نجد بعدُ ضالَّتنا مع ما قرأنا. وفي تك ٢٦: ١، ٦، ١٧، يرد لفظ

«جرار» وحده بدون أن يكون بقربه لفظ مدينة أخرى. فيبقى أمامنا نصَّان سبق وأوردناهما من سفر الأخبار الأوَّل (٤: ٣٩–٤٠) وسفر الأخبار الثاني (١٤: ١٣–١٥).

في إطار الكلام عن نسل شمعون، أبي إحدى القبائل، ترد أحداث مأخوذة من تقاليد قديمة حول تحرُّكات قبيلة شمعون (٤: ٣٤–٤٢). كان هناك أناس عائشين في أمان واطمئنان فجاء من اقتلعهم من أرضهم. وهكذا فعلت قبيلة دان. أتت من الجنوب إلى الشمال (قض ١٨: ٧، ٢٧). كان بالإمكان أن يُقيموا السلام مع أهل المدينة، ولكنَّهم اقتلعوهم وحلُّوا محلَّهم. ونعرف نحن أنَّ أوَّل قبيلة نالها الدمار من الأشوريِّين كانت قبيلة دان كأنَّ من يقول لها: ما أُخذ بالعنف يأخذه الآخرون منّا بالعنف.

وفي ٢ أخ ١٤: ٨ي هي حرب بين آسا، ملك يهوذا، وزارح الكوشيّ. جيش كبير لزارح مع أرقام مضخَّمة. ولكنَّ الدعاء إلى الربّ يبدِّل موازين القوى. «ساعدنا أيُّها الربُّ إلهنا، لأنَّا عليك توكَّلنا» (آ ١١).

«زارح الكوشيّ» أو «زارح الحبشيّ» (ص ٨٦). ذاك ما قاله الصليبيّ. ماذا كان في أساس الخبر؟ قبيلة كوشان (حب ١: ٧). هي تسمية عتيقة لقبيلة مديان. منهم أخذ موسى امرأته (عد ١٢: ١). ماذا فعل المؤرِّخ الكهنوتيّ، الذي ابتعد عن الأحداث وأعطى معنى لاهوتيًّا لعمل بسيط: تغلَّب آسا على قبيلة كوشان أو مديان. أمّا عدد المحاربين فهو مليون رجل وثلاثمئة مركبة حربيَّة. من أجل هذا، لا يمكن أن يصلح برهان الصليبيّ لتحديد موقع جرار. فالفرق بعيد بين كوشان والحبشة. يا ليت كاتبنا تحرَّى الأمور وما اكتفى بنصٍّ واحد مع حلول مسبقة يجب أن نسندها لاحقًا ببراهين من عندنا.

ب – موقع نهر الأردنّ

لا بدَّ من تأكيد في البداية، وبعد ذلك نستخرج ما نريد من النصوص لنبيِّن حقيقة مقالنا الذي لا يستند إلى أيَّة وثيقة قديمة، في المدوَّنات والحفريَّات والوثائق. قال الصليبيّ (ص ١٣٣): «الأردنّ» (هـ. ي ر د ن، في العبريَّة. وفي السريانيَّة: ي و ر د ن ن») لم يكن في التوراة العبريَّة نهرٌ. (ماذا كان إذًا؟). وأكثر من ذلك، «فإنَّ أهل الاختصاص (من هم هؤلاء؟ يعدُّون بعشرات الآلاف في العالم) يعرفون تمامًا أنَّ ما من مكان وردت فيه الكلمة في النصوص التوراتيَّة فعرِّفت على أنَّها اسم نهر». أهل الاختصاص شخص واحد. والمراجع: فترد لفظ «ورد» في العربيَّة وتأخذ «ردن» ثمَّ نصل إلى الريد وهو «الحرف الناتئ من الجبل» (ص ١٣٤). والمرجع الأوَّل: الجغرافيُّون العرب (ص ١٣٣، حاشية ٢). يا ليته سمَّى لنا أحدهم!

الصليبيّ يعرف ما تقوله القواميس. ولكنَّه يفتح طريقًا جديدًا لم يعرفه أحد، يوصلنا إلى التيهان في البرِّيَّة بحيث نبقى هناك، لأنَّ هناك النعيم المنشود وجنَّة الفردوس. هل نسينا منطقة عدن؟

الأردنّ. في اليونانيَّة: يوردانس. هو نهر ينبع من سفح جبل حرمون ويصبُّ في البحر الميت بعد أن يمرَّ في بحيرة جنّاشر. هذا النهر الذي يشكِّل الحدود بين شرق الأردنّ وغرب الأردنّ، يعطي الحياة لهذه المنطقة الشبه الصحراويَّة، ولاسيَّما شرقيّ الأردنّ.

هذا اللفظ يرد ٢١٥ مرَّة في الكتاب المقدَّس، منها ١٨١/١٨٣ في اللغة العبريَّة، و٢٦/٢٨ في اللغة اليونانيَّة. أوَّل مرَّة نقرأ عنه في تك ١٣: ١٠-١١: «فرفع لوط عينيه فرأى أنَّ كلَّ دائرة الأردنّ سقي... فاختار لوط لنفسه كلَّ دائرة الأردنّ» (أي الأردنّ وما يحيط به). والإيراد الثاني يرتبط بيعقوب: «فإنِّي بعصاي عبرتُ هذا النهر» (تك ٣٢: ١١). وها نحن نقرأ مقطعين. واحد من يشوع بن نون والثاني من سفر الملوك الثاني.

أولاً: عبور الأردنّ (يش ٣: ١ي)

عبور الأردنّ يشبه، في حياة يشوع، عبور البحر الأحمر، في حياة موسى. فالمياه ترمز إلى الشرِّ والموت. وحين يعبرها شعب الله يفهم قدرة ذاك الذي يقوده من حالة التعاسة إلى حالة السعادة. كان العبرانيُّون في مصر عبيدًا، عبروا البحر فتنشَّقوا الحرِّيَّة، ومن البرِّيَّة، حيث مات جميعُ الخارجين من مصر، عبرت جماعة يشوع نهر الأردنّ، فبلغت إلى أرض الموعد، تلك الأرض التي تُجري لبنًا وعسلاً. والأردنّ هنا بدا كأنَّه يتحدَّى قدرة الله. قال يش ٣: ١٥ي: «فحين وصل حاملو تابوت العهد إلى الأردنّ وانغمست أرجل الكهنة حاملي التابوت، في ضفَّة الماء، والأردنّ ممتلئ إلى جميع شطوطه كلَّ أيَّام الحصاد، وقفَتْ المياه المنحدرة من فوق. ووقفت ندًّا واحدًا بعيدًا جدًّا. فوقف الكهنة حاملو تابوت عهد الربّ على اليابسة في وسط الأردنّ راسخين، وجميع إسرائيل عابرون على اليابسة حتَّى انتهى جميع الشعب من عبور الأردنّ». أجل، أراد نهر الأردنّ أن يقف مثل الجبل ليمنع الشعب من العبور، بل ليقف في وجه الربِّ الذي يرمز إليه تابوت العهد (كان فيه كلام الله، الوصايا، وعناية الله، المنّ، وكهنوت الله، عصا هرون). ما أشبه هذا العبور بذاك الذي أراده التلاميذ مع يسوع من العالم اليهوديّ إلى العالم الوثنيّ. قال الإنجيل: «فهبَّت ريح عظيمة فكانت الأمواج تضرب السفينة حتَّى صارت تمتلئ» (مر ٤: ٣٧). إذا كانت السفينة ترمز إلى الكنيسة، فهذا يعني أنَّ قوى الشرِّ أرادت أن تحطِّم السفينة. فاكتفى الربُّ يسوع بأن ينتهر الريح ويقول للبحر: «اسكت، اخرس»، لكي تسكن الريح ويحصل هدوء عظيم. ذاك ما حدث مع يسوع.

ومع يشوع بن نون، الصورة البعيدة عن يسوع، كما يقول الآباء، وقف نهر الأردنّ إجلالاً لله. وما دام تابوت العهد في مجرى النهر، لبث الماء واقفًا. «وكان لمّا انتهى جميع الشعب من عبور الأردنّ أنَّ الربَّ كلَّم يشوع...» (يش ٤: ١).

منذ بداية السفر يسمع يشوعُ الربَّ يقول له: «والآن، قم اعبر الأردنّ وكلّ هذا الشعب إلى الأرض...» (١: ٢). وفي آ ١١ قال يشوع: «بعد ثلاثة أيّام تعبرون الأردنّ...».

وماذا يقول المؤرّخ المعروف؟ «ولإثبات حقيقة أنّ "أردنّ" التوراة لم يكن نهرًا بهذا الاسم بل مجرّد تعبير طوبوغرافيّ يشير إلى أجراف أو قمم ومرتفعات جبليّة في جنوب الحجاز وعسير...» (ص ١٣٦). يجب أن نقرأ النصوص. فنجد شطّيم إلى الشمال من الطائف. أين ورد اسمها؟ في الكتابات التاريخيّة العربيّة على أنّها جبل شتان. أمّا «تل القلف» في يش ٥: ٣ فهو في نظر الصليبيّ: قرية ذي غلف، غرب الجزيرة العربيّة. أمّا المعنى البسيط فهو أنّ العبرانيّين لم يكونوا خُتنوا في البرّيّة، فخُتنوا ورموا قلف أو غلف كلّ واحد هناك. وفي آ٨ نعرف «أنّهم أقاموا في أماكنهم، في المحلّة، حتّى شفائهم». وبعد أن خُتنوا «عملوا الفصح في اليوم الرابع عشر من الشهر...» (آ١٠).

ونواصل القراءة (ص ١٣٧–١٣٨) ونبتسم: «ويمكن تتبُّع هذا العبور حتّى في أدقّ تفاصيله في مسرح غرب الجزيرة العربيّة». ويقرأ الصليبيّ: «المياه المنحدرة من فوق». في العبريّة: م. ل. م ع ل ه. قرية المعلاة في منطقة الطائف، قرب غرابة والملحة (بحر الصربة، بحر الملح، في العبريّة: ع ل. ي م. ع ر ب ه. ثمّ: غرب «هـ م ل ح». أمّا نحن فنقرأ: المياه المنحدرة من فوق... والمنحدرة إلى بحر العربة، بحر الملح، وهو البحر الميت حيث يصبُّ نهر الأردنّ.

والنتيجة، يقول الصليبيّ (ص ١٤٠): «ومن الواضح أنّ المياه التي "وقفت" لتسمح لبني إسرائيل بعبور الجُرف عند عقبة بقران... كانت مياه سيل وادي أضم، الذي يجري من الشقّ المائيّ غربًا باتّجاه البحر». وهكذا تكون نقطة العبور قد حُدِّدت في نصّ سفر يشوع بدقّة مذهلة. أتساءل: كيف استطاع القارئ العربيّ أن يضيِّع وقته في مثل هذه الكتب. ولنحسب أنّه فهم

واستوعب، فما هي الفائدة التي استطاع أن يجنيها؟ وفي عمليّة تعمية قدّم لنا الدكتور الصليبيّ خارطة «واضحة ولا أوضح»، وفيها «تتحدَّد المواقع بدقّة رائعة». انظروها في ص ١٤١.

ثانيًا: انفصال لوط عن إبراهيم (١٣: ١ي)

تتذكّر سياق الخبر: كثرت المواشي عند أبرام (أو: إبراهيم) وابن أخيه لوط، «فلم تحملهما الأرض أن يسكنا معًا» (آ٦)، لهذا «حدثت مخاصمة بين رعاة مواشي أبرام ورعاة مواشي لوط» (آ٧). فعرض أبرام على ابن أخيه: «إن ذهبتَ شمالاً فأنا يمينًا، وإن يمينًا فأنا شمالاً» (آ٩). وها نحن نقرأ ما كتب الصليبيّ (ص ١٤٤).

آ١٠. فرفع لوط عينيه ورأى كلَّ دائرة الأردنّ (ك ك ر. هـ. ي ر د ن) أنّ جميعها سقي (ك ل ه. م س ق ه) قبلما أخرب الربُّ سدوم وعمورة (ل. ف ن ي. ش ح ت. ي هـ و ه. إ ت. س د م. و. إ ت. ع م ر ه) كجنّة الربّ (ك. ج ن. ي هـ و ه)، كأرض مصر حينما تجيء إلى صوغر (ك ا ر ص. م ص ر ي م. ب. ا ك ه. ص ع ر)

آ١١. فاختار لوط لنفسه كلَّ دائرة الأردنّ وارتحل لوط شرقًا (م. ق د م)...

آ١٢. ولوط سكن في مدن الدائريّ (ع ر ي. هـ. ك ك ر) ونقل خيامه إلى سدوم (و ي ا هـ ل. ع ل. س د م).

أين الخطأ في هذه الترجمة بحسب أستاذنا؟ «ك ك ر. هـ. ي ر د ن: «دائرة الأردنّ. أو: وادي الأردنّ. «م. ق د م» خطأ مقصود: «شرقًا» كان يجب أن يُقال «من الشرق» (عمليًّا: «من الغمد»). ثمّ «ش ح ت» ترجمت «أخرب» أو: «خرب» ولكنّها اسم مكان... ثمّ ليست «ا ر ص. م ص ر ي م» هي «أرض مصر»...

وهكذا قدّم الصليبيّ ترجمته كما يلي (ص ١٤٥): «فرفع لوط عينيه ورأى دائرة ريدان». كيف انقلب «ي ر د ن» إلى «ريدان» فذلكة معتادة عند هذا الباحث. ويواصل: «أي محيط جبل هروب وهي شحت وسدم وعمره.

مسقيّ باتّجاه شحت. هي اليوم الشخبت، في جبل بني مالك.

وهي بجانب سدم. صار «دامس»، بعد تبديل في مواقع الحروف. وادي دامس هو الرافد الأقصى غربًا لوادي صبا.

وعمره: الغمر. على منحدرات جبل هروب فوق جبل دامس.

إنّها كجنّة يهوه كأرض مصريم. ليست مصر الحاليّة، هي قرية مصرمة. نقول لا شكّ يمرُّ بجانبها نهر كبير مثل نهر النيل لكي تصبح الصحراء «جنّة».

باتّجاه صعر: الصعراء. أيضًا في جوار أبها. وهناك أكثر من «صوغر» أخرى في أنحاء مختلفة في عسير.

ويتوسّع المؤرّخ ويتوسّع...

تلك كانت قراءة. وأمّا القراءة التي نجدها في مئات الترجمات التي نعرف فهي كما يلي:

«فرفع لوط عينيه ورأى أنّ كلّ دائرة الأردنّ سقي، قبلما خرّب الربُّ سدوم وعمورة، كجنّة الربّ، كأرض مصر، حينما تجيء إلى صوغر. وارتحل لوط شرقًا (أو: باتّجاه الشرق) فاعتزل الواحد عن الآخر...» (١٣: ١٠-١١).

ونتعرّف إلى الأماكن. سدوم هي المدينة الرئيسيّة بين المدن الخمس الكنعانيّة. ذُكرت مرارًا وحدها (تث ٣٢: ٣٢: «من جفنة سدوم جفنتهم» على رأس «بناتها» (حز ١٦: ٤٦). اختارها لوط ليقيم فيها فصارت رمزًا إلى الإثم (رؤ ١١: ٨). انطبق الاسم منذ زمن طويل على كتلة الملح في جبل اسدوم، الواقع إلى الجنوب الغربيّ من البحر الميت والباعد ٣٢ كلم إلى الجنوب الغربيّ من الكرك. ارتبطت سدوم بالسديم وعمورة بالسكن، وهي

تُذكَر دومًا مع سدوم. أمّا «صوغر» فهي المدينة الصغيرة التي طلب لوط اللجوء إليها. والسبب الروحيّ: كأنّي به ما أراد أن يبتعد عن مركز الإثم في سدوم وعمورة. فهذا «النبيّ» لوط، دلَّ على أنّه مجبول بالإثم. ذهب إلى سدوم وترك عمّه إبراهيم. وما إن أفلت من النار والكبريت، ربّما بصلوات عمّه، حتّى زنى بابنتيه. من أجل هذا دُوِّنت هذه المقاطع لكي تعطينا درسًا وتأمُّلاً لا لتعلّمنا. كيف نبحث عن الجغرافيا في العالم العربيّ الواسع، لاسيّما وأنّ المنطلق خاطئ؟ فأين يكون الهدف؟ هذا إذا بقي من هدف.

ثالثًا: افتح أبوابك يا لبنان (زك ١١: ١-٣)

هذا المقطع مأخوذ من زكريّا الثاني الذي يبعد مئات السنين عن زكريّا الأوّل، معاصر بناء الهيكل الثاني في نهاية القرن السادس ق.م. موضوعه: الملك المسيح آتٍ وهو سوف يدمّر القوى العظمى. إنّه سيّد التاريخ الذي لا يقف في وجهه عائق لكي يقيم مملكته الروحيّة. ما هي القوى هنا؟ أوّلاً، لبنان وبالأحرى جبل لبنان بأرزه الشامخ الرفيع. قال مز ٢٩: «يحطّم الربُّ أرز لبنان». السرو بارتفاعه، سوف يسقط. هذه الأشجار ترمز إلى «الأعزّاء» والأقوياء في العالم. كما سقطت الأشجار هم يسقطون، وكما أكلت النار أرز لبنان، كذلك هي تأكل قصور العظماء فتحترق المدن بفعل الاجتياحات الآتية.

وبعد التشامخ، تأتي المتانة والصلابة: البلُّوط أو السنديان. اشتهرت به أرض باشان، أرض المراعي الخصبة والثيران المخيفة. صارت الأشجار أحياء تبكي وتولول. رمزَ الأرز والسرو إلى الأعزّاء. والسنديان إلى «الرعاة»: الملوك والحكّام جاءت نهايتهم. بل السلالة الملكيّة من خلال «الأشبال» التي وُجدت في غور الأردنّ (إر ١٢: ٥). في الربيع، يرتفع ماء الأردنّ. وتنمو الأشجار وتتكاثر الأعشاب. عندئذ ترفع الأشبال صوتها. ولكن في فصل الخريف، حين تُعرّى الأشجار من أوراقها وييبس العشب بعد أن يصبح الأردنّ سيلاً

بسيطًا، ماذا يكون مصير الأشبال؟ وهذا ما يحصل للملوك والعظماء إذا ما انقلبت الأمور.

اكتشف الصليبيّ «الغموض» في ترجمة هذا النصّ. «الأعزّاء» من هم؟ وما هو «الوعر المنيع»؟ ثمّ «كبرياء الأردنّ». وتبدو الجملة ناقصة في «صوت ولولة الرعاة» وفي «صوت زمجرة الأشبال» ونقرأ النصّ:

آ١. افتح أبوابك، يا لبنان (ل ب ن و ن) فتأكل الأرض أرزك (أرزك).

آ٢. ولول يا سرو، لأنّ (ك ي) الأرز سقط،

لأنّ (أ ش ر) الأعزّاء قد خربوا

ولول يا بلُّوط (أ ل و ن) باشان (ب ش ن)

لأنّ الوعر المنيع (ي ع ر. هـ. ب ص و ر) قد هبط.

آ٣. صوت (ق و ل) ولولة الرعاة (أ ل ل ت. هـ. ر ع ي م)

لأنّ فخرهم (أ د ر ت م) خرب

صوت (ق و ل) زمجرة الأشبال (ش ا ج ت. ك ف ي ر ي م)

لأنّ كبرياء الأردنّ (ج أ و ن. هـ. ي ر د ن) خربت.

لا نتوقّف عند الملاحظات اللغويّة. بل نمضي حالاً إلى «الملاحظات الجغرافيّة».

أوّلاً. قال الجغرافيّون العرب: «جبلان قرب مكّة يقال لهما لبن الأسفل ولبن الأعلى». ثمّ هناك لبنان في شمال اليمن... ولكنّ الأرز لا وجود له، فكيف يستقيم المعنى؟ بأهوَن السبل. بدل الأرز نجعل «العرعر»، وانتهى البرهان الواضح!

ثانيًا. «أد ر ي م». إنّ «أ ذ ر» تعني «الذروة». هي التي أحرقت أرز لبنان. ولكن بدأت الجملة مع «ربّما»!

ثالثًا. لبنان اليمن (الرأي الأخير). عندئذٍ «ب ش ن». هي البثنة في جبل نيفا. أمّا «أ ل و ن» المعروف في اللغات الساميّة (إ ي ل ن ا، السريانيّة، وهو يرتبط بصفة الله، إيل، أي القدير) بأنّه البلوط السنديان. قال: «لعلّه البطم» ولماذا؟ ألأنّه ليس في المنطقة سنديان، كما في اليمن أرز؟

رابعًا. «ر ع ي م» لا تعني الرعاة، بل «أهل ر ع» أو «سكّان ر ع». في منطقة جيزان، وادٍ صغير اسمه «ريع» (ولكن من أين جاءت الياء) واللفظ هو «ر ع»؟

خامسًا. «ك ف ي ر ي م». عادة هي الأشبال. أمّا عند الصليبيّ فهي «الرفقات» أي تهجية «ر ف ق» صارت «ك ف ي ر» لا شكّ أبدًا في هذا الاستنباط!!

وها هي الآن الترجمة:

افتح أبوابك يا لبينان (في اليمن) فتأكل النار عرعرك

ولول يا سرو (لماذا لم تتبدّل هذه الشجرة؟) لأنّ العرعر الذي أخربته الذرى قد سقط

ولول يا بطم البثنة لأن غابت الصابر سقطت.

اسمع ولولة أهل ريع لأنّ ذروتهم خربت.

اسمع زمجرة الرفقات لأنّ غوان ريدان خرب.

شكرًا لهذه الترجمة الرائعة! الوضوح، الدقّة، البساطة. يا ليت العهد القديم كلّه،ترجم بيد هذه العبقريّة التي ينبهر بها الناس في العالم العربيّ. يا ليت فريق الترجمة المشترك الذي تألّف خصوصًا من الشاعر يوسف الخال والخوري بولس الفغاليّ عرف بهذه الاقتراحات. فلو عرف لما كان أعطى ما أعطى:

افتح يا لبنان أبوابك

فتأكل النيران أرزك.

ولول أيُّها السرو

على سقوط أرز لبنان

ودمار أشجاره العظيمة.

ولول يا بلُّوط باشان

على تكسُّر غاباته الوارفة.

ها صوت ولولة الرعاة

على خراب مراعيهم.

ها صوت زئير الأشبال

على دمار أعالي الأردنّ.

ونكتفي بهذا القدر من الكلام.

بعد هذه الدراسة، تبيَّن لي أنَّ الهدف العميق عند كمال الصليبيّ أن يمحو من ذهن الناس أمرين: الحضارة الفينيقيَّة التي يتكلَّمون عنها، لا وجود لها حيث الكلام عنها. والأمر الثاني والأهمّ: كيف تكوَّن لبنان؟ ويكفي أن نذكر هذا المقطع من **بيت بمنازل كثيرة**: كانت المؤسَّسة المسيحيَّة الحاكمة في لبنان بحاجة ملحَّة إلى مقولة أخرى توفِّر مسوَّغًا تاريخيًّا وجود لبنان كبير مستقلّ عن سورية وعن العروبة. وكان الإغريق قد استخدموا في القديم اسم "فينيقيا" للدلالة على الساحل السوريّ الممتدّ بين اللاذقيَّة وعكّا.»

القسم الثالث

خفايا التوراة وحروب داود

الفصل السادس

خفايا التوراة

بعد **التوراة جاءت من جزيرة العرب** أطلّ حالاً كتاب آخر: خفايا التوراة. هذا أراد أن يوضح سابقه، فراح أبعد من «تاريخ» الشعب العبراني، ليعود إلى البدايات التي كانت درسًا لاهوتيًا. هو يفتح الشعب والشعوب على الخلق مع العبارة الايمانية: «في البدء خلق الله السماوات والأرض». وتوزّعت هذه القراءة الأولى كما يلي:

أ – مقدّمة

ب – مسألة نوح

ج – البرج الذي لم يكن في بابل

د – أبرام. كم من وجه وراء القناع

هـ – يوسف في أرض مصرايم

و – ماذا عن موسى؟

ز – شهادة بلعام.

أ – مقدّمة

لم يطل الوقت على صدور **التوراة جاءت من جزيرة العرب** (أيلول ١٩٨٥) حتّى ظهر **خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل** (١٩٨٨). فشدّد على ما سبق الدكتور كمال الصليبيّ واستنبطه من حلول لمواقع كثيرة نقرأها في التوراة. هي ليست في فلسطين التي نعرف، بل في الجزيرة العربيّة. وبالتحديد قرب الطائف.

اعتبر هذا الكتاب أنّ «أكثريّة المسيحيّين واليهود اليوم ما زالت تتمسّك بحرفيّة الكتاب المقدّس وتُجلّ نصوصه عن النقد والتحليل» (ص ٥). ولكنّ العالم الغربيّ بدأ بدرس النصوص وتحليلها منذ القرن التاسع عشر وهو لا يزال في القرن العشرين والقرن الحادي والعشرين. ذاك ما فعله أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركيّة (١٩٢٩–٢٠١١) مستندًا إلى معلومات وجدها في الجغرافيا العربيّة فربطها بنصوص التوراة، وأكثر من ربْطها بحيث جعل بدايات التوراة وبداية الشعب العبرانيّ هناك قبل أن تصل إلى فلسطين الحاليّة التي يحدُّها لبنان من الشمال ومصر من الجنوب.

كتاب ظهر أوّلاً بالإنكليزيّة ثمّ أعيدت كتابته في العربيّة، كما يقول المؤلِّف. انطلق من خبر آدم وحوّاء وصولاً إلى قايين وهابيل، وإلى نوح وبرج بابل. هذه الفصول الأحد عشر الأولى في التوراة: تختلف عمّا يليها. فهي المدخل إلى العهد القديم كلِّه. ومدخل البيت يُبنى في النهاية، لا في البداية. وذاك ما نقول عن الفصول الأحد عشر الأولى في سفر التكوين. دُوِّنت ربّما في القرن الخامس ق.م. في إطارِ إقامة الكهنة واللاويّين في بلاد الرافدين. استقوا من تقاليدهم ونقّوها من كلِّ أثر شرك وتعدُّد الآلهة. مع فعل إيمان أساسيّ يقول: «في البدء خلق الله السماء والأرض» (تك ١: ١). وبعد ذلك، أنشد الكاتب الخلق في ستّة أيّام ليعلِّم الناس أن يرتاحوا في اليوم السابع، على مثال الخالق» الذي فرغ من عمله في اليوم السابع واستراح وبارك اليوم السابع» (تك ٢: ٢–٣).

واستقى الكاتب الملهم خبر خلق الإنسان وخطيئته وصولاً إلى نوح والطوفان وبرج بابل. وعندئذٍ انتقل سفر التكوين، إلى إبراهيم وإسحق ويعقوب والآباء الاثني عشر ولاسيّما يوسف الذي مضى إلى مصر (مصرايم التي جعلها الصليبيّ في السراة). وبعد كلام عن موسى وبلعام، قفز المؤرِّخ إلى سفر يونان لينقل ما حدث في البحر المتوسِّط إلى المحيط الهنديّ، فتصبح «يافا» عُمان.

ماذا فعل الدكتور الصليبيّ؟ قرأ النصّ، أورد الخبر، واستخلص المواقع الجغرافية وجعلها في شبه الجزيرة العربيّة. وحاول أن يعود إلى ما قبل التوراة، دون أن يستند إلى الحفريّات والمدوَّنات والوثائق وتاريخ الدول في الشرق، بل هو تخيَّل ما يمكن أن يكون هذا التاريخ قبل التاريخ. وإذ لم يعارض نفسه بنفسه وينتقد ما يكتب، اعتبر أنّ الفرضيَّة هي اليقين. يبدأ مع «في ظنّي». ثمَّ يتوضَّح له كلُّ شيء. وتبعه القرَّاء العرب ولاسيّما في هذا الكتاب الذي وصل إلى طبعته السابعة، عن دار الساقي، سنة ٢٠١٢. يجول الكاتب ويجول في مواقع وأخبار. ولكن كيف ننتهي؟ إلى لا شيء تقريبًا.

في هذه الدراسة، يبقى الخبر الذي يُسرَد، ولكنَّ المعنى الروحيّ غائب. إذا كانت التوراة كلام الله، هل نستطيع أن ننسى ذلك مهما كانت أبحاثنا؟ ولماذا نريد أن نستخرج منها ما ليس فيها؟ نستطيع مثلاً أن نكتشف شخص شيت والقبيلة التي كانت في صلبه وشخص قايين وقبيلة القينيِّين، ولكن أن نبحث في ما قبل التاريخ ولا يكون في أيدينا شيء، ذاك ما يبعدنا عن الهدف الذي أراده الله حين «كتب» تاريخ البشريَّة. فإذا أردنا أن نقرأ هذا الكتاب وأمثاله، ينبغي علينا أن نتمرَّس عميقًا بالكتاب المقدَّس وبالدراسات المعاصرة في اللغات الأجنبيَّة. عندئذٍ نستطيع أن نشرف على ما كتبه الصليبيّ بروح ناقدة ونتنبه، بحيث لا نغرقُ في رمال الصحراء، كما غرق الكثيرون وأضاعوا أو كادوا يُضيِّعون إيمانهم حين وجدوا في فمهم طعم المرارة أو أقلّه سماجة.

وها نحن نحاول أن نقرأ هذا الكتاب ونقدِّم في الوقت عينه ما أراد الله أن يقول لنا من أجل تعليمنا. فنتابع خفايا التوراة صفحة صفحة، فنقدّم ما قاله الصليبي، ونحاول الانطلاق في خط دراسات عالمية حول الكتاب المقدّس.

ص ٢٥. قصّة آدم وذويه... تتألَّف من مزيج من الأساطير والخرافات.

الخرافة هي الميتولوجيا. ضرب من الأساطير.

الأسطورة معالجة شعريَّة خياليَّة لمادَّة التاريخ.

الخرافة، المادَّة ليست تاريخيَّة بقدر ما هي فلسفيَّة تأمُّليَّة.

الأسطورة تحاول تصوير واقع المجتمعات البشريَّة على ضوء ماضيها، وهذا ما يفعله التاريخ.

تختصّ الخرافة بمعالجة المسائل الأساسيَّة التي لا يتعرَّض لها التاريخ ومنها مسألة الكون والخليقة.

هي محاولة اكتشاف التاريخ والجغرافيا انطلاقًا من أسماء العلم.

ص ٢٦. جنَّة عدن – هي واحة الجنينة **بأسفل وادي بيشه** إلى الشرق من سراة عسير.

ص ٣٠. حوّاء – إلاهة أمّ لجميع المخلوقات.

ص ٣١. ال حيه، إله الحياة

ال دعيه، إله المعرفة

* * *

كيف يقرأ الباحثون الفصل الثاني من سفر التكوين؟ النظريَّات التي يقدِّمها الدكتور الصليبيّ مبنيَّة على تلاعب على الألفاظ. ما يكتبه لا يؤثِّر في المعنى الدينيّ للنصّ الكتابيّ. انطلق الكاتب من الواقع: ما هو أساس البشريَّة؟ رجل وامرأة. آدم، مأخوذ من تراب الأرض (أديم): «أنت من التراب وإلى التراب تعود. وحوّاء ترتبط بالحياة لأنَّها تعطي الحياة وتلد الأولاد.

المهمّ أنَّ المرأة جزء من الرجل وليست خادمة له وعبدة. هي مأخوذة من عند قلبه.

أين وُضع الإنسان؟ في جنَّة. في مكان رائع مع مياه أربعة أنهر هي الأكبر في العالم المعروف آنذاك. ذاك منتهى السعادة بالنسبة لابن الصحراء. إذًا، الله أعطى الإنسان كلَّ ما تتمنّاه نفسه، فما بقي له سوى أن يفلح الأرض ويحرسها، لا يهشِّمها ولا يحطِّمها، وفي كلام حديث، أن يحافظ على البيئة. وماذا كانت النتيجة؟

ونقرأ الفصل الثالث من سفر التكوين. ترك الإنسانُ الربّ الإله، وسمع من الحيَّة التي سيفسِّرها التقليد اللاحق: إبليس أو الشيطان، خادع الدنيا كلّها (رؤ ١٢: ٩) أراد الإنسان أن يصير «إلهًا» وهي الخطيئة الكبرى التي يرتكبها الملوك والرؤساء. بما أنَّ الإنسان اعتبر أنَّه يعرف الخير والشرّ، أي يقرِّر ما هو خير ما هو شرّ، خسر أيضًا الحياة مع الله. وصورة الكروب مأخوذة من تصوُّر الملوك هو حارس الأبواب الملكيَّة. وهكذا خسر الإنسان الإقامة في الجنَّة.

هي الصور الرمزيَّة مع «ع د ن» التي ترتبط بالسعادة حسب اللغة العربيَّة: اخضرار الأرض، اللين والنعومة. أمّا السيف فسوف يصبح في التقليد اللاحق «كلمة الله التي هي سيف ذو حدَّين» (عب ٤: ١٢).

* * *

ص ٣٤. قصَّة قايين وهابيل. كما خلقُ الإنسان في الجنَّة، قصَّةٌ «فلسفيَّة تأمّليّة» تدرس سبب شقاء الإنسان. من رجل يتعب في الأرض وامرأة تتألّم في الولادة، كذلك قصَّة قايين وهابيل. الخلاف بين الرعاة (هابيل) والحضَر (قايين). انطلق الكاتب الملهم من رئيس قبيلة القينيِّين وعاد «إلى البدايات». ظنَّ قايين أنَّ لا أحد يراه في البرِّيَّة، وأنَّه يحقُّ له أن يقتل أخاه لأنَّه أقوى منه. ولكنَّ الربَّ هو هنا، والأرض نفسها ترفض الدم المراق عليها.

وأراد الصليبي أن يحدِّد موقع «نود». أرض «التيه» هي البادية التي تلي وادي بيشه في الشرق. كلّ التوراة هي هناك. المهمّ ليس المكان والزمان، فكلام الله يتوجَّه إلى الإنسان في أيِّ مكان وفي أيِّ زمان.

ص ٣٩ وما يلي. يبني الصليبيّ أمورًا من الجزيرة العربيَّة تبقى على هامش الكتاب فلا تزيد ولا تنقّص في المعنى الروحيّ. مثلاً: «أمّا شخصيَّة آدم (ء دم) في هذه الأسطورة، فهي ترمز بلا شكّ إلى منطقة جبل أدِم (ء دم) باليمن إلى الجنوب من صنعاء، بين بلدتي إبّ ويريم...» (ص ٤٣).

ب – مسألة نوح

انطلق الكاتب الملهم من قصّة عرفها في بلاد الرافدين أي ما يقابل العراق وجوارها. جمح نهر دجلة (دُعيَ في اللغة اليونانيّة: النمر)، وغمر قرية من القرى أو منطقة واسعة، فمات من مات سوى أسرة واحدة برأسها «نوح» الذي امتدحه الربّ: «هو رجل بارّ كامل في أجياله». ثمَّ: «سار نوح مع الله»، كما الصديق مع صديقه (تك ٦ : ٩)، على مثال آدم الذي كان يتمشّى في الجنّة مع الله عند برودة المساء (تك ٣ : ٨).

«أرضنا»، قال الكاتب تمثّل الأرض كلّها. بسبب الخطيئة دُمِّرت، وبدأت بشريّة جديدة مع نوح وأولاده: سام وحام ويافث.

تحدَّث الصليبيّ عن «قبيلة نوح» (ص ٥٠)، وجعل الأسماء السابقة لنوح أسماء قبائل. لا بأس. تبقى أمورٌ منطلقة من الجزيرة العربيّة. «السيول الجارفة في بلاد اليمن» (ص ٥٢). والطوفان حدث في السنة ٦٠٠ من تاريخ قبيلة نوح.

ص ٥٩. ديانة نوح. نتذكَّر أنَّ تك ١–١١ كُتب في حقبة متأخِّرة، ربَّما في القرن الخامس ق.م. هذه الفصول الأحد عشر هي مدخل إلى العهد القديم كلّه (الذي يجد جوابًا عنه في سفر الرؤيا مع شجرة الحياة والفردوس. هي عبادة الله الواحد. الفُلك (أو: السفينة) هي وسيلة خلاص، وقد اعتاد «العراقيّ» أن يستعملها كما المصريّ، وخصوصًا الفينيقيّ. وقوس قزح رمز إلى السلام بين الله والبشر. فالقوس أداة حرب. جعلها الربُّ على الغمام. كما يعلّق المحارب قوسه داعيًا إلى السلام والوفاق.

ص ٦٢. «نوح كاسم إله». في الفصل الخامس من سفر التكوين طال عمر الإنسان ولكنَّه لم يصل إلى الخلود الذي هو ألف سنة. ونوح نفسه مات (تك ٩ : ٢٩). إذًا، ليس بخالد ولا يمكن أن يكون إلهًا. أمّا نظريّات الصليبيّ في البدايات المبنيّة على افتراضات، فتجعلنا نبتسم. فنتركه مثلاً يبحث

عن موضع «ع ن ن» (السحاب): «قرية اسمها عنان، باليمامة، في جوار قرية آل قيس» (ص ٦٤).

ص ٦٩. نوح وكرمه. هي أيضًا قصّة تأمُّليّة حول مضارّ الخمرة وارتباطها بالزنى والفجور الذي مُورس بقرب المعابد الكنعانيّة كاتّصال الأرض بالسماء...

ج – البرج الذي لم يكن في بابل

نقرأ في سفر التكوين (ف ١١) قصّة مدينة بابل والبرج أو المعبد العالي الذي اعتادوا أن يجعلوه بسبع طبقات. انطلق الكاتب من دمار بابل بيد الفرس، تلك المدينة الكبيرة والجميلة بجنائنها المعلّقة، التي ضمّت شعوبًا عديدًا جاء بها البابليّون أسرى وعبيدًا يعملون لهم. أرادوا أن يرتفع البرج فيصل إلى السماء، بحيث يحارب مردوكُ الإلهُ البابليُّ الربَّ الإله. أمّا بابل فأرادت أن تزاحم أورشليم مدينة الله. بدأت الثورة من الداخل قبل أن يأتي العدوّ من الخارج، فتشتّت السكّان، أي عادت كلّ جماعة أسرى إلى بلادها. وذاك ما حصل للأسرى الآتين من أورشليم وأرض يهوذا.

١– لماذا تعدُّد الألسنة؟ الربُّ سمح بهذا التعدّد. غاب الربُّ فراح كلُّ إنسان في طريقه بعد أن كانوا كلّهم «لسانًا واحدًا ولغة واحدة» (تك ١١: ١).

٢– كلام عن الهجرات المتتالية. هل نقبل الآتين من الخارج أم تكون الحرب على ما حصل بين قايين وهابيل، فالأرض لا تتّسع لاثنين، لرجلين، لشعبين.

ومن اهتمامات الصليبيّ إعادة كلِّ الأخبار إلى الجزيرة العربيّة. قال (ص ٨٧): «شنعار ليست بلاد العراق... هي بمنطقة الطائف...»

د – أبرام. كم من وجه وراء القناع

يبدأ الكاتب فيطلب الأمان، لأنَّ «لإبراهيم مكانة خاصّة في الكتاب المقدّس...» (ص ٩٣). فصل بين أبرام عبرانيّ وأبرام أراميّ (ص ٩٥). هذا رئيس قبيلة أراميّة وذاك رئيس قبيلة عبريّة. في تك ١٤: ١٣ نقرأ: «أبرام العبرانيّ». ولا نقرأ «أبرام الأراميّ». ولكن إذا أردنا أن نصل إلى الجزيرة العربيّة نحتاج إلى أبرام الأراميّ.

ص ٩٨. أبرام العبرانيّ، إذًا، كان موطنه في منطقة القنفذة، أي في الجزء الجنوبيّ من تهامة الحجاز... ممرا صارت النمرة، وحبرون صارت خربان، المكفيلة صارت مقفلة، وقرية أربع اسمها البرمه (ص ٩٩). أتركُ القارئ يمضي إلى تلك الأماكن لعلّه يجد المعنى الروحيّ للنصّ الكتابيّ. نتذكّر القول الأساسيّ: الكتاب المقدّس ليس كتاب تاريخ، ولكنّه يجعل الإنسان في التاريخ، كما يجعله في الجغرافيا، لكي يسمع كلام الله أينما كان. فحزقيال رافق الشعب الماضي في السبي إلى بابل، وكلّمه هناك كما كلّم إشعيا الشعب عينه في أرض يهوذا.

وأبرام الأراميّ (ص ١٠٠) جاء من أور إلى حاران التي صارت حرّان، وهي في شمال العراق. أمّا الصليبيّ فجعل كلَّ الأسماء في الجزيرة العربيّة. صارت «خيرين» في الطائف، و«شكيم» صارت قرية «القسمة» (ص ١٠٤). إذًا هناك أبرامان اثنان وكلاهما يقيمان في الجزيرة العربيّة.

وفي ص ١٠٥ نصل إلى أبرام التكوين ١٥. وهنا التلاعب على الكلام. أمّا الموضوع الروحيّ، فهو عهد بين أبرام (الذي سيصبح إبراهيم) والله، من خلال الذبائح. وما نلاحظ، هو أنّ الله وحده يمرُّ بين قطع الذبائح في رمز النار، لا أبرام، مع أنّه كان على المتعاقدَين أن يمرّا بين القطع. أجل، ليس الربُّ إنسانًا بل هو الله، وهو من يبادر فيقطع عهدًا مع أحبّائه.

ومن الفذلكات التي نقرأ ص ١١١: «والواضح أنَّ الإله "برم" (هو اسم أبرام) كان هو نفسه بتولاً عقيمًا، لكنَّه كان يحصر هذه الصفة السلبيَّة بشخصه...» من أين جاء مؤرِّخنا بهذه المعلومات التي وصلَتْ به إلى نتيجة «واضحة»؟

وفي ص ١١٤ نتعرَّف إلى إله الشباعة، إله بئر سبع، الواقعة في جنوب فلسطين. فالشباعة هي «بداخل عسير في وادي بيشة» (ص ١١٥).

وفي ص ١٢٠ أبرام اليمن.

وماذا نستنتج من القسم الأوَّل في خبرة إبراهيم مع الله؟ غير ما رأى الصليبيّ. جعل أبرام في أكثر من مكان، فصار بلا مكان. أمّا الكتاب المقدَّس (تك ١٢-١٥) فيقدِّم لنا شخصًا آمن بالله وسار يهديه، فوصل إلى أرض فلسطين. بارك جنوبيّ العراق وشماله كما بارك معابد فلسطين وجعلها لعبادة الله الواحد. ومضى إلى مصر ومنها عاد إلى فلسطين. دعاه الربّ فلبَّى النداء. كان معه لوط ابن أخيه، فتركه. وهكذا أقام الله عهدًا مع هذا المؤمن الذي نال البركة لكي يوزِّعها على أمم الأرض. والرمز الأهمّ نقرأه في تك ١٤: إبراهيم انتصر، بإيمانه، على ملوك الأرض مع اسم أليعازر أي الربّ معونتي، من خلال الرقم ٣١٨ رجلاً، الصورة البعيدة عن آباء المجمع المسكونيّ الأوَّل في نيقية سنة ٣٢٥.

* * *

وفي الفصل اللاحق (ص ١٢٩) تركْنا إبراهيم، أبا الشعوب الكثيرة، وصرنا مع «أبورهم (= إله المطر) والسراة». نتذكَّر أنَّ السراة هي في الجزيرة العربيَّة التي يجب أن لا نخرج منها، لأنَّها منبع كلِّ وحي وكلِّ حضارة، كما قال الأستاذ الكبير كمال الصليبيّ.

من ظهر على إبراهيم؟ لا يهوه، الربّ، بل إيل شدّاي، أي الإله القدير. وأتى التلاعب على الكلام عند هذا المؤرِّخ: سارة أي الأميرة صارت «ال. س ر ه» أي إلاهة السراة. وإسحق الذي يرتبط اسمه بالضحك، لأنَّ سارة ضحكت حين أعطيَت ولدًا، يعني: «فيضان مياه البئر».

هو زواج الآلهة: أبو رهم مع ال سرة (ص ١٣٥) فكان «يصحق». موطنه «ا ل ن ج ب». هو جبل الجنبة بسراة زهران... ويضيع القارئ بين أسماء وأسماء ومناطق ومناطق، فنعفي القارئ من التيهان فيها. ثمَّ هي بلا فائدة.

ونصل إلى ابنَي إسحق: عيسو ويعقوب (ص ١٣٨). قدَّم الكاتب في شخصين علاقة إسرائيل بأدوم وهما شعبان جاران. فالخلاف بينهما ظهر منذ كانا في حشا أمِّهما رفقة. ولكنَّ يعقوب نال البركة، لا عيسو الذي انشغل «بالملذّات الآنيَّة» (ص ١٤٣).

ويلفت نظرنا الإله «رئي». ساعة هو المجهول من فعل «رأى»: الله يُرى. ثمَّ الله «يسمع»، قال: الإله «يستمع». وهذا ما نجده في اسم إسماعيل. من هنا انطلق الصليبيّ ليتحدَّث عن إلهين (ص ١٤٨): إله البصر وإله السمع. فلا يبقى لنا سوى المضيّ إلى محطِّ آمالنا، كما قال الصليبيّ.

أمور عديدة ضاعت في متاهات الشروح والأماكن التي نجهلها والتي يعرفها أستاذنا تمامًا. هناك دروس روحيَّة: دارت سارة وإبراهيم حول مشروع الولد المنتظر، فجاءت سارة بهاجر أمتها إلى زوجها. ثمَّ كان الختان (تك ١٧) حيث كان يتمُّ في الصبيّ الذي يقارب الرجولة. ولكن، في الشعب العبرانيّ، صار الطفل يُختَن ليدلَّ على انتمائه إلى شعب الله. أمّا «الختن» فهو العريس، ممّا يعني أنَّ الختانة في الشرق كانت استعدادًا للزواج. ونحن لا ننسى لقاء إبراهيم «بالله» من خلال الزوّار الثلاثة (ف ١٨) الذين يَعدون سارة بولد. وفي ف ٢٢، أراد إبراهيم أن يقدِّم «بكره» إسحق ذبيحة، فمنعه الله وأفهم الشعب أنَّ ذبائح الحيوان تحلُّ محلَّ الذبائح البشريَّة.

فتَّت الصليبيّ النصوص واخترع الآلهة بحيث نضيع ولا نعرف لماذا نقرأ التوراة. ونتساءل: هل نقرأ كتاب هذا «المؤرِّخ» الذي يذرّ الرماد في العيون، قبل أن نقرأ الكتاب المقدَّس!

ونتساءل عن عنوان الكتاب: خفايا التوراة. أهذه هي الخفايا التي نعرفها فتتحوَّل حياتنا؟ وكيف استطاع أن يدخلنا في هذه «الخفايا» ليجعلنا نتيه في مناطق من الجزيرة العربيَّة ولا نعود نعرف أن نرجع منها إلى بلادنا.

هـ - يوسف في أرض مصرايم

يبدأ هذا الفصل بخارطة طريق ليوسف، لا تنطلق من حبرون إلى مصر، كما يقول سفر التكوين (ف ٣٧)، بل من خربان إلى ظهران الجنوب، بمحاذاة البحر الأحمر. وبرَّر الصليبيّ الخارطة باهتمام المصريِّين باليمن. ولكن ما يقوله تاريخ الملك الرعاة، وكلّ النصوص المكتوبة هنا وهناك، كل هذا ليس بشيء. ذاك هو «الجديد» الذي يقدِّمها أستاذنا الكبير الذي لم يكتشفه أحد بين دارسي التوراة. ثمَّ أطلَّت لائحة بآلهة مصر تدلّ على طول باع هذا الأستاذ بالحضارة المصريَّة ولغتها.

قصَّة يوسف هي قصَّة تقويَّة دُوِّنت في زمن متأخِّر ومغزاها: الله يُخرج الخير من الشرّ، ويعلِّم يوسف كيف يغفر لإخوته الذين باعوه. فيوسف مرَّ في أكثر من محنة. ولكنَّ الله الذي كان معه، نجَّاه من كلِّ شرّ وأعطاه أعلى مرتبة في مصر بعد فرعون. هو يعيش وسط عالم وثنيّ، ولكنَّه يرفض أن يخطأ لله، مهما كانت غواية امرأة فوطيفار. وعُرف بصدقه واستقامته، فتسلَّم أمور فوطيفار ثمَّ أمور السجن بانتظار أن يتسلَّم أمور مصر كلِّها.

يروي الصليبيّ الخبر، ثمَّ يأخذنا لكي نتعلَّم الجغرافيا (ص ١٥٩). «قصَّة يوسف ترتبط، بأرض عسير، وليس بأرض فلسطين ومصر ووادي النيل» (ص ١٦٢). ذاك ما افترضه الصليبيّ قبل أن يتيقَّن منه، مع أنَّ لا شيء قادنا من الافتراض إلى اليقين. مثلاً، مصرايم هي المصرمة التي كانت قاعدة المستعمرة المصريَّة بوادي بيشة. وهكذا ندور وندور لنصل إلى نقطة انطلاق كلّ وحي وحضارة برفقة أستاذنا الكبير.

وينبغي أن نميِّز بين يوسف بن يعقوب ويوسف بن إسرائيل (ص ١٦٤). ينطلق الكاتب من القصَّة فيرى «بوضوح»، تاريخيَّةَ هذه القصَّة. نحن هنا في إطار أصوليّ. وكيف تأكَّد الصليبيّ من تاريخيَّة القصَّة؟ هل وصلت إليه وثائق معاصرة لخبر يوسف بن يعقوب أو يوسف بن إسرائيل؟ ثمَّ، هل يعرف متى وُجد يوسف ومتى جاء إلى مصر، بل إلى مصرمة؟

ولماذا التمييز بين يعقوب وإسرائيل؟ لأنَّ إسرائيل، في نظر الصليبيّ هو الجدُّ الأعلى المفترض لقبيلة من العبرانيِّين بتهامة عسير (ص ١٦٥). هناك كان بنو إسرائيل. وحصلت مجاعة فنزلوا إلى وادي جيشة وهي التابعة لمصرايم.

وتألَّفت قبيلة يوسف (ص ١٦٦) من فرعين: فرع منسَّى وفرع أفرايم. ومن قبائل الحجاز اليوم قبيلة «بنو يوسف».

نقرأ في ص ١٦٨: «نجحنا حتَّى الآن، على الأقلّ مبدئيًّا، في فصل الأسطورة في قصَّة يوسف عن الناحية التاريخيَّة منها». وكيف نجح أستاذنا؟ تكلَّم عن إله من آلهة العرب اسمه «أساف». أمّا يعقوب فهو «إله النسل الصالح» (ص ١٦٩).

وأعفيكم من أسماء وردت في اللغة المصرية، التي هي لغة حامية لا سامية، الاله أوزيريس صار: أل يسير أي «الاله يسير». الالاهة أيزيس صارت إلياسة والاله فتاح صار الفاتح والاله أمون، صار أل يماني (ص ١٥٥).

و – الأراميّ التافه

نقطة الانطلاق في سفر التثنية الذي أورد صلاة المؤمن الآتي ليقدِّم بواكير القطاف والغلال: «كان أبي أراميًا تائهًا، فانحدر إلى مصر وتغرَّب هناك في نفر قليل، فصار هناك أمَّة كبيرة وعظيمة وكثيرة» (تث ٢٦: ٥).

ص ١٨٧. «لاحظنا من تحليلنا لمسألة أبرام أنَّ بني إسرائيل التوراتيّين لم يكونوا في الأصل شعبًا واحدًا، بل مجموعة من عناصر قبليَّة لكلٍّ منها "أبرامها" أي جدُّها الأعلى الخاصّ، وموطنها الأصليّ الخاصّ، وعبادتها الخاصَّة».

أوَّلاً: العنصر العبرانيّ. جدُّه الأعلى أبرام العبرانيّ الذي كان موطنه بأرض كنعان، أي بتهامة عسير... جدّ أسطوريّ اسمه إسرائيل.

ثانيًا، العنصر الأراميّ. منطقة المدينة من الحجاز، ومن هناك ارتحل مع ذويه جنوبًا إلى منطقة الطائف حيث تحوَّل من الوثنيَّة إلى عبادة الإله الواحد (ص ١٨٨). ويتواصل الخبر الأسطوريّ مع تلاعب على الأسماء والألفاظ لكي تصبح الأماكن كلها في الحجاز (ص ١٩٦). وينتهي هذا الفصل: «إنَّ بني يهوذا، من بني يعقوب الأراميِّين، كانوا في الأصل قبيلة حجازيَّة...» (ص ٢٠٧).

ما هذه البلاد المباركة!

ز – ماذا عن موسى؟

أقام بنو إسرائيل العبرانيُّون بأرض مصرايم بوادي بيشه، مدَّة ٤٣٠ سنة (ص ٢١١) ويُدرَس تاريخ خروج بني إسرائيل... وشخصيَّة موسى «التاريخيَّة». معنى اسمه: المنقذ، المخلِّص... هناك شخصان اسمهما موسى، وشخصان اسمهما هارون... وصولاً إلى بلاد التيه... وبالرغم من كلّ «الدروس» الجغرافيَّة لبث دور موسى هو هو في رفقة الشعب العبرانيّ.

قال الصليبي: «وليس هناك، كذلك، ما يستوجب أي شك بأن موسى الذي أخرج بني اسرائيل من أرض مصرايم، وتاه بهم في البراري حتى أوصلهم إلى مشارف أرض كنعان بجنوب الحجاز، كان في الواقع شخصيّة تاريخيّة. ويمكننا استخلاص معلومات تاريخيّة هامّة عن موسى التاريخي هذا عن طريق استقراء ما ورد عنه في سفر الخروج وسفر العدد ناهيك عن سفر التثنية» (ص ٢١٣) ويحدّثنا هذا «الأخصائي» في الكتب المقدسة عن «أسفار توراتيّة مركبة» ويتابع: «وفي هذين السفرين تختلط شخصية موسى التاريخي بشخصيات أخرى وتسمى موسى» (ص ٢١٤).

هل عرف الكاتب أن موسى تصغير «رع مسيس» أو خادم الاله رع؟ تربّى في بلاط الفرعون بعد أن أتت به أختُ فرعون إلى البلاط وتبنّته. أو هو مصري أساسًا، وهل عرف، أبعد من التاريخ والجغرافيا، أنّ اسم موسى لا يظهر في أية وثيقة خارجًا عن الكتاب المقدس. ما توخّته التوراة هو المعنى الروحي: سيرة «رعاع» من العبودية إلى العبادة، لكي يصبحوا «شعباً لله» حول جبل سيناء. غير أن هذا الشعب لبث متعلّقًا بمصر وخيراتها، فمات في البرية، ودخل أرض الموعد، الجيلُ الجديد الذي وُلد في البرية. الفكرة روحية مع الرقم أربعين الذي يرمز إلى المحنة ثم إلى رؤية وجه الله وخيرة الخلاص.

ونقرأ سفر الخروج. الفصل السادس:

٢٠ وأخذ عمرام يوكابد عمته زوجة له. فولدت له هارون وموسى...

٢٦: هذان هما هارون وموسى اللذان قال الرب لهما: «أخرجا بني اسرائيل من أرض مصر....

٢٧ هما اللذان كلّما فرعون ملك مصر في إخراج بني اسرائيل من مصر، موسى وهارون هذان.

قرأ الصليبي «ع م ر م» كما في العبرية. لا بأس. ثم قرأ «م ص ر ا ي م» صيغة المثنى للفظ «مصر» لأن الفرعون كان يُعتبر ملك الجنوب وملك الشمال، بحيث يكون تاجه تاجين. وأخيراً، جعل في العبرية: هدء موشه وهرون أي: هذان موسى وهارون.

عرف الصليبي ما يقوله العلماء عن ارتباط اسم موسى بالفرعون رعمسيس، ولكنه اتخذ طريقًا أخرى. قال: «جاءت الاسطورة لتجعل هذا الشعب من هؤلاء الابرامات: المختلفين «أبراما» أو «جداً أحلى واحدًا» (٢١٦). إذا أحببتم المطالعة فعودوا إلى هذه الدراسة الفريدة التي اسمها «خفايا التوراة وأسرار شعب اسرائيل».

ح – شهادة بلعام

البداية مع الأصول الوثنيّة للديانة اليهوديّة: أمّا التوراة فرأت في بلعام نبيًّا وثنيًّا يخضع لله ولا يقول سوى ما يقوله له الله. أتى به الملك بالاق ليَلعن بني إسرائيل، فإذا هو يمتدحهم ويباركهم. وما يقوله الصليبيّ يجعلنا في عالم آخر، بحيث خسرنا فيه المعنى اللاهوتيّ لهذا الحدث في سفر العدد.

ثمّ بدايات شعب إسرائيل. انطلقوا من الجزيرة العربيّة قبل أن يصلوا إلى فلسطين. وفي النهاية، سفر يونان: هو يونان بن أمتاي (٢ مل ١٤: ٢٥). أرسله الله إلى نينوى ليدعوها إلى التوبة. هي قصّة تقويّة تبيِّن أنّ الله رحيم، وهو يرسل أنبياءه ليدعوا الوثنيّين أيضًا للعودة إليه والندامة على خطاياهم في الصوم والصلاة. ولكن توقّف الصليبيّ عند موقع ترشيش. يقول التقليد: هي في إسبانيا. ممّا يعني أنّ العاصفة التي هبّت على يونان كانت في البحر المتوسّط، وهو الذي انطلق من يافا باتّجاه الغرب، بدل الانطلاق إلى الشرق. وهكذا عارض هذا النبيّ كلَّ المعارضة نداء الله. أما في نظره، فيونان انطلق من «عمان» على المحيط الهنديّ ليجد نفسه على شاطئ الجزيرة العربيّة في شرتيتي.

ماذا نستخلص من قراءة هذا الكتاب الذي انطلق من «آدم» أبي البشريّة، ومن «حوّاء» أمّ كلّ حيّ، فجعلهما إلهين قبل أن يصيرا بشرَين. نحن هنا عكس ما يحصل في الميتولوجيا اليونانيّة، حيث البشر يصيرون آلهة. أمّا عند الصليبيّ، فالآلهة ينزلون عن عروشهم ويصيرون بشرًا، وهكذا ينزل القارئ، مع هذا المؤرِّخ، من الغيوم ليضع رجليه على الأرض. وأيُّ أرض؟ كلّ شيء بدأ في الجزيرة العربيّة. هناك محطّ آمال الصليبيّ. ومن هناك انطلق كلّ وحي وكلّ حضارة وكلّ تنظيم قبَلي. من أين جاء بهذه المعلومات؟ هي فرضيّات ما تعتّم أن تصبح يقينات في فكر هذا الأستاذ الكبير الذي رُفع إلى السحاب في تحليله للنصوص العبريّة، وكأنّه أوّل من قرأ أسفار التوراة واكتشف خفاياها.

الفصل السابع

من آدم إلى ابراهيم

هي قراءة ثانية، تتوقّف فقط عند أربعة مواضيع مع خاتمة

أ – قصة الانسان الأول

ب – قصة قايين وهابيل

ج – ماذا عن نوح والطوفان

د – ابرام، ابراهيم

هـ – الخاتمة

أ – قصّة الإنسان الأوّل

بداية نقرأ ما كتبه الصليبيّ في هذا المجال (ص ٢٦–٣٤) في إطار من الميتولوجيا أو الأساطير، حيث الآلهة العديدون يتشاركون مع البشر. فهم تزوَّجوا بنات الناس وأنجبوا منهم قبائل خاصّة من النوافل (هـ – نفيليم) والجبابرة (هـ–جبوريم)». (ص ٢٩)

ونبدأ الكلام عن «جنَّة عدن». هي «واحة الجنينة»، بأسفل وادي بيشة، إلى الشرق من سراة عسير (ص ٢٦). هذا أمر اعتدنا عليه في كلّ دراسة العهد القديم مع كمال الصليبيّ. في هذه «الجنينة» شخصيَّات عديدة، أوّلهم «يهوه» الذي هو غير الآلهة: هو أرفع منهم، ولم يتزوَّج كما تزوَّجوا. هو غرسَ الجنَّة، خلق الإنسان ووضعه فيها، وخلق «الحنش» أي الحيَّة، الذي سيكون إلهًا مساعدًا لإله المعرفة – هـ – دعه. ويهوه هذا خلق الإنسان فأراد أن يعتدي على إله المعرفة وإله الحياة (هـ – حييم).

وجد الصليبيّ ما يقابل هذه الأسماء في السراة: يهوه: ال – هيه. المعرفة – هـ دعه: آل دعية. الحياة: هـ – حييم: ال حيوت. «خُلق الإنسان ترابًا من الأرض». ها. أدمه: هي وادي أدمة. من روافد وادي بيشة. وهكذا يكون الإنسان من موطن اسمه: وادي أدمة. بالنسبة إلى الحيَّة – هـ. حنش: قرية الحماءل– حنشيّة. والمرأة التي هي الضلع (ص ل ع، في العبريَّة): آل سلعه.

الشجرتان في جنَّة عدن هما إلهان قديمان يقفان في وجه يهوه. إله المعرفة يساعده حنش الذي هو «إله الحكمة والدراية». وإله الحياة تساعده المرأة التي هي أمُّ كلِّ حيّ. هي إلاهة الأمومة. الربُّ طرد الرجل من الجنَّة وحده. وبقيت المرأة التي صارت إلاهة. وهو لم يطرد «الحنش» أو الحيَّة. ويبقى الكروبيم الذين هم «الكهنة». وأخيرًا «لهيب السيف: إله ثانويّ تابع ليهوه. في العبريَّة، اللهيب هو «ل هـ ط» قرية أبو هتل. وما قاله عن الكروبيم: «الواضح أنَّ مهمَّة الكهنة، في الأصل، لم تكن مساعدة الإنسان على اكتناه أسرار الآلهة

والوصول إلى الحياة الأبديَّة، بل لمنعه من ذلك وإبقائه على وضاعة حاله» (ص ٣٣). أمّا قصاص المرأة، وإن هي إلاهة، فإخضاعها للرجل. والحنش تحوَّل إلى حيَّة تسعى على بطنها وتأكل التراب (ص ٣٣، تك ٣: ١٤–١٦). ذاك ما يقول الصليبيّ في خبر خلق الإنسان.

* * *

ونحن، ماذا نقول حين نقرأ سفر التكوين (ف ٢–٣)؟ أهذا هو كلام الله كما نقرُّ به نحن المسيحيّين؟ وما الإفادة عند ذاك من هذا الخبر الذي تناقلته الأجيال، وتُرجم حتّى الآن إلى ألفين ومئتي لغة؟ نحن أمام درس لاهوتيّ، لا أمام تاريخ. وخصوصًا، لا أمام أسطورة وُلدَت لدى الشعب. كاتب النصّ هو الروح القدس. أو نؤمن بهذه الحقيقة أو لا نتكلَّم عن الكتاب المقدَّس. ومعه إنسان ندعوه «الكاتب الملهم».

جنَّة عدن ليست مكانًا، بل هي حالة من السعادة، وسوف تقابلها حالة من الشقاء حيث يكون «الشوك والعوسج» (تك ٣: ١٨). والإنسان؟ يُدفَن في التراب. إذًا هو مأخوذ من التراب. هذا ما يدلُّ على وضاعته. أمّا عظمته فحين «نفخ الربُّ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حيَّة» (تك ٢: ٧). والإنسان–الرجل لا يكون وحده، فتكون له المرأة التي هي مثله مخلوقة على صورة الله ومثاله (تك ١: ٢٦). كانت المرأة تُشرى وتُباع مثل «الحيوانات التي مرَّت أمام آدم فيعطيها اسمًا». ولكن، لمّا أتت المرأة قال آدم: «هذه الآن». فكلُّ الخلائق التي سبقتها لم تكن على مستوى الرجل. الآن، هي «عظم من عظامي ولحمٌ من لحمي» (تك ٢: ٢٣). قال الكتاب: «أخذ الربُّ ضلعًا» من أضلاع الرجل. والمعنى كما قال التلمود: لم يأخذ عظمًا من رجله لئلاّ تكون المرأة خادمته، ولا من رأسه لئلاّ يكون خادمها، بل من عند قلبه لتكون متساوية له ويجمع الحبُّ بينهما». وعندئذ يتمُّ الزواج: «يترك الرجل أباه وأمَّه ويلتصق بامرأته فيكون الاثنان جسدًا واحدًا» (آ ٢٤). الاثنان جسد واحد. لا الرجل

وعدد من النساء. بل رجل واحد وامرأة واحدة فيكونان معًا صورة الله على الأرض.

ولماذا قال الكتاب: «شجرة» في الكلام عن «المعرفة» وعن «الحياة»؟ لأنَّ الناس اعتادوا الصلاة قرب شجرة تعطي الفيء وعين ماء من أجل الاغتسال. هكذا استقبل إبراهيم الرجال الثلاثة: عند سنديانة ممرا (تك ١٨)، وعرض عليهم الماء ليغتسلوا. وعند المعابد الفينيقيَّة كانت شجرة السنديان. وانتقلت العادة إلى الكنائس في الجبل اللبنانيّ. فشجرة المعرفة تُفهم الإنسان أنَّه لا يقرِّر ما هو خير وما هو شرّ. إذا أراد الإنسان أن يكون سعيدًا يبتعد، وإلاَّ يكون شقيًّا، تعيسًا. لهذا طلب الملك سليمان من الله، في بداية عهده: «أعط عبدك قلبًا فهيمًا... لأميِّز بين الخير والشرّ». أمّا شجرة الحياة، فترمز إلى ملء عطاء الله. ولماذا أربعة أنهار في هذه الجنَّة؟ لأنَ المياه علامة بركة الله في أقطارها الأربعة.

* * *

هذا في الفصل الثاني من سفر التكوين: الرجل والمرأة معًا. في الجنَّة. في الفردوس. ما أراد الكاتب الملهم أن يقول، هو أنَّ الله خلق الإنسان في سعادة. هو أسرة فيها الرجل والمرأة بانتظار الأولاد. ولكنَّ الواقع الذي نعرف يقول: إنَّ الإنسان تعيس: الرجل يأكل خبزه بعرق جبينه. والمرأة تحبل في الأوجاع وتخضع لزوجها. ما الذي بدَّل هذه الحالة؟ الخطيئة على ما سيقول بولس الرسول: «بإنسان واحد دخلت الخطيئة إلى العالم وبالخطيئة الموت، وهكذا عمَّ الموت جميعَ الناس لأنَّهم جميعَهم خطئوا» (رو ٥: ١٢).

سبب الشرِّ من خارج الإنسان. **الحيَّة**. ترمز إلى الموت وسوف نعرف من تمثَّل في سفر الرؤيا (١٢: ٩): «الحيَّة القديمة، إبليس والشيطان». هي من يضع الحواجز بيننا وبين الله. الحيَّة رمز. وكذلك الأكل من الشجرة التي ليست تفّاحة ولا ثمرة أخرى. سمع الإنسان من الحيَّة فراح في خطِّ الشرِّ وبالتالي اختار الشقاء. وهكذا ابتعد عن الحياة. هذا الخبر يعطينا سبب الشقاء الذي

يعيشه الإنسان. حسبَ الإنسان أنَّه صار الله حين ثار على الله، فإذا هو في رفقة الشرّ. اعتبر نفسه ذا دراية وفهم، فإذا هو عريان من كلِّ شيء ويحتاج أن يخفي عريه. وأراد أن يختبئ من الله، ذاك الإله الذي راح يبحث عنه فأمَّن له لباسًا من جلد الحيوان. أمّا الموت الذي اختاره فلم يحصل لأنَّ الربَّ لا يريد موت الخاطئ، بل أن يرجع عن خطيئته ويحيا. وذاك ما يقول التقليد عن آدم وحوّاء. وأوّل بركة نالاها: الأولاد.

أترك القارئ أن يحكم: أيدخل في معارج الأساطير والميتولوجيا على مثال ما نعرف في العالم اليونانيّ، أم يترك الروح يقوده؟ هو الذي كتب الكتاب وهو من يشرحه ويعلّمنا كما علّم الرسل بعد صعود يسوع إلى السماء.

* * *

ب – قصّة قايين وهابيل

وننتقل مع الصليبيّ من خرافة إلى خرافة، ومن أسطورة إلى أسطورة. قايين هو أبو قبيلة القينيّين (تك ١٥: ١٩). أمّا هابيل فهو الإله «هبل» الذي عرفته الجزيرة العربيَّة حتّى الإسلام. وهو يرتبط بقرية تحمل اسمه في وادي بيشة. مضى قايين إلى «نود». هي قرية «ألنودة» (ص ٣٨). ويواصل «الباحث» فيرى في أسماء العلم «المتفرّعة» من آدم ومن قايين، أسماء أماكن، وكلُّها في جهات اليمن وغيرها من الجزيرة العربيَّة.

قصَّة قايين وهابيل هي قصَّة الخلاف بين الرعاة والفلاَّحين. هو العالم القديم الذي يعيش فيه الناس بين المراعي فيقدِّمون لله من مواشيهم، والأراضي المزروعة حيث يقدِّمون من ثمار الأرض. ونكتشف أوَّل رجل يأخذ امرأتين: لامك (تك ٤: ٢٣). واحدة اسمها عادة والثانية صلَّة. كما نكتشف الانتقام إلى آخر حدود الانتقام: لا سبع (عدد الكمال) مرّات، بل سبعًا وسبعين مرَّة (آ٢٤). وما نلاحظ هو أنَّ الربَّ لا يريد الانتقام وأخذ الثأر بين البشر. وهكذا منع «قبيلة» هابيل من الانتقام من قايين. وضع له علامة ومنع أحدًا من أن يقتله.

إلى هذا الحدِّ من الشرِّ وصل الإنسان. الأخ يقتل أخاه، حسدًا. والرجل يقتل شابًّا جرحه ويسحق فتى خدَشَه. ففي نسل قايين الاختراعات وأوَّلها العمل في المعادن من أجل صناعة الأسلحة.

في أساس الخبر، قايين. ووُضع تجاهه هابيل الذي هو أخوه. أمّا لفظ «هـ ب ل» العبريّ فيعني الضعيف، الذي لا يقدر أن يدافع عن نفسه، وفي النهاية، ذاك الذي لا نفع منه في شغل الأرض، فيُرسَل وراء الغنم. هذا ما يبيِّن شناعة قايين. اعتبر أنَّ الله لا يراه إن هو مضى إلى البرِّيَّة. ولكنَّ الربَّ نبَّهه قبل أن يقع في الخطيئة ثمَّ وبَّخه. وما نلاحظ هو أنَّ الله لا يلعن الإنسان، بل يلعن الأرض التي ترتدّ وتصيب الإنسان. فقال لقايين: «ملعون من الأرض... لا تعود تعطيك قوتها» (تك ٤: ١١-١٢).

وينهي الصليبيّ القصّة: «من هذا التحليل الجغرافيّ لأسطورة قايين وذرّيّته... يتّضح تمامًا أنَّ المقصود تفسير علامة النسب بين قبائل شعب القين في المناطق المختلفة من شبه الجزيرة العربيّة...» (ص ٤١). ونقرأ في ص ٤٣: «أمّا شخصيّة آدم في هذه الأسطورة، فهي ترمز بلا شكّ إلى منطقة جبل آدم باليمن إلى الجنوب من صنعاء». أنشودة صارت معروفة تتكرّر في كل كتابات الصليبيّ. وهو متأكّد تمامًا من كلّ اكتشفه، ولا يشكّ في ذلك. هكذا تضيع فلسطين القديمة، ومعها لبنان. وتذوب المنطقة كلّها بما فيها دمشق في إيديولوجيا لا تخفى على أحد.

ج – ماذا عن نوح والطوفان؟

تساءل الناس عن هذه الأعمار التي تعدّت التسع مئة سنة. ولكن ما من عمر وصل إلى الألف. فهذا الرقم يدلّ على الأزل ولا يكون إلاّ لله. في بلاد الرافدين وصلت أعمار الملوك إلى عشرات آلاف السنين. لا في الكتاب المقدّس. فالانسان كان يعيش في تلك الحقبة خمسين أو ستين سنة. وقليلون يصلون إلى سبعين أو ثمانين سنة (مز ٩٠: ١٠). أما هنا فنجد عمر القبيلة، لا عمر إنسان من الناس. ما دامت القبيلة حيّة يُعتبَر أبوها حيًّا.

والأخبار في هذه الفصول، تنطلق من الواقع: المرأة والرجل. الحضر والوبر. وتنطلق من أخبار قديمة: الصراع بين القبائل. أمّا قايين فهو رئيس قبيلة أقامت في أرض يهوذا. نحن لا نتوقّف عند التاريخ ولا عند الجغرافيا، كما لا نعود إلى الأساطير والميتولوجيّات، فنترك هذا «للباحثين» ولأصحاب المخيّلة: ما علاقة الرجل بالمرأة؟ هل هي خادمة، عبدة؟ هل يستطيع أن يُكثر من النساء على مثال داود وسليمان وملوك آخرين؟ هل يشتري المرأة كما يشتري الثورَ والحمار؟ فقد أمر: «لا تشته بيت قريبك، لا تشته امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئًا يملكه قريبك» (خر ٢٠: ١٧). المرأة «شيء» نشتريه، نستغني عنه، نكثّر منه قدر ما نشاء. ويمكن أن تكون في خدمة أكثر من رجل. لهذا دُوِّنت «قصّة خلق الإنسان». نكتشف التعليم الذي لم يصل إلينا بعد في العالم العربيّ: احترام المرأة المساوية للرجل. فالشعب اليهوديّ لم يصل إلى هذا المستوى، فقال بولس الرسول: العبد والحرّ هما متساويان. الرجل والمرأة متساويان، لا فرق بين الاثنين في نظر الله.

ونلاحظ غياب المرأة. لا يُحسَب لها حساب. من هي امرأة قايين؟ لا نعرف. امرأة جميع الرجال المذكورين؟ لا يُقال لنا شيء. ذُكرت امرأتا لامك فقط في معرض تعدّد الزوجات. وسوف ننتظر مسيرة الايمان لنعرف أنَّ سارة اسم امرأة إبراهيم، ورفقة اسم امرأة إسحق. هو وحده اكتفى بامرأة واحدة.

مع سارة كانت هاجر لإبراهيم. وبالنسبة إلى يعقوب: امرأتان، ليئة وراحيل، ثمَّ أمَّتان، زلفة وبلهة. وهكذا كان له الكثير من الأولاد. يا ليتنا اليوم نقرأ هذه الفصول ونتعلَّم ما هي إرادة الله في الإنسان المخلوق على صورة الله: «فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه، ذكرًا وأنثى خلقهم. وباركهم الله» (تك ١: ٢٧). المرأة على صورة الله، والرجل على صورة الله. هذا نال البركة، وهي نالت البركة. ذاك ما يجب أن يستنتجه القارئ المؤمن. والباقي يأخذنا في متاهات ويبعدنا عن الجوهر. وهكذا نخسر الفائدة التي أرادها الله لنا.

ونعود إلى نوح. الخبر آتٍ من بلاد الرافدين حيث المياه عنصر الشرّ والموت. خبر يعود إلى السومريِّين والأكاديِّين. لم يستنبطه الكاتب الملهم، كما لم يستلهم خبر قايين وهابيل. في أيِّ حال، عُرف خبرُ الطوفان في حضارات عديدة. لم يعرفها الكاتب الملهم لأنّ أفقه محدود بشريًّا. يقول الخبر السومري: كثر البشر وضايقوا الآلهة، فأرادوا التخلّص منهم. وبعد محاولات، كان الطوفان الذي قضى على الجميع وما أفلت سوى أوتونفستيم الذي صار في دنيا الخلود.

عاد الكتاب المقدَّس إلى الخبر. الذي نجا من الطوفان هو نوح مع أولاده الثلاثة الموزَّعين في القارَّات الثلاث المعروفة في ذلك الزمان: سام في آسيا، حام في أفريقيا، يافث في أوروبّا. هكذا عُرفت البشريَّة في القرن الخامس ق.م. كما الشعوب.

لماذا كان الطوفان؟ بسبب شرِّ البشر. امتزج نسل شيت، أبناء الله العائشون بحسب وصاياه والمتعبِّدون له (مع «أنوش» أي الإنسان، «معه كان الدعاء لاسم الربّ، تك ٤: ٢٦)، مع نسل قايين. وهكذا كان الملوك «الجبابرة» مثل الأشوريِّين والبابليِّين، فملأوا الأرض شرًّا وموتًا ودمارًا. فالكاتب الملهم ينطلق دومًا من الواقع الذي يعيش فيه ويُسقط عليه وحيَ الله. لماذا الحروب؟ لماذا اجتياح البلدان؟ فالربُّ قسم الأرض، كما سيفعل موسى وبعده يشوع بالنسبة

إلى القبائل. «رأى الربُّ أنَّ كلَّ تصوُّر قلب الإنسان هو شرِّير، كلَّ يوم» (تك ٦: ٥). ونلاحظ «كلَّ يوم». ما من يوم إلاّ ويتحرَّك الشرُّ في القلب. ونقرأ عبارة رائعة تدلُّ على أنَّ الله هو أب وأمّ: «فحزن الربُّ لأنَّه عمل الإنسان في الأرض، وتأسَّف في قلبه» (آ٦). هو يتألَّم لأنَّ أولاده يتقاتلون، لأنَّهم يدمِّرون، يتلفون... لا يتركون وراءهم سوى الموت والنار والدمار.

شخصان في هذه القصَّة: الربُّ الإله ونوح. لماذا الطوفان؟ لا لأنَّ الربَّ تعبَ من الإنسان، بل ليُقتلَع الشرُّ من الأرض. كلُّ البشر أشرار، إذًا كلُّهم يموتون وتبدأ خليقة جديدة. لم يعرف الكاتب الملهم أنَّ الأرض غرقت كلُّها، بل استنتج ذلك من موقعه: غمر منطقةً محدَّدة نهرُ دجلة المعتاد على الفيضان بحيث دعاه اليونان النمر Tigris. لماذا مات هؤلاء؟ لأنَّهم كانوا خطأة، ولماذا نجا واحد فقط؟ لأنَّه كان بارًّا. ففي نظر الكاتب الذي لم يعرف الحياة في الآخرة، اعتبر أنَّ الثواب يصيب الأبرار على الأرض، والعقاب يمحو أثر الأشرار.

«نوح» أراح الله: رجل بارّ، كامل. يسير مع الله. ماذا نريد أفضل من ذلك؟ فالذي يسير مع الله يكون له ما كان لأخنوخ، سابع الآباء. «سار مع الله، ثمَّ اختفى لأنَّ الله أخذه إليه» (تك ٥: ٢٤). لم يصبه ما يصيب البشر. هكذا يكون الخلود. لا بمعزل عن الله، ولكن بعمل مباشر من قبل الله.

لا يستطيع الخاطئ أن يهرب من الله ومن العقاب المرتبط بخطيئته. اختبأ آدم بين الأشجار. فسأله الله: أين أنت؟ هو الأب يبحث عن أولاده. وحاول قايين أن يهرب إلى «نود»، ذاك المكان اللامعروف والذي يجعل قايين مشرَّدًا، تائهًا. قال: «من وجهك أختفي، وأكون تائهًا وهاربًا في الأرض» (تك ٤: ١٤). تلك هي حال القاتل لأنَّ أهل المقتول يلاحقونه.

وإن صعد الناس إلى أعلى جبل في المنطقة «أراراط»» الذي يعلو ٥١٥٧

مترًا فوق سطح البحر، يكون الله هناك. فإنَّ «فُلك» نوح وصل إلى هناك. والفلك يدلُّ على حضور الله ولهذا دُعيَ في العبريَّة: «ت ب ت» في إشارة إلى تابوت العهد الذي يحوي لوحي الوصايا وجرَّة المنّ وعصا هارون. وكم نبتسم حين نعرف أنَّ فريقًا مضى إلى هذا الجبل العالي ليرى بقايا الفلك. فهل كان هناكَ من فلك؟ ولنفترض أنَّ فلك نوح وصل إلى هناك، فماذا يكون حصل له بعد آلاف وآلاف السنين.

وبعد الطوفان، كان عهد بين الله ونوح، انطلقت البشريَّة كما كانت منطلقة مع آدم. قال الكتاب: «وبارك الله نوحًا وبنيه، وقال لهم: "أثمروا واكثروا واملأوا الأرض"» (تك ٩: ١). بدا الطوفان وكأنَّه حرب على الإنسان. فجاء الرمز: قوس قزح. القوس هو سلاح قاتل. أمّا الله فجعل «قوسه» في السحاب علامة السلام. امتزج الصيف بالشتاء وضاع الزرع والضرع، أمّا الآن «فالزرع والحصاد، والبرد والحرّ، والصيف والشتاء، والنهار والليل...» (تك ٨: ٢٧). عاد النظام إلى الكون بعد فوضى الطوفان.

* * *

هكذا نقرأ الكتاب المقدَّس. عشرات آلاف الباحثين في هذه الأيّام، ولا نذكر الذين سبقونا. أمّا الصليبيّ فأخذنا إلى الجزيرة العربيَّة كعادته. قال: «السيول الجارفة في بلاد اليمن... ظاهرة مألوفة تاريخيًّا وحاليًّا. وكثيرًا ما يسبِّب حدوثها نزوحًا للسكّان من المناطق المنكوبة إلى أماكن آمنة... (ص ٥٣).

وننطلق مع هذا الباحث في تفسير الأسماء. صُنع الفلك من «خشب جفر» (تك ٦: ١٤). أو: «شجر جفر». أين نجد «جفر»؟ موقع في المرتفعات الشماليَّة الشرقيَّة لليمن حيث يبتدئ سيل وادي نجران، والموقع هذا ما زال معروفًا إلى اليوم باسم جفر» (ص ٥٤).

قال الصليبيّ: انتقلت قبيلة نوح من اليمن إلى الحجاز بسبب كارثة الطوفان التي حلَّت بها في موطنها الأوَّل، بل إنَّ في القصَّة نفسها معاني دينيَّة خفيَّة تتعلق بأنواع مختلفة من العبادات التي كانت رائجة في شبه الجزيرة العربيَّة في الأزمنة المنسيَّة من تاريخها» (ص ٥٩).

«الربُّ يهوه». يُطلَق اسمه على قرى في الجزيرة العربيَّة.

«نوح» هو اسم إله على شكل «آل نبيح» أي إله الاستقرار.

«الفلك» «ت ب ه» أو («ت ب ت»). يرمز إلى قرية الطابه (طبه) بشمال نجد. هي إشارة خفيَّة إلى إله اسمه «أل تابت». ما زالت تحمل اسمه ثلاث قرى في مرتفعات عسير.

«البشر» أو «ذو جسد» (ب س ر). هناك إله اسمه بشر وُجد على نقش يمنيّ قديم. ويبدو أنَّ الإله هذا كانت له قرية اسمها بشرت، وقد نُقش اسمها على صورة صخريَّة لبقرة وُجدت مؤخَّرًا في عسير، بناحية أبها» (ص ٦٢-٦٣).

«قوس قزح». الإله «قوس» أو «قيس» من أكثر الآلهة في الجزيرة العربيَّة شهرة في القدم، ويبدو أنَّ عبادته هناك، ولم تنتهِ إلاَّ بمجيء الإسلام». في العبريَّة: ق ش ت.

«السحاب» («ع ن ن» في العبريَّة). «هناك قرية اسمها عنان، باليمامة، في جوار قرية آل قيس، بالمنطقة التي فيها أُراط. ويبدو أنَّ القدماء في جزيرة العرب كانوا يعبدون إلهًا للسحاب» (ص ٦٤).

شكرًا لهذه المعلومات الآتية من الجزيرة العربيَّة. ولكن ما علاقة كلُّ هذا بالكتاب المقدَّس وبهذه الفصول التي دُوِّنت في اللغة العبريَّة، في القرن الخامس ق.م. تقريبًا؟ وإذا كان كلُّ هذا الغنى في العالم العربيّ، فلماذا جاء نصُّ الطوفان في لغات أخرى؟ وفي أيِّ حال، بعد قراءة هذه التحاليل، ننتهي إلى «طبخة بحص» لا تفيدنا بشيء، لاسيَّما وأنَّ كلَّ شيء آتٍ من عالم الخيال مع لفظ «يبدو» وأسماء قرى لم يعرفها التاريخ.

أمّا نوح الذي نجا من الطوفان فسيكون له أن يخطأ وبالتالي يموت، شأنه شأن جميع البشر. سكر وتعرّى (تك ٩: ٢٠ي). وفي النهاية لعن ابنه وكأنّه أراد أن يمنع عنه بركة يعطيها الله.

وننهي «مسألة نوح» بهذه الخلاصة من الدكتور الصليبي: «كانت عبادة الربّ يهوه، في البداية، منتشرة بين شعوب شبه الجزيرة العربيّة مع عبادات تختصّ بآلهة أخرى. ومن هذه عبادة آل نبيح إله الاستقرار، وبالتالي إله الحواضر، وآل تابت إله الثوابت والتوازن والاطمئنان، وآل عنان إله السحاب، وآل قيس إله الفصول الممثّل بقوس قزح. وكانت علاقة الربّ يهوه جيّدة أصلاً مع هؤلاء الآلهة الأربعة، لكنّها كانت بالغة السوء مع إله خاصّ هو آل بشر، إله الأجساد الحيّة. ومن أسباب الخصومة بين الربّ يهوه وآل بشر أنّ الربّ يهوه كان يحبّذ أكل اللحوم، ويأنس إلى تنسّم رائحة المحرقات الحيوانيّة...» (ص ٦٥). لا حاجة لمتابعة هذه الرواية «الشيّقة» حيث يهوه ينتصر على آل بشر... هي كلُّ شيء ما عدا كلام الله. وما دمنا في العالم العربيّ نفرح بأعمال المخيّلة فنروي في مجلاّت ضخمة قصّة عنتر وفيروز شاه وغيرهما من القصص. فلا ضير إن قرأنا ما كتبه الدكتور الصليبيّ، الذي لا يستند إلى أيّة وثيقة مكتوبة ولا إلى الفرضيّات، بل إلى يقينه بأنّ الأمور يجب أن تكون هكذا. أمّا «يهوه» الذي صار يشبه «زيوس» اليوناني أو جوبيتر اللاتينيّ، فهو بعيد كلَّ البعد عن الإله الذي عبده الشعب الأوّل. قال سفر التثنية: «الربُّ إلهنا ربٌّ واحد، فتحبُّ الربَّ إلهك من كلِّ قلبك ومن كلِّ نفسك ومن كلِّ قوّتك» (٦: ٤-٥). هذا النقاء في العبادة يستبعد «الآلهة» التي هي أصنام الحجر والخشب. ثمّ، هل نجد اسمه «يهوه» في النصوص العربيّة؟ نقول مع الصليبيّ: «أتلفت» كما اعتاد الشرق العربيّ، حتّى الآن، فيحرق المكتبات والكتب.

و - أبرام، إبراهيم

خبر أبرام (الأب رفيع) إبراهيم (أبو جمع كثير) يمتدُّ على أربعة عشر فصلاً (تك ١٢-٢٥). بدّل الله له اسمه من «أبرام» إلى «إبراهيم»، لأنّه أعطاه دعوة خاصّة بأن يكون أبًا لجموع كثيرة، فتتبارك باسمه كلُّ أمم الأرض.

دعاه الربُّ وهو في أور. هي اليوم «تلّ المقيّر»، وتبعد ٩ كلم عن الفرات بعد أن انتقل مجراه القديم. تعود أصول «أور» إلى الألف السادس ق.م. ورمزها الإله القمر الذي كان الإله الأكبر في هذه المدينة خلال تاريخها. وقد ظهر حوالي سنة ٤٠٠٠ على إناء وُجد في هذه المدينة. حوالي سنة ٢٥٠٠ عُرفت أوّل سلالة ملكيّة، كما كُشفت أوّل المدافن «الملكيّة» سنة ١٩٢٧-١٩٢٩ بواسطة L. Wooley. وكنوزها ضاهت كنوز توت عنخ أمون في مصر. في ذلك الوقت، يُنشر أوّل زقورة Ziggurat، وهي المعبد المرتفع على سبع طبقات. ثمّ أعيد بناؤه كما نراه اليوم في زمن أورمانومو (٢٠٣٩-٢٠١٩ ق.م.) مؤسِّس سلالة أور الثالثة. وأورمانومو ترك لنا أقدم الشرائع الشرقيّة المعروفة إلى أيّامنا. ونحن سنجدها بعد ذلك في قانون حمورابي... (المحيط الجامع في الكتاب المقدّس والشرق القديم).

هكذا يكون أمامنا الأساس المتين لدراسة النصوص القديمة من الوجهة التاريخيّة والجغرافيّة والاجتماعيّة والدينيّة، أمّا الصليبيّ فقال: «والواقع أنَّ أور المنسوبة إلى كويم ماهي إلاّ اسم جبل أور أو أوراة (وور) المعروف أيضًا بجبل أيّار (ويمار) بالحجاز، إلى الجنوب من المدينة» (ص ١٠٣). ما هي المراجع؟ أين نقرأ مثل هذه الأسماء؟ المهمّ أن نصل إلى الحجاز مع نوح، مع أبرام أو إبراهيم، وكلّنا يعرف السبب.

انطلق ابراهيم من أور، من جنوب العراق الحديث، فوصل إلى حاران، في الشمال. موقع هذه المدينة في بلاد الرافدين العليا، وتبعد ٤٠ كلم إلى الجنوب الشرقيّ من أورفا (تركيّا، الرها القديمة). معنى اسمها في الأكاديّ: الطريق أو

القافلة. كانت محطَّة على ملتقى طرق القوافل العابرة البلاد. ذُكرت في وثائق إبلا على أنَّها موقع تجاريّ هامّ. ويعود وجود المدينة، على الأقلّ، إلى القرن ٢٤ ق.م. وكان كلام عن حاران في أرشيف مدينة ماري، على الفرات، في القرن ١٨ ق.م. كانت عندذاك عاصمة منطقة أموريَّة. وسنة ١٥٠٠، كانت جزءًا من الدولة الحوريَّة. وبعد سنة ١١٠٠ صارت مركز إقامة الآراميِّين. دخلت حاران في الإمبراطوريَّة الأشوريَّة في عهد شلمنصَّر الثالث (٨٥٨–٨٢٤ ق.م.) حتَّى نهاية الإمبراطوريَّة. سنة ٦١٠ احتلَّها البابليُّون والميداِيُّون... (المحيط الجامع في الكتاب المقدَّس والشرق القديم).

ماذا صارت هذه المدينة العريقة في نظر الصليبيّ؟ يجب أن تُنقل إلى الجزيرة العربيَّة. فموطن أبرام الآراميّ هو في الحجاز العربيّ (ص ١٠٣). ألا ترون التضارب؟ أمّا حاران فهي «خيرين (خرن) بمنطقة الطائف، على المسلك الحجازيّ المطروق بين المدينة والطائف» (ص ١٠٤). ونتابع طريق أبرام فنصل إلى شكيم التي صارت القسمَة، بسراة زهران، إلى الجنوب من منطقة الطائف (ص ١٠٤). وغابة مورة هي قرية المراوة. بيت إيل هي قرية البطيلة. والعي هي قرية العُوياء. والنجب (أو: النقب في الجنوب) صار جبل الجنب (مع أنَّ النقب هي صحراء).

أما الأبحاث الموثوق بها فتقول: مع شكيم نصل إلى فلسطين. فشكيم هي تل بلاطة، وتبعد ٢ كلم إلى الشرق من نابلس. عُرفت في المدوَّنات المصريَّة، وقد احتلَّها سيسوستريس الثالث (١٨٧٨–١٨٤٣). وذُكرت في نصوص المباهلة المصريَّة في القرن التاسع عشر ق.م. في حقبة تل العمارنة (القرن ١٤) لعبت دورًا هامًّا بفضل ملكها لبايا الذي سيطر على جبال فلسطين الوسطى.

وبيت إيل هي مدينة كنعانيَّة. تبعد ١٧ كلم إلى الشمال من أورشليم. كان اسمها «لوز». انطلاقًا من الحفريَّات عرفنا أنَّها كانت مسكونة في زمن البرونز الوسيط (٢١٠٠–١٦٠٠ ق.م.). أمّا النقب (ن ج ب) أو «المنطقة الجافَّة»، فهي صحراء واقعة في جنوب فلسطين.

هذا بالنسبة إلى المدن. لسنا في الحجاز، بل في فلسطين. وعندما تبدأ الحفريَّات في المنطقة التي يتحدَّث عنها كمال الصليبيّ، نبدِّل رأينا. ولكن حتَّى الآن، ما زلنا على مستوى «يبدو»، وسنظلّ كذلك إلى ما شاء الله.

والأهمّ من الأماكن، هو الشخص. اكتشف الصليبيّ «أبرامين»: أبرام الآراميّ «الجدّ الأعلى» لآراميِّي سراة زهران، وأبرام العبرانيّ «الجدّ الأعلى» للقبائل العبرانيَّة في منطقة القنفذة وجوارها من عسير (ص ١٤٥).

* * *

ونقرأ مع الصليبيّ الفصل الخامس عشر من سفر التكوين: وعد الربُّ أبرام (أو إبراهيم) بنسل في تك ١٢: ٢ («فأجعلك أمَّة عظيمة») كما وعده بأرض تُعطى له في تك ١٣: ١٤–١٧ («وجميع الأرض التي تراها أعطيها لك»). ولكنَّ هذا الوعد الذي أعطيَ لم يتحقَّق بعدُ. لهذا كان هذا الحوار الرائع بين الاثنين، وفيه يجدِّد الربُّ ما وعد به ويقيم عهدًا (ميثاقًا) مع إبراهيم، كما بين ملك كبير وملك صغير.

أوَّلاً، الرؤيا. اقترب الله من إبراهيم الخائف. ولكنَّ الخوف ممنوع مهما كثُر الأعداء. قال له الربّ: «أنا ترس لك». أنا أدافع عنك. ثمَّ قال الربّ: «أجرُك كثير عندي». هنا اشتكى إبراهيم: أين هو الوارث الذي تعطيني. هل يكون «إليعازر الدمشقيّ؟»

وعد الربُّ أبرام فآمن أبرام، وحُسب له إيمانه برًّا. هذا الكلام سوف يصل إلى العهد الجديد، مع بولس الرسول. هي خبرة روحيَّة رائعة. سيقول فيها العهد الجديد: «ترجَّى عكس كلِّ رجاء، آمن فصار أبا جموع كثيرة بحسب ما قيل له: هكذا يكون نسلك» (رو ٤: ١٨).

وبعد الوعد كان العهد، حيث مرَّ الله بين قطع الذبائح ليدلَّ على أنَّه يتعهَّد بأن يكون مع إبراهيم، كان ذلك عند المساء وفي بداية الليل.

أمّا الصليبيّ فوجد «لغز» في هذا النصّ (ص ١٠٥). «فأبرام ليس إنسانًا عاديًّا يتصرَّف كما يتصرَّف البشر العاديُّون، بل هو شخص تغلُب عليه صفات الكهنوت، يمارس السحر ويحاور الربَّ يهوه...». نستخلص أنَّ أبرام وهو الإله اليمنيّ القديم برم أو برن، كان يُعتبر في زمانه إلهًا مختصًّا بالعقم والحصر الجنسيّ (ص ١٠٧). أمّا «إليعازر» قيِّم البيت فهو «إله العذرة». ثمّ ينطلق الصليبيّ إلى اليمن ليجد هناك الأسماء.

ويستنتج الصليبيّ: «ويبدو لي أنَّ السرَّ في العهد المذكور، في النصِّ الأصليّ لتكوين ٢٥، هو الآتي: الربُّ يهوه طلب من «أبرام» أي الإله «برم» أن يتخلّى عن ألوهيَّته ويصبح تابعًا له. وذلك مقابل وعد من يهوه بأن يزيل عن الإله «برم» صفة العقم والحصر الجنسيّ، بحيث يصبح له نسلٌ عظيم على الأرض» (ص ١١٠). ونتيه مع الصليبيّ في خبر ذبيحة إسحق (تك ٢٢) لنصل إلى بئر سبع، مع أبرام الشباعة، ثمَّ أبرام اليمن... فالقارئ العارف بالكتاب المقدَّس يدوخ ولا يعرف إلى أين يقوده هذا الباحث. فماذا يكون للقارئ العاديّ؟ خصوصًا حين نصل إلى إبراهيم أو «أبو رهم» العائش في «السراة» (الفصل الخامس). فاسم أبو رهم كان شائعًا في الجاهليَّة وانقرض (ص ١٣١). والنتيجة «سارة هي آل سرة إلاهة السراة، حبلت من "إبراهيم" وهو أبو رهم إله المطر، حتَّى ولدت "يضْحاق". ولا بدَّ أنَّ يضْحاق هذا، وهو ابن إله المطر وإلاهة السراة، كان إلهًا للآبار» (ص ١٣٢). ويأتي العنوان ص ١٣٣: «تزوَّج المطر من السراة فولدت بئرًا». ونصل إلى يعقوب الإله، بشكله العربيّ أل عقبة. وهو ما زال اسمًا لقرية قريبة من منطقة بيشة (ص ١٤٥). فالمبدأ عند الدكتور الصليبيّ هو أنَّ أسماء العلم تصبح أسماء أماكن بعد أن تمرَّ في الألوهة، وكذلك الألفاظ العديدة...

الخاتمة

ذاك هو وضْع من يقرأ النصَّ الكتابيّ قراءة حرفيَّة، أصوليَّة؛ ووضْع من يجعل الأفكار المسبقة، فلا يكشف شيئًا جديدًا، بل يلتقي بما وضعه مع «يبدو» ثمّ «من الأكيد». فالصليبيّ، هذا المؤرِّخ المعروف، أراد أن يقرأ التاريخ في نصوص روحيَّة، لا تاريخيَّة. فالكاتب الملهم أراد أن يعطي تعليمًا للمؤمنين، ولاسيَّما من خلال شخص إبراهيم، الذي يجلُّه اليهود والمسيحيُّون والمسلمون.

راح الصليبيّ إلى الجزيرة العربيَّة، وتعرَّف إلى أصغر القرى ولو كانت من ثلاث خيام، علَّه يجد هناك ما قالت عنه التوراة، شابه تلك المرأة التي أضاعت غرضًا وشرعت تبحث عنه حيث لا يمكن أن يكون. سألها أحدهم: «وهل أضعته هنا؟» أجابت: «لا، بل هناك.» قال لها: «ولماذا تبحثين هنا؟» أجابت: «هنا ضوء وهناك عتمة فكيف أستطيع أن أراه؟!» وهكذا الصليبيّ جعل الضوء كلَّه في السراة وعسير واليمن والجزيرة العربيَّة. فضاع وأضاع القارئ العاديّ. فيا ليته مضى يبحث في بلاد الرافدين وفي فينيقية (لبنان) وفي فلسطين، لكان وجد الحفريَّات الهامَّة والنصوص التي تعود إلى آلاف السنين. هو المؤرِّخ، ترك التاريخ وراح إلى الجغرافيا. وترك الفكر واستنبط الميتولوجيا، مع أنَّ الكتاب المقدَّس لا يعرف سوى الإله الواحد، وإن هو راعي سائر الشعوب وآلهتهم. فقد حسبَ في النهاية هذه الآلهة «أرجاسًا»، وهزئ ببعل الذي لا يستطيع أن يفعل شيئًا تجاه الربِّ الإله. قال إيليّا الذي كان وحده قبالة المئات من عبَّاد هذا الإله: «لعلَّه مستغرق (منشغل في أمور عديدة) أو في خلوة، أو في سفر، أو لعلَّه نائم فينتبه!» عندئذ «صرخوا بصوت عالٍ وتقطَّعوا حسب عادتهم بالسيوف والرماح حتَّى سال منهم الدم» (١ مل ١٨: ٢٧-٢٨). أمّا إيليّا فما احتاج سوى إلى «استجبني يا ربّ استجبني» (آ٣٧). أمّا «يهوه» فما هو اسم «خالق السماء والأرض» هي صفة الوجود «الذي هو». لا يستطيع الإنسان أن يعطي الخالق اسمًا. ومتى الولد يعطي اسمًا لوالده. «يهوه» هو الحاضر الآن وفي كلِّ آن،

هو الموجود والكائن كما قال اليونان. و«إلوهيم» هو صفة تدلّ على القدرة، وفي صيغة الجمع، جمع الجلالة لتمييزه عن إيل. ودعوه الإله العليّ، أي الرفيع والسامي، وإيل شدّاي، إله الجبال... كلّها صفات لله مثل الرحمان الرحيم، الغيور، القدّوس، الخفيّ. لا شكّ في أنّ «موسى» تعلّم الاسم في مديان، ولكنّه حمّله معنى لا تستطيع أن تحمله آلهة الجزيرة العربيّة التي ذكرها الصليبيّ، ولا آلهة كنعان ولا آلهة اليونان والرومان. أما تتذكّر الثورة التي قام بها اليهود حين جُعل تمثال زيوس Zeus في الهيكل. هو بعض الحجر المطليّ بالذهب له عين ولا يرى، له أذن ولا يسمع، له فم ولا يتكلّم، له يد ولا يفعل، له رِجل ولا يتحرّك.

توقّفنا في قراءة «**خفايا التوراة**» وما أردنا أن «نتيه» على مثال «الأراميّ التائه» (الفصل السابع)، ولا رحنا إلى مصر لنرافق «يوسف في أرض مصرايم» (التي هي في صيغة المثنّى، لأنّ الفرعون هو ملك الشمال وملك الجنوب) (الفصل السادس)، ولا رافقنا موسى (الفصل الثامن). وتركنا بلعام وشهادته (الفصل التاسع). وابتسمنا حين الكلام عن يونان، الذي صار يونيان، وجعله الصليبيّ «النبيّ من عمان». فالكتاب المقدّس جعل أمامنا خبرًا تقويًّا. انطلق من عناصر موجودة في الشعب العبرانيّ (يونان بن أمتاي، هذا النبيّ المتزمّت) وأخرى من التاريخ مع سقوط نينوى سنة ٦١٢ ق.م. والمعنى: لو تابت أورشليم لما كانت سقطت. وتخيّل الكاتب الملهم أنّ نينوى الوثنيّة، الشرّيرة، تابت فعفا الله عنها. أو هو تمنّى أن يعود الوثنيّون إلى الله ليكونوا مثالاً للشعب اليهوديّ. هذا التعليم الرائع سيجد امتداده مع بولس الرسول الذي يفهم الشعب اليهوديّ أنّ اليونان وسائر الأمم الوثنيّة آمنوا فصاروا شعب الله، أمّا شعب الله فصار في الخارج.

ما أدهشنا في هذا الكتاب وفي غيره من كتب الصليبيّ هو أنّه عرف التفسير الصحيح، ولكنّه ابتعد عنه لكي يتميّز عن الباحثين. هل هذه الطريقة تشبه طريقة جحا الذي كسر مزراب العين لكي يسأل عنه الجميع؟ فلو قال الصليبيّ ما يقوله شرّاح الكتاب المقدّس الذين يعملون على ضوء الروح القدس، لكان قرأه

الفصل الثامن

حروب داود

سنة ١٩٩٠، ظهر عن دار الشروق (عمّان) كتاب **حروب داود** لكمال الصليبيّ يبدأ بمقدّمة طويلة تروي تاريخ بني إسرائيل ويهوذا من داود وحتّى الجلاء البابليّ سنة ٥٨٦ ق.م. مرورًا بالجلاء الأشوريّ، سنة ٧٢١ ق.م.

ويتوقّف الكاتب عند حروب داود كما تُقرأ في سفر صموئيل الثاني. فيها الخبر أو القصّة، وفيها العبرة والدرس في خطّ تثنية الاشتراع. فيها النثر وفيها النظم ممّا يجعل هذا الكتيّب بشكل ملحمة.

جعل الصليبيّ تاريخ إسرائيل بالقبائل العشر (يهوذا قبيلة بعيدة عن إسرائيل) يقيم في غرب الجزيرة العربيّة: من جوار الطائف إلى الأطراف الشماليّة من اليمن. وفي هذا الإطار تكون قبيلة بنيامين قريبة من اليمن. وهكذا كانت مملكتان: مملكة يهوذا في مرتفعات السراة، ومملكة إسرائيل في تهامة. والمسبيّون من إسرائيل راحوا إلى منطقة نجران وجيزان. ويستند الصليبيّ في كلامه إلى نصوص عربيّة معاصرة.

ولكن كيف صار اليهود أخيرًا في فلسطين؟ هنا يلفّ الغموض هذا الانتقال، فيكتفي المؤرّخ بالإشارة إلى امتداد سورية وفلسطين في خطّ الجزيرة العربيّة.

* * *

في قسم ثانٍ (يبدأ ص ٤٥) يقرأ الصليبيّ ما يعتبره الأقسام الشعريّة في ف ٥–٢٣. أمّا نحن فنودّ أن نقرأ مقطعًا واحدًا مع الصليبيّ. عنوانه: داود يفتح أورشليم (٢صم ٥: ٥–١٩).

٦ وذهب الملك ورجاله إلى أورشليم، إلى اليبوسيّين سكّان الأرض. فكلّموا داود قائلين: «لا تدخل إلى هنا، ما لم تنزع (= تبعد) العميان والعرج. فكأنّهم يقولون: «لا يدخلُ داود إلى هنا.»

٧ وأخذ داود حصن صهيون (أو بالأحرى: صيون: المصون. أي: الحصن المصون)، هي مدينة داود.

٨ وقال داود في ذلك اليوم: «الذي يضرب اليبوسيّين ويبلغ إلى القناة! والعرج والعمي مبغضون من نفس داود.» لذلك يقولون: «لا يدخل البيت أعمى أو أعرج.»

٩ وأقام داود في الحصن وسمّاه «مدينة داود» وبنى داود مستديرًا من ملّو (أو: القلعة) باتّجاه الداخل.

احتلّ داود أورشليم بواسطة جيشه الخاصّ. وصارت أورشليم عاصمته الخاصّة التي لا تقع في أرض قبيلة من القبائل. فالملك لن يقيم في شكيم ولا في حبرون ولا في جبعة. فعاصمته أورشليم هي على الحدود بين الشمال والجنوب. وهكذا لن يكون عليه ضغط من أيّ منطقة في مُلكه.

ونقرأ آ٦ عن هجوم داود، رفض اليبوسيّون أن يستسلموا. ولو بقي منهم العرج والعميان، سوف يقفون في وجه داود. قالت اللاتينيّة: «لن تدخل هنا إن لم تُبعد العميان والعرج الذين سيقولون: "لن يدخل داود إلى هنا."» وقالت اليونانيّة: «لن تدخل إلى هنا، لأنّ العميان والعرج يقاومون قائلين...». والسريانيّة: «وقالوا لداود قائلين: لن تدخل إلى هنا إلاّ إذا أزحتَ العميان والعرج. وقالوا: "لن يدخل داود إلى هنا"». نشير إلى أنّنا لم نقرأ اسم «اليبوسيّين» خارج العهد القديم.

* * *

ذاك ما يقول النصّ في ترجمته العاديّة إلى لغات العالم. ولكن ماذا قرأ الصليبيّ:

«سار الملك ورجاله إلى أري سلام
إلى اليبوسيّين ساكني الأرض
قالوا لداود: «لا تدخل إلى هنا
قبل أن تقصي عوراء وصُحَيف
القائلين: لا يدخل داود هنا.»

«أري سلام» هكذا يترجم الصليبيّ «ي ر و ش ل م» (أورشليم). والمعنى «مرتفع الإله سلام».

«عوراء» في العبريّة «ع و ر ي م». هم أعالي جبل عوراء، إلى الشمال من جبل صروب بمنطقة جيزان (في عسير). أمّا نحن فقلنا: «العميان».

«صُحَيف» في العبريّة «ف س ح ي م». كيف انقلبت «السين» إلى «صاد» ثمّ كيف تحوّل اللفظ كلّه؟ المهمّ أن نصل إلى «صحيف» من قرى جبل الحشر، إلى الجنوب من جبل صروب بمنطقة جيزان. أمّا نحن فقلنا: «العرج». ما يلفت النظر هو أنّ اليونانيّة ترجمت هذا النصّ قبل بداية المسيحيّة، وكذلك السريانيّة في القرن الأوّل المسيحيّ أو الثاني، فتحدّثتا عن «العميان والعرج». فكيف أضاع المترجمون المعنى الحقيقيّ؟

قرأ الصليبيّ في آ٧ «صيان». في العبريّة: «ص ي و ن». قد ترتبط بفعل «صان». قال الصليبيّ: هي «مقوة صيان، أي «مرتفع» أو «قمّة». صيون هي مدينة داود». هكذا سمّاها وجعلها عاصمته.

وفي آ٨ «القناة». لا نقرأ هذا اللفظ إلاّ في مز ٤٢: ٨ (مزاريب، شلالات). قال المترجم أكيلا: عيون مائك. وسيماك: حواجزك (في السريانيّة: س ك ر ا، ما يغلق). قال الصليبيّ «صرّان». في العبريّة «ص ن و ر». هو لفظ مقلوب: «موقع صرّان هذه هو أعلى جبل صروب». هكذا تكون الحلول التي لا توضح شيئًا. ما معنى هذا؟ في السريانيّ: «كلّ من يضرب اليبوسيّ ويقترب من السكر (ما يوقف الماء)... ينال أجرًا.»

«مبغضون» ردّ داود كلام اليبوسيّين واعتبرهم كلَّهم من العرج والعميان.

آ ٩. «ملّو» في العبريَّة: م ل و ا. هو الردم الذي سيُجعل هنا في زمن سليمان من أجل تسوية الأرض بين الهيكل والقصر الملكيّ (١ مل ٩: ١٥، ٢٤؛ ١١: ٢٧). وهكذا بدا داود وكأنّه سبق سليمان إلى مثل هذا العمل. ترجم الصليبيّ «م ل و ا» «ذي ميال»: «من قرى رجال ألمع. بدّل الصليبيّ الموقع كما سبق ودرسه في **التوراة جاءت من جزيرة العرب**، ص ١٨٠. ماذا نقرأ هناك؟

«سادسًا، يقول النصُّ بكلِّ وضوح إنَّ داود، بعد وصوله إلى صنور وكسْرته لشوكة آل عوريم وآل تسحيم، جعل إقامته بـ–مصوت («في الحصن») أو «في أم حمرة») وليس في أورشليم، وأنَّه أسمى (أو: سمَّى) هذا المكان وليس غيره، مدينة داود.» ويضيف النصّ، بالترجمة العربيَّة، أنَّ داود بنى «مستديرًا (سبيب) من «القلعة» (مملوء، مقروءة هـ–ملوء، باعتبارها: البداية كأداة تعريف كما سبق). والواضح هو أنَّ ما بناه داود لم يكن «مستديرًا»، بل «سورًا». أمّا مملوء فليست «القلعة» بل اسم مكان ما زال موجودًا في مرتفعات رجال ألمع، وهو اليوم قرية الهامل (مع الاستعاضة عن الهمزة الأخيرة في الاسم التوراتيّ، وهي لاحقة التعريف الآراميَّة، بسابقة التعريف العربيَّة). والخلاصة هي أنَّ ما بناه داود في جوار قلعة الصوَّان كان سورًا يبتدئ من الهامل ويمتدُّ داخلاً، أي باتِّجاه «مدينة داود»، وهي على الأرجح أم حمرة كما ذكرنا.»

في البداية، قال «بكلِّ وضوح». ثمَّ «والواضح». أمّا أنا فلم يتَّضح لي شيء بل ضعتُ في هذا التلاعب بالكلام من لغة إلى لغة، فينبهر القارئ العاديّ حتّى بعض «المتعلمين» الذين يعتبرون نفوسهم عارفين، فإذا هم «عميان» بين عميان يقودهم من يعتقدونه «البصيرَ الواحد».

في هذا المعنى، قرأ الصليبيّ مز ٤٨: ١٣–١٤:

طوفوا بصهيون ودوروا حولها

تأمّلوا قصورها عدُّوا أبراجها

لكي تحدّثوا بها الجيل الآتي.

وضع الصليبيّ هذا المقطع من المزمور ليقول: «فإنَّ المعلومات التي يوردها سفر صموئيل الثاني عن أخْذ داود لـ"مدينة داود" (وليس لـ"أورشليم") ليست ضئيلة، كما اعتقد علماء التوراة حتَّى اليوم، بل هي غاية في الدقَّة والتفصيل. ويبدو أنَّ التحصينات التي أقامها داود في جوار قعوة الصوَّن (وليس "جبل صهيون")، بين الهامل وأم حمرة، لحماية مملكته من الجنوب، كانت بالنسبة إلى زمانها على جانب كبير من المناعة».

ما أجمل هذه المخيِّلة التي توصلنا في النهاية إلى لا شيء. ويواصل الباحث كلامه:

«ولا بدَّ من الإشارة هنا إلى أنَّه، خلافًا للانطباع السائد، فإنَّ التوراة لم تقل في الواقع، في أيِّ مكان منها، أنَّ "صهيون" أو "مدينة داود" التي كانت بالتأكيد إلى جوارها، كانت جزءًا من "أورشليم". وذكرُ "صهيون" إلى جانب «أورشليم» في عدد من المقاطع التوراتيَّة... لا يتضمَّن بالضرورة قُربًا جغرافيًّا أو تعريفًا لأحد المكانين بالآخر» (**خفايا التوراة**، ص ١٨٢).

مثلاً، نقرأ مز ١٠٢:

آ ١٣ أمّا أنت، يا ربّ،

فإلى الدهر جالس (على العرش)

وذكرك في دهور الدهور.

١٤ أنت تقوم وترحم صهيون

لأنَّ الزمن زمن الرحمة.

أجل، أتى الميعاد

١٥ عبيدك سرُّوا بحجارتها

وحنُّوا إلى ترابها.

١٦ فتخشى الأمم اسم الربِّ

وكلُّ أمم الأرض، مجدك.

١٧ حين يعيد الربُّ بناء صهيون

يصبح منظورًا في مجده.

٢٢ يتحدَّثون باسم الربِّ في صهيون

ويسبِّحونه في أورشليم.

ألا نرى التماهي بين صهيون وأورشليم؟ هل نسينا كيف يكون الشعر في العالم الساميّ؟ مستحيلٌ مثلُ هذا الأمر على باحث في الكتاب المقدَّس. ثمَّ ألا نرى العمق الروحيّ في هذه الآيات الرائعة؟ نحن في زمن المنفى. دُمِّرت صهيون وأُحرق الهيكل. فمتى يرحم الربُّ مدينته ويعيد إليها شعبه؟ وأين نريد أن نجعل أورشليم التي عمرها عشرات الأجيال قبل المسيح؟ في أيِّ زاوية من الجزيرة العربيَّة فتغرق في رمالها؟ أهكذا نشوِّه صلاة المؤمنين من يهود ومسيحيِّين؟ وفي أيِّ حال يقول الرسول: «الله لا يُستَهزأ به». وقال بطرس الرسول في الرسالة الثانية: «كان في الشعب أنبياء كذبة، كما سيكون بينكم أيضًا معلِّمون كذبة، الذين بسببهم يجدَّف على طريق الحقِّ.» (٢: ١-٢).

ونقرأ مز ١٢٥:

١ المتوكِّلون على الربِّ

هم مثل جبل صهيون

الذي لا يتزعزع

والذي يثبت إلى الأبد.

٢ أورشليم! الجبال تحيط بها!

هكذا الربُّ يحيط بشعبه

من الآن وإلى الدهر.

كيف تنفصل أورشليم عن «ص ي و ن»، المدينة التي يصونها الربّ. فصهيون هي الأماكن الأرفع في أورشليم. هي قلب أورشليم لأنَّ فيها القصر الملكيّ وهيكل الربّ. هي قلعة لا تسقط إلاَّ بعد أن تكون دُمِّرت أورشليم كلُّها. لهذا قال مز ١٣٥: ٢١: «مبارك الربُّ من صهيون، الساكن في أورشليم.»

* * *

ونقرأ في هذا المجال خبر أبشالوم الذي قتل مَن زنى بأخته تامار، أمنون ابن داود البكر. كان لأبشالوم أن ينتقم. قال الكتاب (٢ صم ١٣: ٢٣): «بعد سنتين من الزمان كان لأبشالوم جزَّازون في بعل حاصور التي عند أفرائيم. فدعا أبشالوم جميع أبناء الملك...». ثمَّ: «وأوصى أبشالوم غلمانه قائلاً: عندما ترون قلب أمنون منتشيًا بالخمر، وحين أقول لكم: اضربوا أمنون، فاقتلوه ولا تخافوا...» (آ٢٨أ). ثمَّ «هرب أبشالوم: سار إلى شلمي بن عنيحود. ملك جشور، وناح داود على ابنه كلَّ الأيَّام (آ٣٧).

الخبر الكتابيّ بسيط جدًّا. حين قتل أبشالوم أخاه من أبيه، أمنون، خاف، فهرب إلى أخواله في جشور، تلك المملكة الآراميَّة القريبة من باشان (حوران الحاليَّة). ونقرأ الشعر مع الصليبيّ حيث لا شعر إطلاقًا:

«بعل حاصور» (٢ صم ١٣: ٢٣)، جبل يعلو ١٠١٦ مترًا عن سطح البحر، ويصعد ٢٣ كلم إلى الشمال من أورشليم. فما الذي أوصلنا إلى «الحظيرة»، الواقعة في «تهامة عسير» (**حروب داود**، ص ١٥١) وفسَّر منطقة «أفرائيم» بالوفر، في صيغة المثنَّى. هي من قرى تهامة لبني شهر (ص ٥١). أمَّا جشور فصار قثار ومنه شعب «القثاورة». قلب الجيم إلى قاف والشين إلى تاء، وهو قلب مألوف ومشهود، كما قال. ولكننا لا نقول نحن مثل هذا الكلام.

ونقرأ في ٢ صم ١٤ : ٢أ عن «تقوع» حيث كانت امرأة حكيمة،دعاها يوآب بن صروية من أجل عودة أبشالوم إلى أبيه. فتقوع، موطن النبيّ عاموس، (عا ١ : ١) مدينة محصَّنة بيد رحبعام، وقد أقام فيها العائدون من المنفى (نح ٣ : ٥، ٢٧). هي اليوم خربة تقوع التي تبعد ١٨ كلم إلى الجنوب من أورشليم.

فماذا صارت هذه المدينة عند الصليبيّ (**حروب داود**، ص ١٥٢)؟ توقعي من قرى ناحية الجائزة من منطقة الليث، حيث القتاورة». ولا أريد بعد ذلك أن اتعب القارئ، بهذا التلاعب على الكلام الذي لا يفيد أحدًا، ولا يبدِّل في خبر داود النبيّ، سواء كانت أورشليم في فلسطين أو في الصين واليابان.

مرجعنا الوحيد عن داود (١٠١٠–٩٧٠ ق.م.، تقريبًا) هو الكتاب المقدَّس. معنى اسمه المحبوب من الله، ويرتبط بالودِّ كما في العربيَّة. هو ابن يسّى الأصغر، مسحه صموئيل. أمّا خبره فيرد في تقليدين متوازيين حيث يكون داود في بلاط شاول كحامل سلاحه: في حالة أولى، يلعب بالقيثارة فيُبعد الكآبة عن الملك. وفي حالة ثانية، ينضمُّ إلى الجيش ويقتل جوليات، جبَّار الفلسطيِّين فيربح ودَّ سيِّده. ثمَّ كان اتِّفاق بين داود ويوناثان بن شاول. ولكن دبَّ الحسد في قلب شاول فأراد قتْل داود فهرب داود وكانت حرب داخليَّة بين شاول وداود. ضعفت المملكة فانتصر الفلسطيُّون على شاول ومات في الحرب مع ابنه يوناثان، وهكذا خلا الجوّ لداود.

وشاخ داود فأخذ أولادُه يتنازعون إلى أن ملك سليمان. وجه داود هو ذاك الذي بدا الله معه. وحين خطئ وتاب، نال الغفران، ومات في شيخوخة رافقها المرض. تلك قراءة الأحداث كما تُروى في كتاب صموئيل. أمّا المعنى الروحيّ، فداود هو الملك المثالي الذي سوف يُقاس الملوك خلفاؤه بحسب سلوكه. وفي سفر الأخبار، داود هو الذي نظَّم أمور العبادة وهيَّأ كلَّ شيء من أجل بناء الهيكل. مُنع هو من أن يبنيه لأنَّ يديه تلطَّختا بالدماء. فكان على سليمان، ابنه، رجل السلام، أن يبني الهيكل بمساعدة الفينيقيِّين. وستمتدُّ صورة

داود في العهد الجديد، فيرى الناس في يسوع المسيح ابن داود (مت ٩ : ٢٧). وكان لبولس الرسول أن يقول في بداية الرسالة إلى رومة: «الإنجيل الذي سبق الله فوعدَ به بأنبيائه في الكتب المقدَّسة، عن ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد، وتعيَّن ابن الله بقوَّة من جهة الروح القدس، بالقيامة من بين الأموات: يسوع المسيح ربّنا» (رو ١ : ٢–٤). ذاك هو شخص داود كما يقرأه الكتاب المقدَّس بعهديه القديم والجديد. فإن كان هناك مصدر آخر لا تعرفه الوثائق القديمة، فنحن ننتظر أن نصحِّح الكتاب الذي أوحى به الروح القدس ودوَّنه كتَّاب ألهمهم الله. أمّا والأمرُ غير موجود، فتوسُّعات كمال الصليبيّ حبرٌ على ورق لا تزيد في أبحاث العالم العربيّ قيد أنملة. من عنديَّاته سرد الأخبار، وأورد الأسماء، وراح يتيه في رمال الجزيرة العربيَّة. لهذا ننصح نفوسنا بأن نتركه هناك ونترك كتبه، ونعود إلى كلمة الله التي هي سيف ذو حدَّين تدخل مفرق النفس والجسد... وتميِّز الأفكار والقلوب» (عب ٤ : ١٢). وهنيئًا لمن يعرف أن يخضع لهذه الكلمة التي هي «نور وحياة» كما قال الربُّ يسوع.

الخلاصة

هو مقطع قصير يتحدَّث عن احتلال داود مدينة «يبوس» التي سوف يبدِّل اسمها إلى مدينة داود. تحدَّى اليبوسيُّون داود: هي قلعة حصينة يستطيع حتَّى العرج والعميان أن يدافعوا عنها (نتذكَّر أنَّها محاطة بالجبال من ثلاث جهات). لهذا، لن تدخلها يا داود. لست أدري كيف نستطيع أن نقرأ المقطع في ترجمة كمال الصليبيّ. ونقول ملاحظة صغيرة: كيف صارت «و ب ي ت ه» العبريَّة «إلى الداخل». لا بدَّ أنَّه أخذ الترجمة من اللغات الغربيَّة أو من السريانيَّة (ل ج و).

القسم الرابع

البحث عن يسوع
قراءة جديدة في الأناجيل(*)

(*) المسرة ٨٦ (آذار – نيسان ٢٠٠٠) ص ٢٣٥ – ٢٥٣.

جاء هذا الفصل: قراءة جديدة في الأناجيل، طويلاً، فقسمناه مقاطع.

أ – المقدّمة

ب– الهدف

أولاً : النجّار

ثانياً: الناصرة

ثالثاً: الجليل

ج – الاسلوب

أولاً: المصادر

ثانياً: النقد الكتابي

د – النتيجة والخاتمة.

الفصل التاسع

قراءة جديدة في الأناجيل

أ – المقدّمة

ذاك هو العنوان الثاني لكتاب كمال الصليبيّ «البحث عن يسوع» الذي صدر عن دار الشروق (الأردنّ) سنة ١٩٩٩. هذا الكتاب هو إعادة صوغ باللغة العربيَّة لكتاب صدر للمؤلِّف بالإنكليزيَّة، في لندن سنة ١٩٨٨: «مؤامرة في أورشليم، أصول يسوع المخبَّأة». فماذا في هذا المؤلَّف حول الكتاب المقدَّس بعد «التوراة جاءت من جزيرة العرب» و«خفايا التوراة وأسرار شعب إسرائيل» و»حروب داود»؟ ولماذا هذه العودة إلى الجزيرة العربيَّة بشكل «وحي» غير معلَن وصل إلى صاحب هذا الكتاب؟ وقد يجيءُ يومٌ تخرج فيه دياناتُ الهند والصين واليابان ممّا سمّاه الصليبيّ «العربيَّة»، وهي منطقة واسعة تمتدُّ من الأردنّ حتَّى اليمن والخليج العربيّ.

نتوقَّف في دراستنا هذه عند أمور ثلاثة: ١– الهدف الذي توخّاه الكاتب، ٢– الأسلوب الذي أخذ به، ٣– النتيجة التي وصل إليها.

ب – الهدف

منذ البداية، طرح الكاتبُ هدفَه: «محاولة للوقوف على الحقيقة التاريخيَّة بشأن يسوع الناصريّ المعروف بالمسيح» (ص ٧). ماذا فعل؟ عاد إلى تحليل النصوص كعادته، فربط هذا التحليل بتاريخ لم يَكشف كلَّ أبعاده، واستخلص نتيجة انطلقت من «يبدو» حتَّى وصلت إلى «وضوح» (ص ١٦٨) حول يسوع ابن يوسف النجّار. هنا نتوقّف عند ثلاثة ألفاظ: النجّار، الناصرة والجليل.

أولاً: النجّار:

ونبدأ بالكلمة «النجَّار». هذه اللفظة لا تعني أنَّ يسوع كان يعمل في النجارة، شأنه شأن والده، على ما يقول مر ٦: ٣ ومت ١٣: ٥٥، بل هي تدل على ما ورد في الأراميَّة: نجارا هو اسم فخذ من سلالة داود، وتحديدًا من سلالة زربَّابل (ص ٥٤–٥٥). لماذا هذا الاختلاف؟ لأنَّ النصَّ الإنجيليّ ترجم اللفظة الأراميَّة «خطأ». وها هو الصليبيّ يعيد الأمور إلى نصابها. ولكنَّه يحاول أن يلبس لباس «الموقف العلميّ» فيقول: «هذا في رأيي هو الأرجح».

أترى متَّى الذي عاش في محيط أراميّ ويونانيّ، يمتدُّ من فلسطين إلى أنطاكية، خلط بين اسم عَلم ومهنة نجارة؟ والصليبيّ الذي يقرُّ بعدم ضلوعه في اليونانيَّة (ص ١٤٠)، استطاع أن يفعل ما يفعله العلماء الكبار في العالم إذ ينطلقون من النصِّ اليونانيّ الأخير ليكتشفوا النصَّ الأراميَّ الذي في أساسه. ونسأله: أين وجد هو هذا «الفخذ»؟ لا وجود له في التوراة. كلُّ ما نجد هو فعل «ن ج ر» في صيغة المتعدِّي الذي يعني: امتدَّ، اجتاح.

ونعود إلى النصَّين الوحيدين اللذين يتحدَّثان عن يسوع الذي كان نجّارًا ابن نجّار. ونبدأ مع مرقس: جاء يسوع إلى وطنه، إلى الناصرة، وكانت شهرته قد سبقته. تعجَّب الناس وتساءلوا: «من أين له كلُّ هذا؟» هو لم يذهب إلى المدارس، ولم يكن ذاك الشخص المعروف على مستوى فلسطين. هو ابن

النجَّار. عامل بين العمَّال. ويريد أن «يجعل» نفسه «نبيًّا»؟ أجل، قالوا عن يسوع ما قالوا احتقارًا، لا تقديرًا له، على أنَّه من «فخذ» زربَّابل، وما أدراك ما يحوي هذا الفخذ! إنَّه لأشبه بفخذ جوبيتر الذي أخرج الآلهة والإلاهات!

لهذا قال يسوع: «لا نبيَّ بلا كرامة إلاَّ في وطنه وبين أقربائه وأهل بيته» (مر ٦: ٤). ومن أجل هذا، لم يُجرِ يسوعُ إلاَّ بضع معجزات من أجل المرضى. ما أراد يسوع أن يقوله هو أنَّه ذاك الذي يحمل كلمة الله على مثال الأنبياء. ووجَّهنا مرقس إلى سؤال سيُطرح مرارًا حول يسوع الذي هو المسيح (مر ٨: ٩) وابن الله (مر ١٥: ٣٩). هو ليس فقط ابن داود، بل ربُّ داود (مر ١٢: ٣٥–٣٧). يا ليت الصليبيّ قرأ النصوص كما هي ولم يشلِّعها ويفرض عليها نظرته المسبقة. هذا ما يقول إنجيل مرقس.

نجد أنَّ لدى المؤلِّف إنجيلٌ خاصٌّ وهو إنجيل الأراميِّين، يعود إليه. ولكن ما حيلتنا وقد أُتلف هذا الإنجيل كي تُطمَس الحقيقة التاريخيَّة لهذا المسيح الآتي من عمق الجزيرة العربيَّة؟

وقال إنجيل متَّى في السياق عينه، وذلك خلال وجود يسوع في الناصرة: «أخذ (يسوع) يعلِّم في مجمعهم (= مجمع اليهود)، فتعجَّبوا وتساءلوا: من أين له هذه الحكمة وتلك المعجزات؟ أما هو ابن النجَّار» (١٣: ٥٤–٥٥)؟ أجل، يسوع هو نجَّار وابن نجَّار. لا مركزَ اجتماعيًّا له مرموق. فرفضه اليهود باسم حكمة العالم.

ثانيًا: الناصرة

يسوع شخص مجهول، مغمور على المستوى البشريّ، ليس كاتبًا من الكتبة، ولا زعيمًا مرموقًا. فكيف نريده ملكًا على المستوى البشريّ؟ فهو من قرية لم يذكرها الكتاب المقدَّس مرَّة واحدة. بل قال فيها الناس: «أوَيمكن أن يكون من الناصرة شيءٌ صالح؟» (يو ١: ٤٦). وهذه الناصرة هي في الجليل، ونحن نعرف كم كان أهل أورشليم يحتقرون أهل الجليل بلهجتهم الخاصَّة

(مت ٢٦: ٧٣). بعد هذا، نتعجَّب من أنَّه لم تُذكر الناصرة قبل القرن الثالث؟ هي قرية منسيَّة، وسوف ننتظر القرن السادس ب.م. ليقول لنا أحدُ الحجَّاج الذين تركوا لنا مذكَّراتهم إنَّ الناس يزورون هذه القرية: يزورون مجمعها كما يزورون كنيسة شيِّدت فوق بيت مريم العذراء.

أجل، لم تكن الناصرة معروفة. فمن جعلها مشهورة؟ ذاك الذي أقام فيها واسمه يسوع الناصريّ. حدَّثنا متَّى أوَّلاً عن الخطر الذي يهدِّد العائلة المقدَّسة بسبب أرخيلاوس بن هيرودس الكبير وخلفه: خاف يوسف أن يعود إلى بيت لحم، لهذا «جاء إلى مدينة اسمها الناصرة فسكن فيها» (مت ٢: ٢٣). فارتبطت الناصرة بيسوع، وارتبط هو بها: «يُدعى ناصريًّا» (مت ٢: ٢٣). هذا في بداية حياة يسوع العلنيَّة. ويوم دخل أورشليم، سألت أورشليمُ: من هذا؟ فأجابت الجموع: «هذا هو النبيُّ يسوع، الذي من ناصرة الجليل» (مت ٢١: ١١). كأنِّي بالجليل يستعيد كرامته بسبب هذا النبيّ. فالأنبياء لا يخرجون فقط من أورشليم، كما كانوا يعتقدون.

ويذكر القدِّيس مرقس الناصرة أكثر من مرَّة: جاء يسوعُ من ناصرة الجليل (١: ٩) وقال له الشيطان: «ما لنا ولك يا يسوع الذي من الناصرة؟» (١: ٢٤) وناداه الأعمى بهذا الاسم لكي يشفيه (١٠: ٤٧)؛ وفي النهاية، بعد القيامة، سيقول شابٌّ جلس قرب القبر، للنسوة اللواتي جئنَ يتفقَّدن «الميت»: أنتنَّ تطلبنَ يسوع الناصريّ المصلوب: إنَّه قد قام، ليس هو ههنا» (١٦: ٦). لقد أراد الصليبيّ أن يفرِّق بين «يسوع التاريخ» و«يسوع (أو: مسيح) الإيمان». بين أي يسوع الذي عاش وبشَّر على طرقات الجليل واليهوديَّة والسامرة، ويسوع الذي آمن به الرسل بعد القيامة. ولكن منذ الآن نعرف أنَّ يسوع الذي من الناصرة هو نفسه الذي قام من بين الأموات. لسنا أمام شخصين مختلفَين جمع بينهما شخصٌ عبقريّ يُدعى بولس أو رسولٌ آخر جاء من قارب الصيد (بطرس، مثلاً) أو من وراء مائدة الجباية (متّى، مثلاً).

ويبدأ إنجيل لوقا كلامه في الناصرة مع بشارة مريم العذراء (١: ٢٦)، ثمَّ المضيّ إلى بيت لحم (٢: ٤) وولادة يسوع. مرَّة أولى عاد والدا يسوع من أورشلم بعد أن قدَّماه في الهيكل، عادا إلى الجليل، إلى مدينتهما الناصرة (٢: ٣٩). ومرَّة ثانية عادت «العائلة المقدَسة» بعد أن حجَّ يسوع للمرَّة الأولى إلى أورشليم، ومرَّ في امتحان حول معرفته بإيمانه، فصار «ابن الوصيَّة». صار مسؤولاً عن الشريعة ويمارسها. يقول لوقا ٢: ٥١: «ورجع يسوع معهما إلى الناصرة وكان مطيعًا لهما». ونقرأ بعد القيامة اسم الناصرة على لسان تلميذَي عمّاوس. ما استطاعا في البداية أن يفهما أنَّ ما يخصُّ يسوع الذي من الناصرة (لو ٢٤: ١٩)، يخصُّ أيضًا المسيحَ الربَّ الذي قام من بين الأموات. وكذلك يحدِّثنا لوقا في أعمال الرسل (١٠: ٣٨) بلسان بطرس، عن يسوع الناصريّ.

هذه أمور معروفة جدًّا، إلى حدِّ أنَّ يسوعَ سُمِّي حتَّى على الصليب: يسوع الناصريّ. وسمِّي تلاميذه: الناصريِّين أو النصارى. ولكنَّ الصليبي يشكك في هذه الأمور لأنَّه يقرأ النصوص على هواه، بسبب إيديولوجيا تفرض نفسها على التاريخ، ولا تدَع التاريخ والوثائق تعطي ما عندها. والمثال على ذلك ما نقرأه في يو ٧: ٤٠-٤٣: يسوع هو النبيّ. يسوع هو المسيح. وقال آخرون: «أمنَ الجليل يأتي المسيح؟ أما قال الكتاب إنَّ المسيح يجيء من نسل داود، ومن بيت لحم مدينة داود؟ فانقسم رأي الناس فيه». اعتبر الصليبيّ أنَّ المسألة مفتوحة، والناس الذين كانوا في أيَّام يسوع لم يعرفوه (ص ٥٠). ولكنَّ هناك معرفة ومعرفة. والإنجيليّ يريد أن يشدِّد قبل كلِّ شيء على معرفة الكلمة الذي هو لدى الله، الذي صار بشرًا وسكن بيننا. هذه في النهاية هي المعرفة الأخيرة التي تقود إلى الحياة الأبديَّة. فيا ليت الصليبيّ تعرَّف إلى هدف إنجيل يوحنّا الذي نقرأه في نهاية الكتاب (٢٠: ٣٠-٣١): «كُتب هذا لتؤمنوا». أمّا سائر الأمور فكانت معروفة، إن لم يكن في يوحنّا ففي متّى ومرقس ولوقا. وما نقرأه هنا في يو ٧: ٤٠-٤٣، هو نتيجة جدال بين مسيحيِّين تعلَّقوا بالمسيح ويهودٍ ما زالوا يرفضون الإيمان.

ثالثاً: الجليل:

الناصرة هي في الجليل. والأناجيل تتحدَّث مرارًا عن الجليل كما ذكرت الناصرة. لسنا في حاجة إلى ذكر المراجع. وفي النهاية، يسوع هو الجليليّ (مت ٢٦: ٦٩) الذي يختار أوَّلاً تلاميذه من الجليل، كما قال عنهم الناس يوم العنصرة (أع ٢: ٧). وهذا كان أحد الأسباب التي جعلت أهل الجليل يرحِّبون بيسوع ترحيبًا حارًّا (يو ٤: ٤٥).

هذا ما لا شكَّ فيه رَغمًا عن السمِّ الذي ينفثه الصليبيّ هنا وهناك مستندًا إلى رأيه الخاصّ الذي يكتشف في الأناجيل التضارب والتناقض (ص ٤٩) باسم معرفة جاءته من إنجيلٍ حصل عليه مع أنَّه أُتلف، ومن طروس استعملها بولس ولكنَّها ضاعت، أو أُتلفت. هنا أطرح سؤالاً عابرًا: لماذا لم تُتلف الأناجيل المنحولة وهي عديدة؟ فهناك إنجيل برتلماوس، إنجيل الطفولة العربيّ، إنجيل يعقوب، إنجيل يهوذا، إنجيل متّيّا، إنجيل الناصريّين، إنجيل نيقوديمس. وحده إنجيل الأراميّين قد أُتلف. فيا للضياع!

من هذا «السمّ» كلامه عن العذراء مريم. كيف يكون يسوعُ ابنَ زربّابل جدّ يوسف، وفي الوقت عينه ابنَ عذراء؟ هذا مستحيل لدى البشر. يا ليت الصليبيّ قرأ مت ١: ١٨ الذي يقول: «تبيَّن قبل أن تسكن (مريم) مع (يوسف) أنَّها حبلى من الروح القدس». فكان على يوسف أن يتبنَّى الولد، أن يُدخله بشكل شرعيّ في سلالة داود. إن لم تكن يد الله في الحبَل بيسوع من عذراء، فهي يد البشر. وهكذا نصل مع التلمود إلى القول بأنَّ مريم كانت زانية. في أيِّ حال، هذا ما لم «يقتنع» به يوسف الذي كان بارًّا.

ومن هذا السمّ، التشكيكُ بواقع الإنجيل، لأنَّ الذين كتبوه رأوا فيه تحقيقًا لما في العهد القديم. قال: «الملاحظ أنَّ جزءًا كبيرًا من هذه الأخبار ناتجٌ عن محاولات خفيَّة أو واضحة للربط بين سيرة يسوع والنبوءات» (ص ٤٩). ما في الإنجيل هو «نسيج باطنيّ» (ص ٥٤). وفي النهاية «يسوع لم يكن يسعى

إلى إيجاد ديانة خاصَّة به، بل تلاميذه هم الذين فعلوا ذلك في وقت لاحق» (ص ٤٨). يا للعباقرة! وفي النهاية ألَّهوه. جاء يطلب مُلكًا في أرض يهوذا، فصار إلهَ الكون الذي يعبده مليارانِ ونصف المليار من المسيحيِّين (وبينهم الصليبيّ على ما أظنّ)، هذا ما عدا مليارًا وأكثر يجلُّونه أكبر إجلال.

هنا أودُّ أن أشير إلى طريقة الإنجيل في تقديم العهد القديم. نقطة الانطلاق في نظر الكنيسة ليست العهد القديم، بل شخص يسوع. من خلال تعليم هذا الشخص وحياته وأعماله، حاولت أن تكتشف واقعها. كما قرأت التاريخ السابق فوجدته يصبُّ في المسيح. فموسى يجد كماله في يسوع الذي صار موسى الجديد. وإيليّا بصعوده إلى السماء صورة بعيدة عن صعود يسوع. والكلام الذي قاله الأنبياء والمزامير قد تمَّ في شخص يسوع، وإلاَّ ظلَّ ناقصًا. ما معنى كلام إشعيا عن عبد الله المتألِّم الذي جُرح لأجل معاصينا وسُحق لأجل خطايانا (٥٣: ٥) إن لم يعنِ في النهاية يسوع المسيح؟

أمّا السمُّ السمُّ فهو نظريَّة الصليبيّ بأنَّ الناصرة ليست تلك التي نعرفها. هو لم يجدها على خريطة ولا في كتاب قبل القرن الثالث، مع أنَّ أوسيب الذي كتب في القرن الرابع، ولكنَّه استقى معلومات تعود إلى القرن الثاني، قد ذكرها. ما حيلتنا، وهذه القرية لم تشتهر إلاَّ باسم يسوع؟ فالناصرة، في نظره، لم تعد قريةً في فلسطين، وفي الجليل بالذات: «فلا يوجد مكان معيَّن اسمه ناصرة» (ص ١٢٨). بل هناك قبيلة ناصرة نجدها في منطقة الطائف. ويتابع: «لعلَّ مكانًا بهذا الاسم كان يوجد هناك من قبل...» (ص ١٢٩). هنا صار اسم المكان اسم قبيلة. وفي «حروب داود» صارت أسماء الأشخاص، بل نصّ الخبر، أسماء أماكن. إلى ما تؤول كلُّ هذه الفذلكات التي لا تزعج إلاَّ السذَّج؟ فالصليبيّ يتلاعب بالكلمات دون الاهتمام بالجغرافيا ولا بالتاريخ.

والجليل في نظره، ليس ذاك الذي نعرفه، وهو المحاذي لجنوب لبنان: عاد الصليبيّ إلى «المعاجم المتوفِّرة لأسماء الأماكن والقبائل في الحجاز وسائر

الأنحاء العربيَّة» (ص ١٢٩). ماذا استخلص؟ «الجليل الذي جاء منه يسوع أصلاً كان مكانًا غيرَ الجليل الفلسطينيّ، صدف كونه يحمل الاسم نفسه. وفي يقيني أنَّ هذا المكان هو وادي جليل بمنطقة الطائف من الحجاز» (ص ٥٥-٥٦). ما الحاجة إلى الوثائق؟ يقين الدكتور الصليبيّ يكفي! حرامٌ على الحجَّاج الذي يأتون إلى فلسطين. فالأحرى بهم أن يذهبوا إلى الحجاز، وإلاَّ يكون حجُّهم باطلاً!

هل تعلَّم الصليبيّ أوَّلاً أنَّ الجليل معروف جدًّا في العهد القديم. فهناك قادش في الجليل (يش ٢٠: ٧؛ ٢١: ٣٢). ويتحدَّث سفر الملوك الأوَّل عن عشرين مدينة في الجليل أعطاها الملك سليمان لملك صور (١ مل ٩: ١١). وهناك ربط بين الجليل ونفتالي (١ مل ١٥: ٢٩)، وسهل يزرعيل (يه ١٨: ٢). إلاَّ إذا انتقلت نفتالي هي أيضًا إلى الحجاز، وضربنا صفحًا عن الحروب المصريَّة في فلسطين بغية تأمين خطٍّ عسكريّ وتجاريّ لهذه القوَّة العظمى. ويوسيفُس المؤرِّخ الذي دوَّن «العاديَّات اليهوديَّة» و«الحرب اليهوديَّة» في القرن الأوَّل المسيحيّ، أتراه أخطأ حين جاء مرَّات عديدة على ذكر الجليل؟! أجل! ففي يقين الصليبيّ: «لا وجود لأمكنة تحمل اسم الجليل إلاَّ في الحجاز». وأعفي القارئ من التفصيلات التي لا تعني الإنجيل ولا تعني المسيحيِّين من كثير ولا من قليل. فلماذا لا يأخذ هذا الباحثُ العبقريُّ القارئَ إلى الهند أو إلى الصين؟!

بعضُ من قرأ الكتاب قال عنه: سقطة المؤرِّخ. ولكنَّها ليست السقطة الأولى، ولا أظنُّها الأخيرة. فالأستاذ الصليبيّ يبدو وكأنَّه يستنبط الوثائق من يقين داخليّ أو خارجيّ، فيقرأ النصوص انطلاقًا من إيديولوجيا فُرضت عليه. فإن هو بدَّل الجغرافيا في الأناجيل، كما سبق له وبدَّلها في التوراة التي أتى بها من جزيرة العرب، فماذا يفعل بالتاريخ؟ هناك كيرينيوس الذي وُجد اسمه في منطقة دمشق. وأرخيلاوس وهيرودس وأوغسطس. هل وُجد كلُّ هؤلاء في «العربيَّة»؟ لكنَّ يسوع الذي يتكلَّم عنه، هو غير المسيح الذي جاء من عمق

الجزيرة العربيَّة يطلب مُلكًا فقده جدُّه زربَّابل بعد أن صارت الأمور مؤاتية! هنا نقول ما قاله يوحنّا في رسالته الأولى: «مَن الكذّابُ إلاَّ الذي ينكر أنَّ يسوع هو المسيح» (٢: ٢٢)؟ ونذكِّر هذا «المؤرِّخ» بالقبضة الحديديَّة التي مارستها رومة بشكل خاصّ في اليهوديَّة منذ مجيء بومبيوس سنة ٦٣ ق.م.، والتي انتهت بتدمير أورشليم سنة ٧٠ب.م. فإلى أين تسلَّل بطله هذا؟

أمّا نحن، فنقرُّ انطلاقًا من الأناجيل التي هي وثيقة تعود إلى القرن الأوَّل المسيحيّ، أنَّ يسوع وُلد في بيت لحم اليهوديَّة، وأنَّه انتقل مع أبويه، فأقام في الناصرة التي في الجليل، وهناك بدأ رسالته قبل أن يصعد إلى أورشليم ويموت هناك. وُلد في أيّام هيرودس وأوغسطس، أي خلال الحكم الرومانيّ. وتعلَّم كما يتعلَّم كلُّ يهوديّ، وعاش كما يعيش كلُّ يهوديّ في زمانه. خُتن في اليوم الثامن. حُمل إلى الهيكل في اليوم الأربعين... أجل، كان يسوع إنسانًا من عصره الذي هو القرن الأوَّل المسيحيّ، ومن بلده فلسطين التي منها جاء إلى لبنان ووصل إلى جوار صور وصيدا. إلاَّ إذا زحل لبنان أيضًا إلى منطقة الحجاز، كما يقول الصليبي. عندئذ نفضِّل أن لا نضيف شيئًا إلى ما قلناه. أمّهُ اسمها مريم. وقد سمّاها يوحنّا باسمِ ابنها «أمّ يسوع». كانت واقفة عند صليب ابنها مع أختها التي هي أمُّ يعقوب ويوحنّا، ومع مريم زوجة كلوبا التي هي أمُّ يعقوب ويهوذا وسمعان ويوسف الذين يجعلهم الصليبيّ «إخوةً» ولدتهم مريم كما ولدت يسوع. وقد حاولوا الوصول إلى المُلك بعد موت يسوع، لكنَّهم فشلوا. ما حيلتنا مع بعض «الشيع» المسيحيَّة التي تريد أن تخفض من مقام مريم العذراء لترفع شأن يسوع؟! وما حيلتنا مع الصليبيّ الذي ينكر كلَّ ما هو إلهيّ في شخص يسوع المسيح؟! ذاك كان وضعُ اليهود في عهد يسوع، ووضْع جميع الذين لفُّوا لفَّهم من بعدهم.

ج – الأسلوب

كيف توصَّل الدكتور الصليبيّ إلى ما وصل إليه. استند إلى مصادر جديدة غير المصادر الإنجيليَّة التي هي «محرَّفة»! استند إلى عمليَّة النقد الكتابيّ يخبط فيه خبط عشواء. وأخيرًا، فسَّر النصوص كما شاء عن جهل أو عن سوء نيَّة. فيا ليته ظلَّ أستاذ التاريخ – وما أدراك بعد ما رأينا وقرأنا أيَّ تاريخ علَّم!!!– كما عرفه الناس في الجامعة الأميركيَّة، ولم «يتواجه» مع موضوع هو أكبر منه، يفترض، بادئ ذي بدء، تجرُّدَ المؤرِّخ وصدقه، كما يفترض نظرة علميَّة لا تنفي الإيمان باسم نظريَّة عرفها القرن التاسع عشر فبانت هزيلة تجاه النور الذي تلقيه الأناجيل على المؤرِّخ وعلى المؤمن.

أولاً: المصادر

استهلَّ الصليبيّ بحثه بخطإ كبير جدًّا حين اعتبر أنَّ بولس هو أفضل من تكلَّم عن يسوع، لأنَّ الرسائل التي كتبها هي أقدم من الأناجيل. وبولس هذا لا يتحدَّث عن أبي يسوع، ولا يذكر والدته بالاسم، ولا يقول إنَّ يسوع وُلد من امرأة عذراء (ص ٤٧). هذه هي الحقيقة، والباقي يبقى موضوع جدال. فمن أين استقى بولس هذه المعلومات؟ أُنزل الوحي عليه إنزالاً، فما احتاج أن يعلِّمه أحد، مع أنَّه لم يرَ يسوع ولم يسمعه ولم يلمسه، شأنه شأن سائر الرسل الاثني عشر، والتلاميذ السبعين، والخمس مئة أخ الذين رأوه بعد قيامته (١ كو ١٥: ٦)؟

وما الذي يدفع «مؤرِّخنا» إلى قول ما قال؟ قراءة مجتزَأة لرسائل بولس، إذ توقَّف فقط عند الرسالة إلى الغلاطيِّين ففسَّرها كما شاء لكي تصحَّ النظريَّة. نبدأ فنطرح سؤالاً: لماذا كتب بولس رسالته إلى أهل غلاطية؟ غلاطية هي منطقة في تركيّا الحاليَّة تحيط بأنقره. بشَّرها بولس بالمسيح، ودعا الناس إلى الإيمان فآمنوا وتنظَّموا في كنائس. نشير هنا إلى أنَّ بولس لم يكن وحده في أعمال الرسالة، بل رافقه فريق عمل مثل برنابا ومرقس وسيلا... ولكن جاء أناسٌ يهود

أو مسيحيُّون، جاءوا من العالم اليهوديّ، فزرعوا البلبلة في الكنيسة، إذ أرادوا أن يعودوا بالمؤمنين إلى ممارسات الديانة اليهوديَّة. عندئذٍ كتب بولس بلهجة قاسية وسمَّى الغلاطيِّين «أغبياء» بعد أن «تحوَّلوا بمثل هذه السرعة عن الذي دعاهم بنعمة المسيح» (غل ١: ٦)، وذكَّرهم بأنَّهم مدعوُّون إلى الحرِّيَّة. ارتبط الغلاطيُّون بالمسيح، فنالوا الخلاص. إذن، لا حاجة إلى ممارسات عزفت عنها المسيحيَّة وشدَّد عليها يعقوب في ما سُمِّي «مجمع أورشليم» (أع ١٥: ٦–٣١). وفي أيِّ حال، لا حاجة إلى الختان. فقد قال بطرس في ذاك المجمع: «فما فرَّق بيننا (نحن اليهود الذي صرنا مسيحيِّين) وبينهم (أي الوثنيِّين الذين اهتدوا) في شيء. فلماذا تجرِّبون الله الآن بأن تضعوا على رقاب التلاميذ (أي المسيحيِّين الجدد) نيرًا (أي الشريعة اليهوديَّة) عجز آباؤنا وعجزْنا نحن عن حمله؟ خصوصًا ونحن (أي اليهود) نؤمن أنَّنا نخلص بنعَمة الربِّ يسوع، لا بالختان كما هم يخلصون» (أع ١٥: ٩–١١). وقال يعقوب، أخو الربّ، في الخطِّ عينه: «أرى أن لا نثقِّل على الذين يهتدون إلى الله من الوثنيِّين» (آ ١٩).

ولكن ماذا حصل؟ راعى بطرس وبرنابا اليهود خلال عشاء المحبَّة في أنطاكية، فكان بولس قاسيًا تجاه هذا التصرُّف الذي يجرح الوثنيِّين (غل ٢: ١١–١٤). هل ننسى أنَّ بطرس عمَّد أوَّل وثنيٍّ في الكنيسة هو كورنيليوس (أع ١٠)؟ إذن، هل يعني كلام بولس في غلاطية أنَّه «كان يزدري بالرسل الذين في أورشليم، وهو الذي قال عن قادتهم: مهما كانوا، لا فرق عندي» (ص ١٠٣)؟ أخذ الصليبيّ العبارة من غل ٢: ٥. اقتطعها من سياقها وقرأها كما يقرأ شهودُ يهوه الكتابَ المقدَّس. ألصق عبارة أخذها من هنا مع عبارة أخذها من هناك فصحَّت النظريَّة. هذا ما يُسمَّى الفكر التلفيقيّ.

ونقرأ غل ٢: ٥ (أو بالأحرى ٢: ٦) في نصٍّ يفضِّله الصليبيّ فيعود إلى القرن التاسع عشر ويستند إلى مخطوطات تعود إلى القرن الثالث عشر، ويعتبرها أفضل من الترجمة الإنجيليَّة الحديثة التي لم تعتمد على الأصل العبريّ والأراميّ

واليونانيّ، بل على المقابلة بين عدَّة ترجمات إنكليزيَّة للأصل (ص ١٦). كيف عرف الصليبي هذا؟ يقينُه قال له. فالمرسلون الأميركيُّون كانوا ينقلون العبريَّة إلى الإنكليزيَّة، ثمَّ ينقلها ناصيف اليازجيّ وبطرس البستانيّ إلى العربيَّة. أمّا في الترجمة الحديثة، فكان انتقال مباشر من العبريَّة إلى العربيَّة، والواحدة شقيقة الأخرى. ونحن ندعوه مثلاً إلى قراءة مز ٨٤: ٧-٨ أو أم ٥: ١٥.

«وأمّا المعتبرون أنَّهم شيء مهما كانوا لا فرق عندي». عمَّن يتكلَّم بولس؟ عن الرسل. وماذا يتوخَّى من كلامه؟ يتوخَّى أمرين اثنين: الأوَّل، التوافق مع الرسل في حقل الرسالة المزدوج: أنا «اؤتمنتُ على إنجيل الغُرلة»، «وبطرس على إنجيل الختان» (٢: ٧-٨)؛ والثاني، لا يطلب بولس وفاقًا على المستوى البشريّ، ولا بسبب سلطة ترتبط بالبشر، بل يريد الحرِّيَّة في المسيح. هذا ما يُفهمنا صعوبة المسيحيِّين الآتين من العالم اليهوديّ بأن يدركوا خلاصًا لا يمرُّ بالختان. ولكنَّ بولس سيُفهمهم أنَّ الارتباط بإبراهيم يكون بالإيمان، لا بالختان بشكل خاصّ، أو بالشريعة بشكل عامّ.

هذا في غلاطية. وماذا نجد في الرسالة الأولى إلى الكورنثيِّين؟ ارتباط بولس بالتقليد سواء تكلَّم عن الإفخارستيّا (ف ١١)، أم عن القيامة (ف ١٥). فبولس عاش في عرابية التي يمكن أن تكون منطقة حوران أو الأردنّ. هناك عرف الجماعات المسيحيَّة، فتعلَّم الكثير منها على مستوى الإيمان المسيحيّ، وعلى مستوى حياة يسوع في الجسد. وفي أيِّ حال، سيقول في ٢ كو ٥: ١٦: «وإن كنّا قد عرفنا المسيح بحسب الجسد، فالآن لا نعرفه كذلك»، أي لا نعرفه هذه المعرفة، لا نكتفي بأن نعرفه معرفة بشريَّة. هنا يردُّ بولس على الذين افتخروا أنَّهم عرفوا يسوع خلال حياته على الأرض، فاعتبروا أنفسهم «متفوِّقين» (٢ كو ١١: ٥، ١٣). لهذا حاربوا رسالة بولس، لأنَّه لم يعرف يسوع ولا كان موضوعَ اختيار من قبله، على غرار الاثني عشر. لا شكَّ في أنَّ يسوع وُلد في أرض محدَّدة. ولكن صارت كلُّ أرض أرضه، فما انحصر

في مكان وهو الذي قال لتلاميذه أن يذهبوا إلى جميع الأمم (مت ٢٨: ١٩)، وأن يكرزوا بالإنجيل لكلِّ خليقة (مر ١٦: ١٥). لا شكَّ في أنَّ يسوع وُلد في شعب. ولكن بعد قيامته، صار كلُّ شعب في العالم شعبه. وانطلقت حياتُه من تاريخ. ولكن صار تاريخُ البشريَّة كلِّها تاريخَه. وهكذا أخذت البشريَّة تعدُّ السنين انطلاقًا من سنة مولده.

وهنا نعود إلى كلام الصليبيّ الذي أورد ٢ كو ١: ٥. هؤلاء المتفوِّقون هم رسلُ المسيح. يقول عنهم بولس: «رسلاً كذبة... ماكرين، مغيِّرين شكلهم إلى شبه رسل المسيح». من يعني بولس بهؤلاء الرسل؟ يعني أشخاصًا تعلَّقوا تعلُّقًا أعمى بالشريعة فرفضوا سلطة الرسول وحاولوا أن يدمِّروا رسالته. أيمكن أن يشير بولس إلى يعقوب وبطرس ويوحنّا؟ هكذا يشوِّه كمال الصليبيّ النصّ الكتابيّ. والتشويه الأقبح هو حين يقرأ عن المسيح الغنيِّ الذي هو صورة الله فأخذ صورة العبد، الذي انتقل من الغنى إلى الفقر. أمّا الصليبيّ فقرأ ٢ كو ٨: ٩ بأنَّ يسوع (أو المسيح) كان غنيًّا بالمال فافتقر. لهذا نادى بالفقر وتوجَّه بكلامه إلى الفقراء. تلك هي القراءة الحرفيَّة، بل القراءة المادّيَّة والسطحيَّة والأصوليَّة. بعد هذا، لا نتعجَّبنَّ إن أراد أن يتحجَّر ويتقوقع في القرن التاسع عشر.

ترك الصليبيّ المصادر المعروفة، واعتبر أنَّ بولس امتلك «طروسًا» لم يمتلكها أحد. جاء بها من «العربيَّة»، وهناك تعلَّم الكثير عن «يسوع وأتباعه الأوائل الذين قدموا أرض فلسطين عن طريق عبر الأردنّ من مكان لا بدَّ أنَّه كان من العربيَّة» (ص ١٠٥). من قال هذا؟ أين هي المصادر؟ ويتابع الصليبيّ في الصفحة عينها مع عبارة «لا بدَّ» السحريَّة: «لا يُفصح بولس عن الفائدة التي جناها من زيارته للعربيَّة. لكن لا بدَّ أنَّه حصل هناك على معلومات في غاية الأهمِّيَّة شاء أن يبقيها لنفسه». ومع ذلك، استطاع كمال الصليبيّ أن يعرفها! أتركُ للقارئ أن يتابع القراءة إن كان لم يتوقَّف بعد.

هذه الطروس حوت كلَّ معلومات بولس. ولكنَّها ضاعت أو أُتلفت. ومع

ذلك، استند إليها الصليبيّ ليكتشف التعارضات والتناقضات في الأناجيل. لقد اعتبر أنَّ الإنجيل هو سيرة يسوع المفصَّلة. هذا يعني أنَّه لم يفهم ما يُسمَّى الفنَّ الإنجيليّ. فالكاتب ينطلق من أمور تاريخيَّة عن يسوع، ويقدِّمها على مستوى الإيمان. هو لا يهتمُّ بالأمور التفصيليَّة السيرويَّة إلاَّ بقدر ما تخدم مشروعه. بل شدَّد على حياة يسوع كنور لحياتنا، وعلى تعليم يسوع كمصباح لخطانا. يا ليته قرأ نهاية يوحنّا الذي يقول إنَّ الإنجيلَ لم يَكتب كلَّ شيء عن يسوع. فلو أراد لما كان العالم كلُّه يسع الكتب المكتوبة (٢١: ٢٥). وما قلناه عن الإنجيل نقوله بالأحرى عن الرسالة التي هي جواب عن سؤال أو أسئلة محدَّدة. فهل نريد لبولس مثلاً أن يقدِّم «سيرة» مريم ويوسف في مجال الحديث عن المواهب (١ كو ١٢-١٤)؟ في أيِّ حال، كانت تلك أمورًا معروفة. وهي لم تُكتب إلاّ ساعة مات الشهود أي الرسل والتلاميذ الأوَّلون.

وهناك خصوصًا مستَنَدٌ آخر هو إنجيل الأراميِّين الذي لم نجد له أثرًا. لقد ضاع أو أُتلف! ومع ذلك يستند إليه الصليبيّ حين يقرأ الكتب العربيَّة. وينسى أنَّ هذه الكتب أخذت عن الأناجيل. ويؤكِّد «الباحث» أنَّ يوحنّا عرف هذا الإنجيل في اللغة الأصليَّة، وأنَّ لوقا عرف فقط ترجمته إلى اليونانيَّة، لأنَّه لم يكن يعرف الأراميَّة. لن نضيِّع الوقت في التعرُّف إلى هذا الإنجيل الذي لا وجود له إلاَّ في مخيِّلة الصليبيّ. وكم يودُّ كاتبنا ألاَّ يكون هناك سوى إنجيل واحد! ولكنَّ هذه البدعة، أي جميع الأناجيل الأربعة في واحد، قد حاربتها الكنيسة السريانيَّة بكلِّ قوَّتها، فما تركت نسخة واحدة من هذا «التآلف» الإنجيليّ الذي شوَّه وجه المسيح. فمتّى أراد أن يصوِّر يسوع على أنَّه موسى الجديد. على جبل سيناء كانت الشريعة. وصعد يسوع إلى جبل (٥: ١ي) فقدَّم الشريعة الجديدة. قيل لكم، أمّا أنا فأقول لكم. وحدَّثنا مرقس عن يسوع الذي نكتشفه مسيحًا يستعدُّ لأنَّ يتألَّم ويفدي بحياته الكثيرين. ونكتشفه ابن الله مع قائد المئة. وكان إنجيل لوقا، إنجيل الحنان والرحمة تجاه الخطأة والفقراء

والوثنيِّين. أمّا يوحنّا فحدَّثنا عن الكلمة الذي كان لدى الله والذي صار بشرًا فسكن بيننا.

تلك هي مصادرنا الأولى. وكانت أناجيل منحولة لم تعترف بها الكنيسة. ولكنَّها مع ذلك لم تتلفها. وكلُّنا يستطيع أن يقرأها فيرى الأمور الصبيانيَّة فيها، كما في عددٍ من الكتب التي تحاول أن تشوِّه وجه المسيح. وقدَّم بولس القليل الذي عرفه عن شخص المسيح من خلال احتكاكه بالأشخاص والجماعات الذين عايشوه. غير أنَّه كان أوَّل من نقل تعليم يسوع المعطى في حضارة ساميَّة إلى حضارة أوروبِّيَّة (أو يونانيَّة). هو ما استنبط المسيحيَّة، وما ألَّه يسوع الذي لم يُرد أن يعتبره الناس إلهًا. فكيف يتجاسر اليهوديّ الذي يؤمن بالإله الواحد أن يتحدَّث عن إله آخر. أتراه انتقل إلى عالم الميتولوجيَّات اليونانيَّة وفيها ما فيها من آلهة؟! لا شكَّ في أنَّ كتابات بولس هي أوَّل ما وصل إلينا في العهد الجديد. ولكنَّ هذا لا يعني أنَّه لم تكن محاولات في هذه الكنيسة أو تلك، وصلت بنا إلى الأناجيل الأربعة التي نعرفها. وإلاَّ فكيف نفهم كلام لوقا في بداية إنجيله حين قال إنَّ «كثيرًا من الناس أخذوا يدوِّنون رؤية الأحداث التي جرت بيننا» (١: ١).

ثانيًا. النقد الكتابيّ

النقد الكتابيّ عبارة جاءتنا من عالم الغرب، لأنَّ الشرق لا يستطيع أن ينقد كتبه المقدَّسة. والنقد يعني هنا تقويم النصوص وإثبات صحَّتها. هذا يعني أنَّنا ننطلق من نصٍّ ونقابله بنصٍّ آخر، ننطلق من مرجع ونقرأه على ضوء مرجع آخر. والباحث الصادق يقدِّم فرضيَّة ولا يفرضها على الناس، ويعتبر أنَّه بالإمكان وجود فرضيَّات أخرى. أمّا عند الصليبيّ، ففرضيَّته تفرض حالها لأنَّه هو الذي قالها وإن استندت إلى نصٍّ غير موجود بين أيدينا. أجل، الباحث الباحث يتوقَّف عند كلِّ الاحتمالات ولا يفرض مسبقًا إيديولوجيَّته بل الحلّ الذي اعتبره منطلقًا لكتابه فسخَّر له النصوص.

كيف مارس الصليبيّ عمليَّة النقد هذا؟ انطلق ممّا تقدِّمه رسائل القدِّيس بولس، وهي لا تقدِّم الشيء الكثير، وفصل نصًّا إنجيليًّا عن نصٍّ آخر ليدلَّ على التضارب فيها. فأمُّ يسوع في إنجيل يوحنّا هي غير مريم التي نقرأ عنها في الأناجيل الإزائيَّة. وإن ذكر إنجيليٌّ ما لم يذكره إنجيليٌّ آخر نكون أمام تعارض. لا، لم تُكتب الأناجيلُ في أرض واحدة، ولا توجَّهت إلى كنيسة واحدة. كلّنا يعرف أنَّ إنجيل متّى توجَّه إلى جماعة يهوديَّة قبلت الانجيل، فشدَّد على أنَّ كتب العهد القديم تحقَّقت في شخص يسوع. أمّا مرقس فتوجَّه إلى أهل رومة... ولكنَّ نقطة الانطلاق تبقى واحدة: شخص يسوع وحياته وتعليمه وأعماله. لم يتمَّ التناسق بين إنجيليّ وآخر، ولم يتمَّ إتلاف إنجيل للحفاظ على إنجيل آخر. فما عرفت رومة مدَّة سنوات سوى إنجيل مرقس. وكذا نقول عن المنطقة الممتدَّة من فلسطين إلى أنطاكية. ونحن لن نجد في التفاصيل النصوص الكثيرة التي تتشابه. هذا يعني استقلاليَّة المصادر الإنجيليَّة الأربعة، وتوافقها على مستوى المعنى رغم ما يقول الصليبيّ وغيره.

أمّا الخلفيَّة فهي ذلك الإنجيل الأراميّ الذي يكشفه الصليبي في نصوص عربيَّة متأخِّرة بالنسبة إلى مخطوطات إنجيليَّة تعود في بعض أقسامها إلى سنة ١٣٠ ب.م. والنظرة الإيديولوجيَّة تجعل «إنجيل المسيح» يلد في القرن الخامس ق.م. مع زربّابل العائش في عمق الجزيرة الذي خسر ملكه بسبب الكهنة. وجاء نسلُه «المسيح» فخسر هو أيضًا المُلكَ عينَه بسبب الكهنة. أمّا ما كُتب عن يسوع فلا علاقة له بالمسيح: فنحن أمام شخصين سيأتي من يجمعهما وهو بولس الذي هو غير شاول مع أنَّ سفر الأعمال يقول «شاول الذي هو بولس» (١٣: ٩).

ونتوقَّف بشكل خاصّ عند عشاء الربّ أو الإفخارستيّا. فالخبر يعود إلى بولس الذي أخذ عنه لوقا ومرقس، مع أنَّ أوسيب القيصريّ يعتبر أنَّ مرقس كتب «مذكّرات» بطرس، ومع أنَّ سفر الأعمال يقول إنَّ مرقس انفصل عن

بولس (١٣: ١٣)، ولن يلتقيا بعد ذلك اللقاء العابر (١٥: ٣٦-٣٩) إلاّ في نهاية بولس.

نبدأ في حديثنا عن الإفخارستيّا مع سفر الأعمال الذي يتحدَّث عن الكنيسة الأولى حين تكسر الخبز. أمّا الصليبيّ فاعتبر كسر الخبز هذا طعامًا يأكله المؤمنون، مع أنَّ النصَّ يقول في الجملة عينها: «ويتناولون الطعام بفرح» (أع ٢: ٤٦). عبارةُ «كسر الخبز» قديمة قدَم الكنيسة لتدلَّ على عشاء الربّ. فبولس أخذ عن الكنيسة، عن الكنائس، ولم يعلِّم الكنائس في هذا المضمار. فهو ما عرف عشاء الربّ، إلاّ إذا كان نال وحيًا سماويًّا، أو قرأ عن هذا العشاء في «العربيَّة». في خبر العشاء نقرأ عن يسوع أنَّه «أخذ خبزًا وبارك وكسر» (مر ١٤: ٢٢). وحين روى الإنجيليُّون خبر معجزة الخبز، ذكروا هذا الكسر ليُفهموا المؤمنين ارتباط ما فعله يسوع حين كثَّر الأرغفة بما فعله في العشاء الأخير الذي صار له فيه الخبزُ جسدَ المسيح والخمرُ دمَ المسيح.

والمتحدِّث الأكبر عن العشاء الأخير هو يوحنّا (ص ١٦٠)، كما يقول الصليبيّ. غير أنّنا نعلم أنَّ الإنجيل الرابع تكلَّم عن الاستعداد لهذا العشاء وعمّا تلا هذا العشاء من كلام سُمّي خطبة الوداع والصلاة الأخيرة، ولكنه لم يذكر العشاء الأخير. فلماذا شدَّد «الباحث» على إنجيل يوحنّا؟ لأنَّه «نسخة» عن ذاك الإنجيل الأراميّ الذي ضاع أو أُتلف. ولكنَّ إنجيل يوحنّا لا يروي ما رواه متّى ومرقس ولوقا وبولس عن يسوع الذي أخذ خبزًا بيديه المقدَّستين وبارك وكسر وناول تلاميذه قائلاً: خذوا فكلوا. هذا هو جسدي. ثمَّ قال: خذوا واشربوا هذا هو دمي.

كلُّ الخبر بدأ من العشاء الأخير الذي عاشته أوّلاً كنيسة أورشلم انطلاقًا من كلام الربّ: اصنعوا هذا لذكري. فإنَّكم كلّما أكلتم من هذا الخبز وشربتم من هذه الكأس تبشِّرون بموت الربِّ إلى أن يجيء. وانتقلت ممارسة عشاء الربِّ إلى الكنائس. فأخذ لوقا وبولس تقليد أنطاكية، ومتّى ومرقس تقليد

أورشليم، كما يُعاشان في الليتورجيّا، في اجتماع اليوم الأوّل من الأسبوع، أي يوم الأحد. وما زالت الكنائس حتّى اليوم تتذكّر في الإفخارستيّا موتَ الربِّ وقيامته وصعوده.

ماذا يقول الصليبيّ؟ الأناجيل المتناسقة تأثّرت ببولس، وهو الذي جاء بمعلوماته من «العربيّة»، وقد سُجِّلت على طروس. طلب الرسول من تلميذه أن يأتيه بها. فنكاد نقول إنَّ لا علاقة ليسوع بما في هذا العشاء من معنى دينيّ: «فلو كان تلاميذ يسوع أخذوا هذا التعليم عن يسوع من قبل، لكان بولس أخذه عنهم، بدلاً من أن يأخذ الأمر باتّباعه على عاتقه» (ص ١٦٤). أجل، الحمد لله أنَّ بولس كان ذاك العبقريّ الذي أسّس المسيحيّة التي كان يجب أن تُسمّى «البولسيّة» نسبة إلى بولس. هذا ما قاله عدد من «البحّاثة» في القرن التاسع عشر. وكان الصليبيّ صادقًا مع نفسه فقال بأنّه لم يقدِّم شيئًا جديدًا. بل هو انطلق من هؤلاء النقّاد الذين انطلقوا من أمور مسبقة وقالوا ما قالوا في المسيحيّة. أمّا مقولتهم فقد عفّاها الزمان، وكلام الإنجيل ظلّ المنارة للباحثين عن يسوع المسيح.

لن أطيل الحديث في الكلام عن السبب الذي جعل يوحنّا يفترق عن بولس في «إيراده» خبر العشاء الأخير، وما فيه من تحليل يجعل القارئ العاديّ يبتسم، ولاسيّما حين يقول إنَّ إنجيل متّى ومرقس أيّدا بطرس ضدَّ يعقوب وحين يتحدّث عن قيادة «شيعة النصارى» (ص ١٦٤).

ثالثًا. تفسير النصوص

أشرنا أكثر من مرّة في هذا المقال إلى الطريقة التي بها يفسّر الصليبيّ النصوص. هناك طرق معروفة لدى العلماء تنطلق من المعنى الحرفيّ، وتقرأ النصَّ في محيطه الحياتيّ، ولا تنسى الفنَّ الأدبيَّ وهدفَ الكاتب. كلُّ هذا استغنى عنه «باحثنا»، فحملنا إلى عالم الأسرار. إلى أرض سرِّيَّة وُلد فيها

الإنجيل، إلى مكان سرّيّ وُلد فيه المسيح الذي جاء يطلب مُلكًا له في اليهوديّة، مع أنّه كان باستطاعته أن يذهب مثلاً إلى اليمن السعيدة أو إلى الهند. إلى كتاب سرّيّ ضاع. وطروس لم نجد لها أثرًا. وذهابِ بولس إلى مكان سرّيّ في «العربيّة» وحمْله معلومات سرّيّة لم يخبر بها أحدًا. فاستعملها الصليبيّ في برهانه دون أن يقول لنا كيف حصل هو عليها.

إلى أيِّ حدٍّ تقود المخيِّلةُ الإنسان فيصبح كلامه كِتلاتٍ هوائيّة تخرج أصواتًا، وهذا يكفي!...

يقول مت ٢٧: ٣-٥: «فلمّا رأى يهوذا الذي أسلم يسوع أنّهم حكموا عليه، ندم وردَّ الثلاثين من الفضّة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ... ثمَّ ذهب وشنق نفسه». ونقرأ في سفر الأعمال ما قاله بطرس حين قرّر مع سائر الرسل أن يعيِّن من يحلُّ محلَّ يهوذا في «هذه الخدمة»: «فإنَّ هذا (= يهوذا) اقتنى حقلاً من أجرة الظلم، وإذ سقط على وجهه انشقَّ من الوسط فانسكبت أحشاؤه كلُّها» (أع ١: ١٨).

إنَّ خبر موت يهوذا لا يستقيم: «فعندما صُلب يسوع الذي كان يحميه من بغض (التلاميذ) أخذ الصندوق وهرب عائدًا إلى بلاد الحجاز» (ص ٩٥). في الواقع، يتّفق النصّان على القول بأنَّ يهوذا وضع حدًّا لحياته. أمّا الأسلوب الذي به قتل نفسه، فلا نجده هو هو في إنجيل متّى وفي أعمال الرسل. وعاد كلٌّ من متّى وبطرس إلى الكتاب المقدّس وهما يحاولان أن «يفهما» ما فعله هذا التلميذ الخائن حين أسلم سيِّده وربَّه. كما حاولا أن يقدِّما درسًا للمؤمنين الذين تهدِّدهم الخيانة والجحود في كلِّ لحظة من لحظات حياتهم.

د – النتيجة والخاتمة

بعد أن جعل الصليبيّ هدفًا مسبقًا أمامه، وأخذ المنهج الذي يوافق هذا الهدف، فهل نعجب أن يكون وصل إلى هذه النتيجة؟ أو هو بالأحرى ما وصل إلى نتيجة، بل فتَّت نصوص الإنجيل، وشلَّع كلام الله، وتلاعب على الكلمات والألفاظ والحروف، فجعل المؤمن العاديّ يضطرب ويطلب الجواب. نقول أوّلاً إنَّ المسيحيَّة تترك الحرّيَّة لباحث أن يقرأ النصوص «تحت سقف العقل». فخلال حياة يسوع على الأرض، جادله اليهود أكثر من مرَّة. فأرادوا أن يرجموه. وسمّاه الكتبة والفرّيسيُّون بعل زبول، أي رئيس الشياطين. وقالوا له: أنت سامريّ (أهل للاحتقار) وفيك شيطان!

ومنذ العصور الأولى في المسيحيَّة حتَّى اليوم، هناك أناس يحاولون أن يقرأوا الإنجيل انطلاقًا من منطقهم وأفكارهم المسبقة. وهذا ما فعله الصليبيّ. فهل نخاف على يسوع المسيح؟ هل نخاف على الإنجيل؟ هل نخاف على عقيدة الثالوث وسائر العقائد المسيحيَّة؟ كلاَّ ثمَّ كلاَّ! هنا نشير إلى أنّنا نملك ٥٠٠٠ مخطوط للعهد الجديد. والعلماء يدرسونها ليروا الاختلاف بين نصٍّ ونصٍّ ولا يخافون من خطإٍ وقع فيه الناسخ. وهناك الشرّاح العديدون في الطوائف المختلفة والمدارس المتعدِّدة. ولكنَّهم انطلقوا من النصوص التي بين أيديهم، لا من نصوص اعتُبرت ضاعت أو أُتلفت. كما اعتبروا أنَّ أرض فلسطين هي أرض الكتاب المقدَّس بعهديه القديم والجديد. أمّا طريق الصليبيّ فهي تصل بنا في النهاية إلى الجزيرة العربيَّة. وأذكر، بعد صدور كتاب «التوراة جاءت من جزيرة العرب» الذي طُبع في أكثر من لغة، أنّي سألت عن ردَّة الفعل، فابتسم أكثر من أستاذ. ويا ليتنا نسألهم عن رأيهم في هذه «القراءة الجديدة في الأناجيل». ما أتعس هذه الكنيسة التي تبحث عن يسوع، وتنتظر من مثل هذا الكتاب ليدلَّها عليه!

وإليك مع ذلك النتيجة الخرافيَّة التي وصل إليها الصليبيّ. فهي تصلح لأن تكون سيناريو لفيلم من أفلام الخيال: «كان يسوع ابن يوسف النجّار المعروف «بالناصريّ» (من ناصرة العربيَّة، لا من ناصرة الجليل في فلسطين) أميرًا من بيت داود. اقتدى بجدٍّ له اسمه زربّابل، فحاول الوصول إلى المُلك على إسرائيل، منفقًا على مسعاه ما كان قد ورثه عن أبيه من مال (إذن، كان غنيًّا فافتقر). ومن الإسرائيليّين في زمانه، من غير اليهود، من كان لا يزال ينتظر «المسيح» من بيت داود ليعيد المُلك إلى الشعب الإسرائيليّ، فاعترف بيسوع على كونه ذلك المسيح، وهبَّ لنصرته...» (ص ١٦٨). المهمّ أنَّ هذا المسيح مات. وحاول إخوته أن يكمِّلوا المسيرة، فكانوا ضعفاء... «واكتشف بولس أنَّ يسوع الناصريّ الذي مات معلَّقًا على الصليب لم يكن محض أمير من بيت داود... بل ابنًا لله» (ص ١٧٠). فشكرًا لبولس الرسول!

هذه جولات في كتاب كمال الصليبيّ «البحث عن يسوع. قراءة جديدة في الأناجيل». أراد أن يكون «مؤرِّخًا»، فتلاعب بالمصادر والنصوص وفسَّرها على هواه، وهكذا خسر صفة المؤرِّخ، فصار ذاك الذي يتحايل على التاريخ من أجل فكر مسبق لا يسنده إلاَّ «يقينه» الشخصيّ الذي هو معرفة أين منها معرفة الوحي. وأراد أن يكون «باحثًا» عن يسوع، فراح إلى عمق الجزيرة العربيَّة وإلى القرن الخامس ق.م. مع زربّابل، فاكتشف هناك إنجيلاً سبق الأناجيل. كما اكتشف طروسًا حملها بولس معه من «العربيَّة» وإنجيلاً أراميًّا استقى منه أكثر ما استقى يوحنّا. ولكنَّ هذه الطروس ضاعت أو أُتلفت منعًا لكلِّ تحريف في الكتب المقدَّسة. ومع أنَّ بولس لم يفصح عمّا في مضمونها، إلاَّ أنَّ الصليبيّ عرف مضمونها. والإنجيل الأراميّ الذي بحث عنه الصليبيّ هو في الواقع نصٌّ غائب، ساعةَ يستند المسيحيُّون في إيمانهم إلى نصٍّ موجود هو الأناجيل الأربعة وسائر نصوص العهد الجديد. لهذا، كانت النتيجة هزيلةً جدًّا. فبدا الصليبيّ مثل جحا الذي كسر مزراب العين فعرف به الجميع بعد أن

كان مجهولاً في القرية. أما هكذا فعل هذا الذي كان أستاذ التاريخ في الجامعة الأميركيَّة، فطلب الشهرة في فرضيَّة تبدأ بعيسى بن مريم العربيّ وتنتهي عند نصٍّ أصليّ غامض وغائب هو إنجيل النصارى؟

يا ليته ظلَّ على مستوى الأدب بما فيه من خيال روائيّ ولم يعدنا بنظرة علميَّة تتاجر بالمسيح وفي النهاية تبيعه، قبل أن تختفي في أرجاء «العربيَّة» التي تبدأ في الأردنّ فتصل إلى الطائف والحجاز ونجران.

ولتغِبْ فلسطينُ إلى غير رجعة!

أوَليس هو هذا المقصود من مثل تلك المماحكات؟

الفصل العاشر

البحث عن يسوع، انجيل جديد

تشكك الكثيرون من كتاب الصليبي بعنوان «البحث عن يسوع. قراءة جديدة في الأناجيل»، فكان لنا أيضًا هذا الردّ في **المجلّة الكهنوتية**.

أ – المقدّمة

ب – الانجيل الأرامي

ج – كلمة الله حيّة

د – لا يُصغون إلى الخرافات وذكر الانساب

هـ – الخاتمة.

أ – المقدّمة

بين العامين ٢٧ و٣٦ انطلق أمير يهوديّ من عمق الجزيرة العربيّة يطالب بملكه. توفّي أبوه وهو البكر، فتذكّر جدّه زربّابل الذي أُبعد عن المُلك بسبب الكهنة العائدين من المنفى. ما رضي بكلّ الجزيرة العربيّة، بما فيها اليمن السعيد، بل أراد أن يكون ملكًا على يهوذا، وأعلنه تبّاعه ملكًا. ولكن كرّر التاريخ نفسه. فقبض الكهنة أيضًا على هذا الملك، الذي هو المسيح، وبموافقة سلطة رومة، قتلوه. وحاول إخوته أن يتابعوا عمله، فلم يكونوا على قدر المقام. وهكذا انتهت قصّة المسيح. لا، ما انتهت. فقد جاء شخص عبقريّ اسمه بولس أو شاول، لست أدري، فألّه هذا المسيح باسم يسوع. وهكذا دوّنت الأناجيل معتبرة أنّ يسوع هو الربّ وابن الله. هذا هو الإنجيل الجديد الذي يقدّمه الدكتور كمال الصليبيّ، وهو يريد أن يساعد على «البحث عن يسوع» بعد أن أضاعته الكنيسة على مدى ألفَي سنة من الزمن.

لا شكّ في أنّ مثل هذا المسيح لا يعنينا نحن المسيحيّين، بل لا يعني كلّ باحث دينيّ يحترم نفسه ويحترم النصوص التي بين يديه. ولكن يُطرح السؤال: كيف توصّل الدكتور الصليبيّ أن يكوّن لنفسه هذه الصورة، فيسمّيها «قراءة جديدة في الأناجيل»، مع أنّها قديمة جدًّا؟ تلاعب بالمصادر، تلاعب بالنصوص، تلاعب بالتفسير، فكان له هذا الوجه المشوّه الذي يشبه إلى حدّ بعيد وجه يسوع في آلامه بعد أن جُعل الصولجان في يده والإكليل على رأسه والرداء الأرجوانيّ على جسده.

ب – الإنجيل الأراميّ

بدأ الصليبيّ بحثه في المصادر. هناك إنجيل قبل الأناجيل. جاء به بولس من «العربيّة» وقد تكون الجزيرة العربيّة، بعد أن صار الجليل في الحجاز وكذلك الناصرة. في إحدى رسائل بولس المتأخّرة، طلب من تلميذه تيموتاوس أن يأتيه بالطروس أي الكتب. وما أدراك ما هذه الطروس؟ هي وحي تلقّاه بولس مباشرة من الله، فما احتاج إلى أن يعلّمه أحد. ولكي يبرهن الكاتب عن رأيه، قرأ رسالة بولس إلى أهل غلاطية من منظار ضيّق، دون أن يضعها في إطارها. واكتشف أنّ بولس هو في الواقع «مؤسّس المسيحيّة»، كما قال عدد من علماء أوروبّا في القرن الفائت (التاسع عشر). يا ليته قرأ الرسالة الأولى إلى كورنتوس، حيث يقول الرسول: سلّمت ما تسلّمت. أجل، مضى بولس إلى «العربيّة» أي إلى مناطق حوران في سورية، حيث كان للحارث سلطة، فتعلّم الكثير من الجماعات المسيحيّة هناك، وقدّم تعليمه في رسائله. أتُرى هذا الذي ذكر اسم يسوع، يسوع المسيح، المسيح يسوع، ما يقارب الثلاثمئة مرّة، سيطر على الربّ وخلق له شخصيّته؟ في أيّ حال، اعتاد الدكتور الصليبيّ على فصْم الشخصيّات. فيسوع هو غير المسيح. وبولس هو غير شاول. ومريم غير أمّ يسوع. أتُرى سمعان غير بطرس؟ ويمكن للسلسلة أن تتتابع فيضيّع الواحد منا شخصيّته!

ولكنْ، في نظر الصليبي، المصدر الأهمّ للأناجيل هو الإنجيل الأراميّ الذي لم نجد له أثرًا بين الأناجيل المنحولة. هنا نلاحظ تلاعب الصليبيّ بالتاريخ. فالكاتب أوسيب (أو يوسابيوس كما يسمّيه) يربط الإنجيل الأراميّ بمتّى. أمّا الدكتور الصليبيّ فيجعل يوحنّا يأخذ مباشرة من الإنجيل الأراميّ، وهو ذلك العارف الأراميّة. كما يجعل لوقا يأخذ مباشرة من الإنجيل الأراميّ مترجمًا. وماذا عن مرقس الذي إنجيله أراميّ في درجة عميقة؟ ومتّى؟

كلّنا يعلم أنّ المسيح تكلّم اللغة الأراميّة، وسمعه الناس وبينهم تلاميذه. وأخذوا هم بدورهم يبشّرون في هذه اللغة. أمّا الواقع، فهو أنّ الأناجيل

وصلت إلينا كلُّها في اليونانيَّة. فأُعيدت كتابتها، لا ترجمتها، وإن كانت فيها روح ساميَّة لا يمكن أن تتخلَّى عنها. فأساسها أراميّ. أساسها يسوع المسيح: ما عاشه، ما قاله، ما عمله. فما كان دور بولس في الأناجيل؟ لم يكن له دور مباشر بل (يقول الصليبيّ) أثَّر على لوقا ومرقس، هذا مع العلم أنَّ مرقس ترك بولس والتحق ببطرس فاعتُبر «ترجمان» بطرس وكاتبَ «مذكَّراته» عن يسوع. والمهمّ في نظر الكاتب هو أنَّ بولس كان أوَّل من كتب في اليونانيَّة. إذن، هو أساس الأناجيل. وهو أكثر من عرف يسوع، مع أنَّه لم يره، لم يسمعه، لم يلمسه، كما يقول يوحنّا في رسالته الأولى. كان هناك لقاء روحيّ بين يسوع وبولس على طريق دمشق، ولكن وجب على بولس أن يمضي إلى الكنيسة في دمشق، وهناك يعمِّده شخص لا نعرف شيئًا عنه، هو حنانيا، كما تعرَّف إلى سائر الكنائس في العربيَّة وفي أورشليم، ومنها تعلَّم الشيء الكثير عن يسوع. وقد هاجمه الخصوم على أنَّه لم يعرف يسوع بالجسد فكان جوابه: «إذا كنّا عرفنا يسوع يومًا حسب الجسد، فنحن لا نعرفه الآن هذه المعرفة». فخصوم بولس يفتخرون بأنَّهم عرفوا يسوع «التاريخيّ». أمّا بولس فيريد أن يصل بنا إلى يسوع الحيّ اليوم في كنيسته. وبعد ذلك، ينطلق الصليبيّ من بولس ليقول إنَّه لم يعرف اسم مريم، أمِّ يسوع. وما هو برهانه؟ لم يذكر الرسول اسمها. أتُرى بولس يكتب سيرة يسوع أم يقدِّم شهادة عنه في رسالة تشير إلى وضع محدَّد يربط يسوع بالعالم اليهوديّ؟

قال: «لمّا تمَّ ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة، مولودًا تحت الناموس ليفتدي الذين هم تحت الناموس فننال نعمة التبنّي» (غل ٤ : ٤). مصادر الصليبيّ مصدران: هذه الطروس التي جاء بها بولس من «العربيَّة»، هذه المنطقة السحيقة، والإنجيل الأراميّ الذي قرأه العرب. فيا ليتنا نكتشف هذين المصدرين فنكتشف يسوع «في الجسد» لا كما ألَّهه بعض الغلاة وما زالت الكنيسة تؤلِّهه، والمسيحيُّون يعبدونه كإله من إله، نور من نور، إله حقّ من إله حقّ. ويؤلِّهه الصليبيّ، على ما أظنّ، إلاَّ إذا كان عاد بإيمانه إلى اليهوديَّة أو قبل ذلك.

ج – كلمة الله حيَّة

هكذا سمّاها العهد الجديد، وهي أقوى من سيف ذي حدَّين. فصارت بين يدي الصليبيّ حرفًا ميِّتًا، وجثَّة هامدة ومشلَّعة. فبعد أن تلاعب بالمصادر، تلاعب بالنصوص فاختار منها ما اختار من أجل نظريَّته. فما يوجِّه عمل الدكتور الصليبيّ هو إيديولوجيَّة معروفة منذ «التوراة التي جاءت من جزيرة العرب». وهذه الإيديولوجيًّا تفرض نفسها على قراءة التاريخ، تسيطر على قراءة التاريخ، بل تشلِّع التاريخ من أجل مآربه الشخصيَّة ونظراته المسبقة. آخذُ مثلاً واحدًا هو مثل مريم العذراء أمِّ يسوع. ففي إنجيل متَّى ولوقا، نفهم فهمًا واضحًا أنَّ مريم كانت بتولاً في ولادتها ليسوع. يقول متَّى إنَّ مريم كانت حبلى قبل أن تكون مع يوسف. والسبب لا يفهمه إلاَّ المؤمن، لأنَّه سبب إلهيّ سيوضحه متَّى فيربطه بالروح القدس. ولكنَّ اليهوديّ يعتبر أنَّ مريم كانت زانية. ويتابع الصليبيّ فيعلن أنَّ يوحنّا لم يسمِّ مريم باسمها، بل قال: أمّ يسوع. وشدَّد على «أمّ يسوع»، أمّه (= يسوع)، ليقول لنا إنَّ أمّ يسوع لم يكن اسمها مريم. وبما أنَّه وضع نظرته قبل الأناجيل التي تبقى وثيقة قديمة بين أيدينا، جعل النصوص تتناقض وتتعارض. عندئذ استند إلى إنجيل يوحنّا، وهو الذي لم يعرف أن يقرأه، فاعتبر أنَّ أخت أمِّ يسوع اسمها مريم. إذن، مريم العذراء ليست مريم. فابحثوا لها عن اسم آخر حتَّى يصحَّ قول «التاريخ» الجديد.

وهذا هو النصّ: «وكانت واقفة عند صليب يسوع أمُّه، وأخت أمِّه، ومريم زوجة كلوبا، ومريم المجدليَّة». وهكذا نكون أمام أربع نساء عند الصليب. هذا هو الواقع الذي أشار إليه الإنجيليّ، واستخلص منه الرمز: إذا كانت المرأة تمثِّل الشعب والأمَّة، فهذه النساء الأربع يمثِّلن العالم كلَّه واقفًا بقرب صليب المسيح الذي مات ليجمع أبناء الله المشتَّتين ويوحِّدهم.

ويمكننا أن نقابل نصَّ يوحنّا هذا مع نصِّ مرقس الذي يقول لنا من كان مع

مريم عند الصليب: مريم المجدليَّة، مريم أمّ يعقوب الصغير ويوسي ابنَي زوجة كلوبا، وسالومة (التي هي أمُّ يعقوب ويوحنّا وأخت مريم العذراء). ويتابع نصُّ مرقس: «وغيرهنَّ كثيرات صعدن مع يسوع من أورشليم.»

في هذين النصَّين، تنتهي قصَّة إخوة يسوع، الذين هم في الواقع أولاد كلوبا ومريم أخرى غير مريم العذراء. كما نفهم أنَّ يسوع كان الابن الوحيد لمريم. فلو كان له إخوة، لما سلَّم أمَّه إلى التلميذ الحبيب. وأخيرًا، كانت مريم في بيت أختها. هذا على المستوى البشريّ، أمّا على المستوى الروحيّ، فمريم هي مع التلميذ الحبيب الذي يمثِّل سائر التلاميذ الذين رأوا أولى آيات يسوع في قانا الجليل، فأبصروا مجده وآمنوا به.

ويُطرح السؤال: لماذا لا نجد اسم مريم في الإنجيل الرابع الذي «عرف الإنجيل الأراميّ» (كما يقول الصليبيّ) في اللغة الأصليَّة؟ هنا نجيب نحن: رفض يوحنّا أن يذكر اسمه واسم أخيه واسم والديه، مع أنَّ هذه الأسماء ذُكرت في الأناجيل الإزائيَّة (أو المتنافسة كما يسمِّيها الكاتب). وهو لم يذكر أيضًا اسم سالومة خالته. هذا ما يدلُّ على خفر وحياء ورهافة إحساس. فمن لم يكن يعرف اسم مريم في الكنائس التي أسَّسها يوحنّا ورفاقه، في فلسطين وأنطاكية وصولاً إلى أفسس؟

د – لا يصغون إلى الخرافات وذكر الأنساب

ونعود إلى «مؤسِّس المسيحيَّة»، إلى بولس الذي يفترق كلَّ الافتراق عن شاول، بحسب نظرة الصليبيّ، مع أنَّ نصَّ سفر الأعمال يقول بالحرف الواحد: شاول الذي هو بولس. والسبب في هذا التبديل، هو أنَّ اليهود اعتادوا أن يكون لهم اسم في العالم اليونانيّ وآخر في العالم الساميّ، هذا مع العلم أنَّ «شاول» لفظة لها رنَّتها السيِّئة في اللغة اليونانيَّة، وإن عنت في العبريَّة: ذلك الذي سألته أمُّه وطلبته من الله. على كلِّ حال، فبولس هذا الذي كتب كلَّ رسائله قبل الأناجيل، ومن لا يعرف هذا الأمر التاريخيّ، علَّم الإنجيليِّين كيف يكتبون. ننطلق منه كي نتعلَّم التفسير فلا نتلاعب بالنصوص.

ونتوقَّف فقط عند الإفخارستيّا، أو العشاء الأخير. يبدأ الصليبيّ فيقول إنَّ يوحنّا روى خبر هذا العشاء، مع أنَّ القارئ البسيط يرى أنَّ الإنجيل الرابع تحدَّث فقط عن غسل الأرجل قبل ذلك العشاء ليدلَّ على واجب الخدمة والتواضع، كما تكلَّم عن آلام يسوع التي يشاركه فيها بطرس، ثمَّ عن خيانة يهوذا. ولكنَّه لم يورد خبر العشاء السرِّيّ. وفي أيِّ حال، يقول الصليبيّ، ولو روت الأناجيل الأربعة خبر العشاء، فقد أخذته عن بولس الذي أخذه مباشرة من الربّ. هكذا اعتاد الغنوصيُّون أن يقولوا، وهم الذي يعتبرون أنَّ المعرفة جاءت إليهم دون العودة إلى تقليد الكنيسة. وقد أعطى بعضهم دورًا كبيرًا للمجدليَّة (كما فعل الصليبيّ) على حساب الرسل.

ولكنَّ أعمال الرسل تحدَّثت عن العشاء الربَّانيّ منذ بداية الكنيسة. فقال لوقا: «كانوا يداومون على الاستماع إلى تعليم الرسل وعلى الحياة المشتركة وكسر الخبز والصلاة» (أع ٢: ٤٢). ويقول بعد ذلك ببضع آيات: «كانوا يلتقون كلَّ يوم في الهيكل بقلب واحد، ويكسرون الخبز في البيوت، ويتناولون الطعام بفرح وبساطة قلب...» (أع ٢: ٤٦). ولكنَّ هذا الكلام لا يصحُّ لدى الصليبيّ الذي اعتبر كسر الخبز أكلاً عاديًا. فيقول: «وإذ هم يكسرون الخبز

(أي يأكلون) في البيوت كانوا يتناولون الطعام». لماذا هذا التكرار لدى كاتب من مستوى لوقا؟ فالقارئ المسيحيّ كان يعلم أنّ كسر الخبز هو عشاء الربّ. أما هذا الذي فعله بولس في ترواس فاحتفل بما نسمّيه اليوم «الذبيحة الإلهيّة»؟ يقول سفر الأعمال في الفصل العشرين: «في يوم الأحد، اجتمعنا لكسر الخبز. فأخذ بولس يعظ الحاضرين». وفي النهاية كسر الخبز، أي احتفل بالإفخارستيّا، فصار الخبز بين يديه جسد المسيح والخمر دم المسيح.

ويدهشنا أن يكون بولس أدرى بالعشاء الربّانيّ من مرقس الذي اعتادت الكنيسة الأورشليميّة أن تجتمع في داره. فبعد نجاة بطرس من السجن، يقول سفر الأعمال إنّ بطرس «ذهب إلى بيت مريم أمّ يوحنّا الملقّب بمرقس» (أع ١٢: ١٢).

وإذا درسنا نصوص تأسيس العشاء الربّانيّ في الأناجيل المتناسقة (أي متّى ومرقس ولوقا)، وفي رسالة بولس الرسول الأولى إلى كورنتوس، نرى أنّ متّى يسير مع مرقس، ولوقا مع بولس. هذا يعني أنّنا نعرف اليونانيّة لنكتشف معنى الكلمات. ولكنّ الصليبيّ يقرّ أنّ معرفته باليونانيّة محدودة، ونحن نغفر له هذا التسرّع في الحكم، كما نغفر له تفضيل ترجمة على ترجمة بعد أن صار الحكم في شأن الكتاب المقدّس الذي بدأ يتيه معه في «العربيّة» التي تمتدّ من الأردنّ إلى المحيط الهنديّ، فلا نعود نعرف أين نكتشفه ولاسيّما بعد أن فصل التاريخ عن الجغرافيا، والتنقيب عن علم اللغة، وتلاعب بالنصوص وتفسيرها كما يشاء.

أجل، هناك تقليد أورشليم عن العشاء الربّانيّ (نجده في متّى مرقس وخصوصًا مع لفظة بارك)، وتقليد أنطاكية (مع لفظة شكر التي منها جاءت كلمة إفخارستيّا). تلك هي طريقة الصليبيّ في تفسير النصوص واقتلاعها عن محيطها لتخدم أفكاره المسبقة. ولا نقول شيئًا عن مغامرة يهوذا الذي باع هذا الملك اليهوديّ (المسيح الذي صار يسوع) المغترّ بنفسه، ومضى

بالمال إلى عمق الجزيرة العربيّة ليعيش هناك بأمان. وقد يكون تزوّج... كما لا نقول شيئًا عن المجدليّة التي هي تارة عشيقة يسوع وطورًا خادمة بين النساء اللواتي يخدمن المسيح الذي لم يكن متزوّجًا. نترك القارئ أن يبتسم تجاه هذه المتاهات التي تنطلق من نصوص ميّتة لم تعد تنبض فيها حياة يسوع.

ونعود إلى نقطة البداية، إلى هذا الملك الذي اسمه المسيح، الذي جُمع مع يسوع وهو لا يريد ذلك. فأين وجد الصليبيّ اهتمام يسوع بالمُلك، وهذا الصراع المرير بين التلاميذ؟ فقد أعطى يسوع المعنى الحقيقيّ لملكه أمام بيلاطس: مملكته ليست من هذا العالم. كلّ ما جاء يفعله هو أن يشهد للحقّ (يو ١٨: ٣٦-٣٧). وهذا ما يقوله إنجيل يوحنّا المرتبط «بالإنجيل الأراميّ». وبعد تكسير الأرغفة، يروي يوحنّا نفسه أنّهم أرادوا أن يأخذوه ويقيموه ملكا، فابتعد عنهم (يو ٦: ١٥). وفي أيّ حال، جرّبه الشيطان بهذه المملكة، فما اهتمّ يسوع لهذه التجربة.

وماذا نقول عن لقب المسيح الذي يعني ذاك الذي اختاره الربّ (بواسطة الجماعة أو القرعة) ومسحه (الكهنة) بالزيت المقدّس. أوّلاً، نفهم أنّ يسوع لم يسمّ نفسه يومًا المسيح. بل سمّى نفسه ابن الإنسان الذي يتألّم كثيرًا ويموت ويقوم. لا شكّ في أنّ الناس أخطأوا في هويّة «المسيح». انتظروه ذاك الذي يقهر الأعداء، يطرد الرومان... ولكنّ يسوع رفض أن يقف عند هذا المستوى. وحين نقرأ إنجيل مرقس مثلاً، نرى كم تهرّب يسوع من كلّ دعاية بعد معجزاته. وعنه قال متّى موردًا كلام النبيّ إشعيا: «لا يماحك ولا يصيح ولا يسمع أحد صوته في الشوارع». وحين أعلن بطرس أنّ يسوع هو المسيح، هنّأه يسوع (كما يقول متّى)، ولكنّه سوف يوبّخه، لأنّه نسي أنّ هذا المسيح سيمرّ في الألم قبل أن يصل إلى المجد. وفي أيّ حال، هذا ما قاله لتلميذَي عمّاوس: «كان ينبغي على المسيح أن يعاني هذه الآلام فيدخل في مجده» (لو ٢٤: ٢٦). ومجده ليس مجدًا زمنيًّا، كما أنّ غناه لم يكن غنى زمنيًّا. في هذا

المجال، فسَّر الصليبيّ كلام بولس عن المسيح الذي كان غنيًّا وافتقر، على المستوى الماديّ، كان لديه المال الكثير فخسره. من أين المال لهذا الذي وُلد في مغارة ولُفَّ بالقماطات كما لُفَّ كلُّ الأطفال ولم يكن له موضع يُسند إليه رأسه؟ ولكنَّ غناه أنَّه صورة الله غير المنظورة بكر كلِّ خليقة. وله تسجد كلُّ ركبة في السماء وعلى الأرض (في عالم الأحياء) وتحت الأرض (في عالم الموتى). ولكن أترى الصليبيّ يقبل بلاهوت المسيح؟ كيف يقول: أنا هو خبز الحياة، أنا هو القيامة والحياة، أنا هو (كما في العلّيقة الملتهبة مع موسى)؟ من يقول هذا إلاَّ الله؟ هذا ما سبق الفرّيسيُّون فقالوا: «من يستطيع أن يغفر الخطايا إلاَّ الله وحده؟» وماذا لو كان هذا الإنسان الذي أمامنا هو أيضًا ابن الله؟ ولكن ماذا نفعل بهذا «الكتاب الخاصّ بالنصارى الذين كانوا يؤلّهون يسوع» (كما يقول الصليبيّ)؟ أتركُ هنا جانبًا الأخطاء والجهل عن كنيسة أورشليم الأولى ودور الختان فيها، ولا أقول لهذا «الباحث» إنَّ بطرس في الخطبة الأولى بعد العنصرة قال: «إنَّ الله جعل يسوع هذا الذي صلبتموه أنتم ربًّا ومسيحًا» (أع ٢: ٣٦). أجل يسوع هو المسيح. الإنسان الذي قُتل يوم الجمعة العظيمة هو ذاك القائم من الموت، ولا تزال آثار جراحاته في يديه ورجليه وفي قلبه. فلا نفصل يسوع التاريخ (الذي وُلد في بيت لحم، وعاش في الناصرة، وبشَّر في الجليل واليهوديَّة) عن مسيح الإيمان كما عرفه تلاميذه بعد قيامته. ففي مر ١٦: ٦ نفهم أنّ ذاك الذي هو يسوع الناصريّ قد قام. وفي خبر تلميذَي عمّاوس (لو ٢٤: ٢٦) نعرف أنَّ ذاك الذي عانى هذه الآلام هو الآن في المجد. وإذ يجعلنا يوحنّا نرى آثار جراح المسيح، يفهمنا أنَّ يسوع الذي حكم عليه بيلاطس بالموت هو الآن وسط تلاميذه لينفحهم بروحه القدُّوس (يو ٢٠: ٢٠-٢٢).

هـ – الخاتمة

صدر كتاب كمال الصليبيّ «البحث عن يسوع. قراءة جديدة في الأناجيل» فاضطرب الناس. أمّا أنا فما اضطربت. ولو لم يضطرّني الأصحاب، لما كنت أضعتُ الوقت في قراءة كتاب لا يعرف من النصِّ الإنجيليّ سوى قشوره. وهو في أيِّ حال لا يعرف الإنجيل الذي هو شخص حيّ واسمه يسوع المسيح. منذ قلسيوس الذي ردَّ عليه أوريجان، إلى «برنابا» الذي ترك لنا إنجيلاً بعد أن مرق على دينه وأراد أن ينتقم من الكنيسة لسبب من الأسباب، إلى «بحّاثة» عديدين في القرن التاسع عشر تخلّوا عن رسالة تجنّدوا لها، إلى كمال الصليبيّ وغيره وغيره من حلقة يسوع التي تعمل في الولايات المتّحدة الأميركيَّة وغيرها من الحلقات، عرفت الكنيسة كلامًا عن يسوع وعن الأناجيل. فالمسيحيَّة معتادة على ذلك، وهي في عمقها تحافظ على حرِّيَّة الرأي. والكنيسة التي قال يسوع إنَّ أبواب الجحيم لا تقدر عليها، تبقى هي هي رغم كلِّ «الهرطقات» (والهرطقة تقوم بأن نأخذ شيئًا ونترك الشيء الآخر لأنه يوافق إيديولوجيتنا). في أي حال، مات هؤلاء الأشخاص وماتت معهم نظرياتهم. أما يسوع المسيح فهو هو. أمس واليوم وإلى الأبد. وكلمته تبقى أبدَ الدهور.

الفصل الحادي عشر

معلومات عامة حول العهد الجديد

في هذا الفصل حاولنا أن نتبع بولس الرسول وزربابل ويسوع الناصري وأمورًا أخرى. وهي تبدو كما يلي:

أ – بولس ورسائله

ب – زربابل جدّ المسيح

ج – يسوع الناصري

د – العهد الجديد للمسيحيين

هـ – يهوذا الصديق.

أ- بولس ورسائله

«بعد الكلام عن العهد القديم، نصل إلى العهد الجديد. ونعرف ثلاث عشرة (رسالة) بقلم الرسول بولس» (ص ١٢). لا شكَّ في أنَّ كاتبنا، نسيَ أنَّ الرسالة الأولى إلى تيموتاوس وتلك التي إلى تيطس، والثانية إلى تسالونيكي وربَّما أفسس، لم تكن بقلم بولس. ولو هو قرأ رو ١٦: ٢٢: «أنا ترتيوس كاتب هذه الرسالة، أسلِّم عليكم في الربّ» نفهم أنَّ مقاله لا يدلُّ على الدقَّة في الكلام حتَّى بالنسبة إلى الرسالة إلى رومة التي هي أكبر الرسائل البولسيَّة.

«الأناجيل الأربعة» (ص ١٢). إذا عدنا إلى النصِّ اليونانيّ، لا نجد أسماء تثبت هذه الأناجيل. فالتقليد ربطها بكلٍّ من متَّى ومرقس ولوقا ويوحنّا. وجرت العادة بأن يقال: هناك رسولان، متَّى ويوحنّا. وتلميذان ارتبطا ببطرس (مرقس) وببولس (لوقا). ولكن نحن نتسلَّم الأناجيل من يد الكنيسة ونعرف تقريبًا متى دُوِّن كلُّ إنجيل. فإنجيل مرقس حوالي سنة ٦٩-٧٠. فهو لا يذكر سقوط أورشليم بيد تيطس وفسباسيان سنة ٧٠. ولوقا ومتَّى، بعد سنة ٧٠، بدليل ما نقرأ في مت ٢٤: ١٥ي حول الضيق العظيم الذي يحلُّ بالمؤمنين. وما في لو ٢١: ٢٠: «ومتى رأيتم أورشليم محاطة بالجيوش، فاعلموا حينئذ أنَّ خرابها اقترب.» أمّا يو ٩: ٢٢ فيفهمنا أنَّ الإنجيل الرابع كُتب بعد مجمع ينة (أو: يمنية) الذي انعقد حول سنة ٩٠ ب.م. في هذا المجمع تعاهد اليهود بأن يطردوا من المجمع «كلَّ من يعترف بأنَّ (يسوع) هو المسيح.»

والخطأ الكبير: «رسائل بولس، إذن. هي أهمُّ المصادر التي لدينا للبحث عن حقيقة يسوع» (ص ١٤). لست أدري من أين أتت الأداة «إذن». فأيُّ برهان أتى لكي نصل إلى هذا الاستنتاج؟ ثمّ نسأل: هل عرف بولس يسوع المسيح خلال حياته على الأرض؟ كلاَّ ثمَّ كلاَّ. إذًا، ما قاله بولس سمعه من الكنائس التي راح يعيش فيها بعد اهتدائه واعتماده على يد حنانيا (أع ٩: ١-١٩). وقال بولس في الرسالة إلى غلاطية إنَّه مضى «إلى العربيَّة» وقضى

هناك «ثلاث سنوات» (١: ١٧-١٨). كم نخطأ حين نقرأ غل ١: ١١ ونفهم أنَّ بولس لم يحتج إلى أحد ليخبره عن يسوع. بل، وصل إليه كلُّ شيء «بإعلان يسوع المسيح». ما معنى «الإنجيل ليس بحسب إنسان»؟ يعني: ليس إنجيلاً بشريًّا، يرافق ميول الناس». أمّا ما أعلن له يسوع المسيح، فهو أنَّه القائم من بين الأموات بعد أن صُلب ومات ودُفن. قال اليهود إنَّ التلاميذ سرقوه ليلاً (مت ٢٨: ١٣)، ممّا يعني أنَّه مات وما قام. ولكن لمّا ظهر له الربُّ على طريق دمشق، تيقَّن أنَّه حيّ وأنَّه قام. فلا حاجة للعودة إلى العالم اليهوديّ وأخباره الكاذبة عن يسوع وأوَّلها حول زنى مريم مع جنديّ رومانيّ، كما يقول التلمود. وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا إلى مستوى سرِّ التجسُّد والكلام عن ابن الله الذي صار بشرًا ليكون بيننا، فشابهوا نيقوديمس الذي لم يفهم «الولادة الثانية»، وطرح سؤالاً صبيانيًّا: «كيف يمكن الإنسان أن يُولَد وهو شيخ؟ ألعلَّه يقدر أن يدخل بطن أمِّه ثانية ويُولَد؟» (يو ٣: ٤). بدأ نيقوديمس كلامه: «نحن نعرف» (آ٢). فقال له يسوع: «أنت معلِّم إسرائيل ولا تعلم هذا!» (آ١٠). وسبق فقال: «كيف يمكن أن يكون هذا؟» (آ٩).

أجل، عاش بولس مع جماعات مسيحيَّة، وإلاَّ كيف استطاع أن يتحدَّث عن عشاء الربِّ، العشاء السرّيّ في ١ كو ١١: ٢٣-٢٤: «إنَّ الربَّ يسوع، في الليلة التي أسلم فيها، أخذ خبزًا وشكر فكسر وقال: "خذوا كلوا هذا هو جسدي"». وبالنسبة إلى معرفة يسوع، قال بولس: «فإن كنّا عرفنا المسيح حسب الجسد، لكنَّنا الآن لا نعرفه هكذا» (٢ كو ٥: ١٦). افتخر بعض التلاميذ المعادين لبولس بأنَّهم عرفوا المسيح، أكلوا معه، شربوا معه (لو ١٣: ٢٦). ولكن ماذا استفاد أولئك الذين كانوا «يزحمونه ويضيِّقون عليه»؟ (لو ٨: ٤٥). لم نَعُد نحن على مستوى «الجسد»، بل على مستوى الإيمان، على مثال ما فعلت النازفة فشُفيَتْ في الحال. ما قاله الرسول هنا: أساس الرسالة ليس معرفة يسوع معرفة تاريخيَّة، بل ظهور القائم من الموت في حياتنا.

ويبقى أن نعرف أين تقع «العربيَّة»؟ أهي في الحجاز كما «تيقَّن» أستاذنا (ص ١٧) وبالتحديد «في سراة عسير». هي البداية التي انطلق منها يسوع، وهي النهاية التي راح إليها يهوذا. قال عنه الصليبيّ في رواية مشوِّقة: «فعندما صُلب يسوع الذي كان يحميه (أي يهوذا) من بغضهم، أخذ الصندوق الذي لديه وهرب، عائدًا إلى بلاده في الحجاز، حيث اشترى بما تبقَّى من المال في الصندوق حقلاً ليعتاش منه» (ص ٩٥). هكذا اعتدنا على الأفلام الهنديَّة والمصريَّة حيث «البطل» لا يموت!

«العربيَّة» أو ما دعاه الرومان «عرابيا»، يقابل منطقة تمتدُّ من دمشق إلى البحر الأحمر. ممّا يعني شرقيّ نهر الأردنّ مع ما يُسمَّى المدن العشر التي فيها جرش، عمَّان (فيلدلفية)... إلى هناك وصلت البشارة باكرًا على ما نعرف من إنجيل مرقس: فلجيون الذي يرمز إلى هذه المنطقة كان «جالسًا» (كتلميذ ليسوع) ولابسًا (أي اعتمد، بحسب كلام الرسول: «أنتم الذين بالمسيح اعتمدتم، المسيح لبستم»).

ب – زربابل جدّ المسيح

ونصل إلى «زربَّابل» جدّ المسيح. لو تعرفون من هو زربَّابل الذي ورد في سلالة المسيح! (مت ١: ١٢–١٣؛ لو ٣: ٢٧). في نصّ متَّى هو ابن داود بواسطة سليمان، وفي لوقا بواسطة ناتان. هذا ما يدلّنا على رمزيَّة سلالة يسوع، فكيف نستند إلى الرمزيَّة لكي نصل إلى التاريخ؟

ذُكر زربَّابل مع الآتين من المنفى على أنَّه من السلالة الملكيَّة، ولكنَّه ما عتَّم أن فشل وضاع. وهذا ما نعرفه في نبوءة زكريَّا التي يذكرها الصليبيّ ويخلط بين زكريَّا الأوَّل (ف ١–٨) الذي عاصر بناء الهيكل (٥٢٠–٥١٥) وزكريَّا الثاني الذي يصل بنا ربَّما إلى زمن الإسكندر الكبير (+٣٢٣) وخلفائه. وهكذا نجد الخطأ الكبير عندما يؤخِّر زربَّابل قرابة مئتي سنة ليعاصر الإسكندر وخلفاءه. لا. لا يمكن إطلاقًا أن نقرأ زك ٩–١٢ عن زربَّابل. هكذا تلتصق النصوص في «رواية خياليَّة» لا تمتُّ إلى الكتاب المقدَّس بصلة. فالكلام: «ابتهجي يا بنت صهيون... هوذا ملكك» (زك ٩: ١٩) ينطبق على الملك المسيح المنتظر يوم كان الهيكل مبنيًّا وأسوار أورشليم في أحسن حال، بعد أن رمَّمها نحميا، خلال مهمَّته الأولى سنة ٤٤٥–٤٣٣.

ماذا حصل لزربَّابل الذي اختفى سريعًا وحلَّ محلَّه يشوع عظيم الكهنة الذي حاربوه وحاربوه ولكن عبثًا؟ هنا نقرأ زك ٣: ١: «وأراني يشوع الكاهن العظيم قائمًا قدَّام ملاك الربِّ (أي الربّ) والشيطان قائم عن يمينه ليقاومه». فانتهر الربُّ الشيطان وجعل على رأس عظيم الكهنة العمامة الطاهرة. وقال له ما سبق وقال لداود عن سليمان (١ مل ٢: ٤؛ ٩: ٤): «إن سلكتَ في طرقي وحفظتَ شعائري...» (زك ٣: ٦) إذا كان أزيح زربَّابل من الحكم بعد بناء الهيكل في أورشليم، فكيف بنى عليه الصليبي مشروعًا كبيرًا.

ولكنَّ الرواية لم تنته هنا. «فبعد اختفاء زربَّابل بنصف قرن...» (ص ٣٠)، والحياة في الحجاز، لا بدَّ من الانتقال إلى فلسطين التي أخذت اسمها هذا بعد

ثورة ابن الكوكب سنة ١٣٥. ويروح صاحبنا يروي الأخبار من هنا وهناك دون أن يذكر المرجع بحيث يغرق القارئ قبل أن تأتي «القنبلة» على طريقة شهود يهوه، فيدمِّر النصوص الكتابيَّة شارحًا إيَّاها بطريقة حرفيَّة تدلُّ على الثقافة التي أخذها من أصحابه في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، حيث الهدف الدمار لا البناء على مبدأ جحا الذي كسر «مزراب العين» فلفت أنظار أهل البلدة كلِّهم. وينهي كلامه في الفصل الثالث بأنَّ ما قدَّمه «افتراضات مشروعة» (ص ٤٣). وإلى أين يصل بنا حول يسوع المسيح؟ دعاه الناس «ابن داود» (مت ٩: ٢٧). بل بدأ متَّى إنجيله: «كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن إبراهيم» (١: ١). ودعاه نتنائيل «ملك إسرائيل» (يو ١: ٤٩). وكتب بيلاطس على الصليب: «يسوع الناصريّ ملك اليهود» (يو ١٩: ١٩). أمَّا اسم «إسرائيليّ» (ص ٤٣) فما قيل ليسوع، بل لنتنائيل حيث قال له الربّ: «هذا إسرائيليّ لا غشَّ فيه» (يو ١: ٤٧).

ج – يسوع الناصري

ونصل إلى الفصل الرابع وعنوانه: يسوع الناصريّ. حين قرأتُ هذا الفصل تذكَّرتُ حوارًا مع أستاذ يهوديّ في جامعة أوكسفورد اسمه جيدا فرمس قلت له: «عندك فنّ في تفتيت الأناجيل ولا نعرف بعد كيف نجمع الفتات وراءك» فما أجاب بكلمة.

أوَّل خطأ (ص ٤٥): الإنجيليُّون الأربعة هم «رسل». لا، مرقس ولوقا ليسا بالرسل. وسبق وتكلَّمنا عن بولس الرسول بالنسبة إلى ما يمكن أن يعرِّفنا عن يسوع.

(ص ٤٦). يقول الصليبيّ حسب رو ٩: ٤–٥: «الإسرائيليُّون... ومنهم المسيح حسب الجسد». ويضيف من عنديَّاته: «ولا يعرفه بأنَّه كان يهوديًّا». لماذا هذه الملاحظة؟ ويسوع «هو من نسل داود»، ويطبِّق «بطريقة عابرة». أنريد في رسالة أن نجعل العهد القديم والأناجيل في عبارة واحدة؟ ولكن أجمل ما نقرأ: «كان يسوع غنيًّا». والحمد لله أنَّه جعل الكلمة اليونانيَّة الغنى للفقر. وأعطانا المرجع: ٢ كو ٨: ٩. وها نحن نقرأها:

«فإنَّكم تعرفون نعمة ربِّنا يسوع المسيح، أنَّه من أجلكم افتقر وهو غنيّ، لكي تستغنوا أنتم بفقره». أهكذا نقرأ النصوص الكتابيَّة؟ حرام. ما هذا الغنيّ الذي يوضع في مذود يوم ولادته (لو ٢)؟ وقال التقليد مع يوستين ابن فلسطين: «في مغارة». ما هذا الغنيّ الذي يدعو رسله إلى الفقر التامّ: «لا تحملوا نقودًا من ذهب ولا فضَّة ولا من نحاس في جيوبكم، ولا كيسًا للطريق ولا ثوبًا آخر ولا حذاء ولا عصا» (مت ١٠: ٩–١٠). ثمَّ إذا «افتقر» كيف يغنينا بفقره؟ إلاَّ إذا كان الكلام عن فقر آخر: ابن الله غنيّ لأنَّه صورة الله. اتَّخذ صورة العبد فصار فقيرًا. ولمَّا صار مثلنا جعلنا أغنياء. أمَّا المال الذي افتخر به «ملاك كنيسة لاودكيَّة» فيحتقره يسوع: «تقول أنا غنيّ وأنا اغتنيتُ فما أحتاج إلى شيء». ويجيبه يسوع: «ولكنَّك لا تعرف كم أنت بائس، مسكين، فقير» (رؤ ٣: ١٧).

وهذا «الكيس» كان يتسلّم الحسنات من مريم المجدليّة وحنّة وسوسنّة «ممّن كنَّ يساعدنهم (= أي الرسل) بأموالهنَّ» (لو ٨: ٢-٣). ما هذا الغنيّ الذي يحتاج الصدقات؟

ونقرأ في نهاية ص ٤٦: «قُتل يسوع إعدامًا على الصليب.»

في ص ٤٧ نقرأ التشكيك الأوّل: لا يذكر بولس «والد يسوع». وأيُّ ضرر في ذلك؟ والثاني: لا يشير بولس «إلى أنَّ يسوع وُلد من امرأة عذراء». ولكن أما يكفي الصليبيّ هذا المقطع الرائع: «ولمّا تمَّ ملء الزمان، أرسل الله ابنه مولودًا من امرأة (هو إنسان شأنه شأن كلِّ إنسان) مولودًا تحت الناموس (أما يعني هذا أنّه يهوديّ، وهو الذي خُتن مثل أترابه وقُدِّم إلى الهيكل...).

وبدأ «التخبيص» مع الأناجيل. أمُّ يسوع اسمها مريم في الأناجيل الإزائيّة. أمّا الإنجيل الرابع فأخذ بالعادة الساميّة حيث الأمُّ تُدعى باسم ابنها. في ٢: ١: «وكانت أمُّ يسوع هناك.» وفي آ٣: «قالت له أمّه.» في آ٥: «قالت أمّه للخدم.» وفي آ١٢: «ومعه أمّه وإخوته.» وفي يو ٦: ٤٢: «أما هو يسوع ابن يوسف؟ نحن نعرف أباه وأمّه». وأخيرًا، عند الصليب (يو ١٩: ٢٥-٢٦). لا، لا يشبه بولس إطلاقًا يوحنّا في الكلام عن يسوع، كما يقول الصليبيّ في شطحة اعتدنا عليها.

وعند الصليب، كيف قرأ النصّ الإنجيليّ؟ أخت أمّه اسمها مريم. لو عاد إلى النصِّ السريانيّ لعرف أنَّ على الصليب كانت أربع نساء: «أمّه وأخت أمّه، ومريم كلاوبا ومريم المجدليّة» (يو ١٩: ٢٥). وكذلك أيضًا في الأرمنيّ والقبطيّ. أمّا في اليونانيّ، فالتوازي واضح: من جهة أمّه وأخت أمّه. ومن جهة ثانية مريم كلاوبا ومريم المجدليّة. ومريم كلاوبا هي أمُّ يوسي (أخي يسوع) في مر ١٥: ٤٧، وأمّ يعقوب (أخي يسوع) في مر ١٦: ١. وهكذا نكون أمام أخوين ليسوع: يعقوب ويوسى والاثنان الآخران هما سمعان ويهوذا. وهكذا تكون مريم زوجة كلاوبا أمّ إخوة يسوع. ممّا يعني أنَّ كلاوبا قريب يوسف ومن

عشيرة واحدة حيث الرجال هم كلُّهم إخوة. وفي أيٍّ حال، سوف يرفع يسوع معنى الأمومة والأخوّة من المستوى الجسديّ الضيِّق إلى المستوى اللاهوتيّ والروحيّ. قالوا له: «أمُّك وإخوتك وأخواتك في خارج البيت يطلبونك.» فأجابهم: «من هي أمّي ومن هم إخوتي؟» ونظر إلى الجالسين حوله: «هؤلاء هم أمّي وإخوتي. لأنَّ من يعمل مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي» (مر ٣: ٣٢-٣٥). وهنا يلتقي مرقس مع بولس في الرسالة إلى غلاطية: «أرسل الله ابنه... ليفتدي الذين تحت الناموس، لننال التبنّي. ثمَّ بما أنّكم أبناء أرسل الله روح ابنه إلى قلوبكم صارخًا: أبًا، أيُّها الآب» (٤: ٤-٦). إلاّ إذا أراد كمال الصليبيّ أن يترك الأناجيل القانونيّة (متّى، مرقس، لوقا، يوحنّا) ويأخذ بالأناجيل المنحولة بما فيها من خرافات، ولاسيّما أنّه كان ليوسف أربعة أولاد قبل أن يأخذ مريم خطّيبة له. وأبعد من هذا: بعد أن ولدَت مريم يسوع، في البتوليّة، عادت، خارج البتوليّة، فولدت إخوة ليسوع لم يعرفوا أخاهم المصلوب بل هربوا مع الذين هربوا! ما أجمل هذه الروايات التي تعود بالمسيحيّة إلى العالم الوثنيّ.

عند الصليب، في إنجيل يوحنّا، كانت أربع نساء. ولكنَّ ثلاث نسوة مضين إلى القبر ليحنِّطن جثمان يسوع. عرفنا المجدليّة، ومريم أمَّ يعقوب وزوجة كلاوبا، وسالومة أخت أمِّ يسوع ووالدة الرسولين يعقوب ويوحنّا. أمّا أمّه التي كانت «واقفة» عند الصليب، فآمنت بالقيامة قبل القيامة. فكيف تمضي إلى القبر؟!

قراءة خاطئة عند الصليبي. والنتيجة أكبر خطأ. إذا كانت أخت أمِّ يسوع هي مريم، فهذا «ينفي ضمنًا كون مريم اسم والدة يسوع» (ص ٤٧). شكرًا لهذه المعلومة، أيُّها الأستاذ! وإذا كان مرقس لا يقول مثل متّى ولوقا، إنَّ يسوع وُلد من عذراء، فيجب أن نشكَّ ببتوليّة مريم! شكرًا يا أستاذ! وعاد أستاذنا إلى زربّابل ليقول: «إنَّ هذا النسب لا يتّفق مع القول بولادة يسوع من عذراء» (ص ٤٨). والسبب: يسوع ابن داود، ابن زربّابل... إذًا له والد اسمه يوسف يشبه

سائر الوالدين. لا، يوسف لم يعرف مريم كما يقول مت ١: ٢٥، أي لم يكن بينهما علاقات زواج. أراد أن يتركها سرًّا، لأنَّه أحسَّ بحضور الإله في حشاها. اعتبر ذاته غير مستحقٍّ أن يقيم مع هذه الأمِّ ومع هذا الابن، لو لم يقل له الملاك: «لا تخف». هو خوف إلهيّ، لا خوف بشريّ. إلاَّ إذا أراد أستاذنا أن يبقى على المستوى اليهوديّ وفي امتداد هذا المستوى فيقول إنَّ يسوع إنسان من الناس، وفي أعظم الحالات نبيّ بين الأنبياء. أمّا كلام يو ١: ١٤: «والكلمة (الابن) صار بشرًا وسكن بيننا»، فهذا لا يعنيه مع أنَّه كان «مسيحيًّا».

احتار اليهود في أمر يسوع (ص ٤٨) ومثلهم كمال الصليبيّ، فتوقَّف عند كلمات نابية قالوها له. «إنَّ بعضهم اعتبره سامريًّا» (يو ٨: ٤٨). وآخرون سمَّوه بعل زبول أي رئيس الشاطين. ما رأي أستاذنا؟

ويعود الصليبيّ في نهاية ص ٤٨ عن «غنى» يسوع وفقره، و»الصندوق» الذي كان لديه. فقال: «لم يكن معدمًا». شكرًا للتصحيح! ولا نعود إلى الكلام عن إخوته (ص ٤٩).

د – العهد الجديد للمسحيين

«وفي الأناجيل أخبار أخرى عن تحرُّكات يسوع وأقواله وأعماله، منها ما هو متناسق إلى حدٍّ ما بين الإنجيل والآخر، ومنها ما هو متضارب أو متضادّ والملاحظ أنَّ جزءًا كبيرًا من هذه الأخبار ناتج عن محاولات خفيَّة أو واضحة للربط بين سيرة يسوع والنبوءات الواردة – أو المفترض كونها واردة – في أسفار "العهد القديم" عن المسيح الموعود لبني إسرائيل علمًا بأنَّ الأناجيل وُضعت أساسًا لإقامة البرهان على أنَّ يسوع ما هو إلاَّ ذلك المسيح الموعود» (ص ٤٩).

أوردت هذا المقطع الذي يدلُّ على جهل فادح بالأناجيل وبالسبب الذي لأجله دُوِّنت الأناجيل. وإن كان من معرفة فهي سمٌّ يشبه ما فعله القرن التاسع عشر في أوروبّا مع أشخاص همُّهم أن يدمِّروا الإنجيل.

هل يعرف صاحبنا أنَّ الأناجيل كُتبت للمسيحيِّين أوَّلاً وأخيرًا، وأنَّها ليست سيرة يسوع؟ هي شهادة عن يسوع دُوِّنت في أربعة مواضع، في رومة (مرقس)، في أنطاكية (متَّى)، في كورنتوس وأثينة (لوقا) في أفسس (يوحنّا). يا ليت الواحد نسخ عن الآخر، فكان لنا إنجيل واحد! تلك كانت محاولة تاتيان السوريّ في القرن الثاني. إنجيل واحد. قامت عليه الكنيسة في العالم اليونانيّ (تيودوريه القورشيّ) وفي العالم السريانيّ (المطران رِبُّولا الرهاويّ) فلم تبقَ نسخةٌ واحدة منها في اليونانيَّة ولا في السريانيَّة. أُفلتت نسخة في العربيَّة نشرناها مع مقدِّمة، لأنَّ الكنيسة لا تخاف الحقيقة ولا تخفي النصوص، كما يقول بعض المغرضين، بل تنطلق من كلام الربّ: «تعرفون الحقَّ والحقُّ يحرِّركم» (يو ٨: ٢٣).

ونعود إلى كتابة العهد الجديد. أوَّل ما كُتب رسائل القدِّيس بولس. سنة ٥١–٥٢ دُوِّنت الرسالة الأولى إلى تسالونيكي. لماذا؟ أوَّلاً، أراد الرسول أن يستعلم عن إيمان المسيحيِّين في هذه المدينة، بعد أن حلَّ بهم الاضطهاد. شجَّعهم على الثبات في الإيمان والرجاء والمحبَّة. وطُرح سؤال حول مجيء

المسيح فقال لهم: «فإن كنَّا نؤمن بأنَّ يسوع مات ثمَّ قام، فكذلك نؤمن بأنَّ الذين رقدوا في يسوع، ينقلهم الله إليه» (٤: ١٤).

والرسالة الثانية هي الأولى إلى كورنتوس: وصَلت إلى الرسول أخبارٌ عن الجماعة: انشقاقات وتحزُّبات. ذكَّرهم: هل بولس صُلب من أجلكم؟ هل باسم بولس اعتمدتم؟ (١: ١٣) وطرح السؤال: «هل المسيح انقسم؟» ونبَّه المؤمنين من الزنى والذهاب إلى المحاكم والمشاركة في ذبائح الأوثان. وحدَّثهم عن الزواج والبتوليَّة وعن المشاركة في عشاء الربِّ والمواهب في الكنيسة. وأخيرًا انطلق من قيامة الربِّ فأفهمهم أنَّ المؤمنين يقومون مع المسيح: «يُزرَع جسدٌ حيوانيّ فيقوم جسد روحانيّ» (ف ١٥).

وما يدهشنا في الرسالة إلى رومة هو أنَّ بولس يعتبر الإنجيل «إنجيله». يقول في ٢: ١٣: «في اليوم الذي فيه يدين الله سرائر (= خفايا) القلوب على ما في إنجيلي». فالإنجيل بدأ ينتشر قبل كتابات الأناجيل الأربعة. إذا اعتبرنا أنَّ يسوع صُلب يوم الجمعة في السابع من نيسان سنة ٣٠، وأنَّ إنجيل مرقس كان أوَّل إنجيل كُتب، تكون مرَّت قرابة أربعين سنة قبل أن تدوَّن كلمة واحدة من «أقوال يسوع وأعماله».

يروي لنا القدِّيس لوقا في بداية سفر الأعمال أنَّ المسيحيَّة امتدَّت فوصلت إلى بلاد فارس في الشرق، ووصلت إلى رومة في الغرب، وما نسيت مصر وليبيا ونواحي تركيّا الحاليَّة. وانتهى الكلام: «رومانيُّون مقيمون هنا، وكريتيُّون وعرب، يهود ودخلاء» (أع ٢: ١٠).

إذا كانت المسيحيَّة انتشرت في كلِّ هذه الأصقاع، فلماذا الحاجة إلى الأناجيل؟ قال لنا لوقا أيضًا في إنجيله: «لأنَّ كثيرًا من الناس أخذوا يدوِّنون رواية الأحداث التي جرت بيننا» (لو ١: ١). أجل، كثرت الأناجيل وكلُّ واحد يكتب كما يشاء. وهذا ما حصل في أيَّامنا مع أشخاص مثل شوقي خيرالله

وكمال الصليبيّ وكثيرين غيرهما: يكتبون «إنجيلهم» لا إنجيل يسوع المسيح. بما أنَّهم لا يستطيعون أن يرتفعوا إلى مستوى يسوع المسيح ابن الله، ينزلونه إلى مستواهم، وأيِّ مستوى! بما أنَّهم لا يقدرون أن يفهموا مريم العذراء التي قالت للربِّ نعم فانطلقت البشريَّة في مسيرة خلاص، فهم يجعلون من أمِّ يسوع امرأة مثل سائر النساء: تزوَّجت، أنجبت أولادًا... ماذا يختلف هذا المسيحيّ عن اليهوديّ؟ وفي أيِّ حال، هم لا يأتون بجديد، بل يغرفون من الهرطقات والأضاليل القديمة.

كثرت «الأناجيل» أو ما دُعيَ «إنجيل» وخبرًا طيِّبًا. ولكنَّه شوَّه حياة يسوع. عندئذ انطلقت الكنيسة «من الذين كانوا من البدء شهود عيان وخدَّامًا للكلمة». والهدَف، يا تاوفيلس، يا محبَّ المسيح أن «تعرف صحَّة التعليم الذي تلقَّيته» (١: ٤). وهكذا ظهرت الأناجيل الأربعة بين سنة سبعين وسنة مئة. انطلق «الكتّاب» من التقليد وقدَّموا للمؤمنين «شهادة» عن يسوع، كما قال يوحنّا في رسالته الأولى: «الذي كان من البدء، الذي سمعناه ورأيناه بعيوننا، الذي تأمَّلناه ولمسته أيدينا من كلمة الحياة... به نبشِّركم، لتكونوا أنتم أيضًا شركاء كما نحن شركاء الآب وابنه يسوع المسيح» (١ يو ١: ١-٣).

ويروي التقليد بالنسبة إلى إنجيل مرقس ما يلي: طلب المسيحيُّون في رومة من بطرس أن يترك لهم «كتابة» ما بشَّرهم به. فطلب من مرقس، تلميذه «وابنه» (١ بط ٥: ١٣) أن يكتب ففعل: بعد موته بقليل، إذ نعرف من التقليد أيضًا أنَّ بطرس مات شهيدًا في عهد نيرون، ربَّما سنة ٦٤.

جاء إنجيل مرقس في محطَّتين بحسب العنوان: «بدء إنجيل يسوع المسيح ابن الله» (١: ١). في محطَّة أولى أفهم الإنجيليّ أهل رومة أنَّ يسوع هو «المسيح» أي الملك الذي مسحه الربُّ وأرسله وهو «من يتألَّم كثيرًا، ويُرفض من قبل الشيوخ ورؤساءالكهنة والكتبة ويُقتَل، وبعد ثلاثة أيَّام يقوم» (٨: ٣١). بطرس نفسه لم يقبل بهذا الكلام. أمّا اليهود فهزئوا بذلك المعلَّق على الصليب.

وفي محطَّة ثانية، أعلن قائد المئة وسط هزء الكتبة (١٥ : ٣١): «حقًّا كان هذا الإنسان ابن الله» (آ٣٩).

ما هو الهدف الضيِّق، المشوَّه الذي جعله الصليبيّ في كتابة الأناجيل؟ «محاولات خفيَّة أو واضحة». بما أنَّ قسمًا من المسيحيِّين جاء من الشعب اليهوديّ، انطلق إنجيل متَّى بشكل خاصّ من النبوءات (إشعيا: ها إنَّ العذراء. ميخا: وأنت يا بيت لحم) ليوصلهم إلى المسيح. طفولة يسوع تشبه من بعيد طفولة موسى. ويسوع هو عبد الربِّ المتألِّم، الذي صرخ من أعلى صليبه «إلهي إلهي لماذا تركتني!» فردَّد المزمور الثاني والعشرين. كان الرجوع واضحًا إلى العهد القديم عند متَّى، لأنَّه كتب إلى جماعة أتت بأكثريَّتها من الشعب الأوَّل. وهكذا وصل بهم إلى المسيح. ولكنَّه غير المسيح الذي تصوَّروه: رجل حرب، يطرد الرومان. «يعيد الملك» (أع ١ : ٦). قال الآب عنه: «هكذا أحبَّ الله العالم فأرسل ابنه الوحيد...» (يو ٣: ١٦). وقال يسوع عن نفسه: «ما من حبٍّ أعظم من حبِّ من يبذل الانسان نفسه عن أحبَّائه» (يو ١٥: ١٣).

وُلد يسوع في ما يُسمَّى اليوم فلسطين، ولا نعجب أن يكون تكلَّم أراميَّة فلسطين، التي تختلف بعض الشيء عن أراميَّة بابل والرها... وبقي لنا منه بضع كلمات. قال لابنة يائيرس: «طليتا قومي» أي يا صبيَّة قومي (مر ٥) وقال للأخرس: «افتح» أي انفتح (ف ٨). وعلى الصليب: «إلهي إلهي لماذا تركتني»، في اللغة الأراميَّة، لا في اللغة العبريَّة. والكلمة الرائعة الخاصَّة بيسوع والتي لا نجدها أبدًا في العهد القديم: «أبًا»، يا أبي. كما الأطفال يقولون في أولى تمتماتهم.

ولكن ما ورد من العهد القديم، أخذ من اليونانية، ولم يُؤخذ عادة من النصِّ العبريّ، ولا من النصِّ الأراميّ (الذي اسمه الترجوم) الذي دُوِّن في القرن الثاني المسيحيّ وما بعد. والسبب أنَّ الأناجيل وَصلت إلينا في اليونانيَّة، لا في الأراميَّة ولا في العبريَّة. كانت اليونانيَّة لغة الثقافة والفكر فحملت الإنجيل

فوصل إلينا في لغة مميَّزة. فإذا كان هدف الأناجيل «البرهان أنَّ يسوع هو المسيح الموعود»، لماذا لم تُكتَب في الأراميَّة أو العبريَّة؟

وردت نصوص العهد القديم في كلِّ أسفار العهد الجديد، لأنَّ الله «الذي كلَّم الآباء بالأنبياء قديمًا (في العهد القديم)، بأنواع وطرق كثيرة، كلَّمنا في هذه الأيَّام الأخيرة بابنه الذي جعله وارثًا لكلِّ شيء» (عب ١: ١). فالإله الذي تكلَّم في العهد القديم هو الذي تكلَّم في العهد الجديد. والرسل؟ منذ البداية، أوردوا نصوص العهد القديم. فعظة بطرس يوم العنصرة، بدأت بالنبيّ يوئيل ووصلَتْ إلى المزامير. ولكنَّ العهد القديم لبث ناقصًا فكمُل في العهد الجديد. ويسوع ما جاء ليلغي العهد القديم. قال: «ما جئتُ لأنقض بل لأكمِّل» (مت ٥: ١٧). فكلام العهد القديم يجب أن يتَّسع، أن يتفجَّر لكي يسير مع العهد الجديد. قال إشعيا: «ها الصبيَّة (ع ل م ه، في العربيَّة: غلامة، فتاة في عمر الزواج) تحبل وتلد ابنًا...». فانطلق متَّى من مريم العذراء التي ولدت يسوع «ولم يعرفها يوسف»، وقال: «ها إنَّ العذراء تحبل وتلد ابنًا» (١: ٢٣). الفرق شاسع. وقال ميخا (٥: ١): «أمَّا أنت يا بيت لحم أفراتة، وأنت صغيرة أن تكوني بين ملوك يهوذا. فمنك يخرج الذي يكون متسلِّطًا على إسرائيل.» تبدَّل النصُّ كلُّه في مت ٢: ٦: «وأنت يا بيت لحم (غابت أفراتة) أرض يهوذا. لست الصغرى (نفي لما قيل: أنت صغيرة) بين (لا: ملوك) رؤساء يهوذا، لأنَّ (السبب الذي لأجله لم تعُد الصغرى) منك يخرج مدبِّر يرعى شعبي إسرائيل». ليس هو المتسلِّط، بل الراعي والراعي الصالح (يو ١٠: ١١). ونورد أخيرًا نصًّا من عاموس النبيّ الذي يتحوَّل كليًّا في أعمال الرسل. قال عاموس (٩: ١١-١٢): «في ذلك اليوم، أقيم مظلَّة (أو: خيمة) داود الساقطة (التي سقطت، هُدمَتْ) وأحصِّن شقوقها، وأقيم ردمها، وأبنيها كأيَّام الدهر لكي يرثوا بقيَّة أدوم وجميع الأمم الذين دُعيَ اسمي عليهم». ما هدف عمل الله؟ السيطرة، وراثة أدوم. ما هو كلام ناقص فقط، بل كلام لا يمكن أن يقبل به الإنجيل. والسبب: قراءة لفظ

«أدوم». في العهد الجديد، صار «آدم» أي الإنسان. فقال يعقوب، أخو الربّ، في ما دُعيَ «مجمع أورشليم» حول ختانة الوثنيّين الآتين إلى الإنجيل: «سأرجع بعد هذا وأبني أيضًا خيمة داود الساقطة وأبني أيضًا ردمها وأقيمها ثانية، لكي يطلب الباقون من الناس الربَّ وجميع الأمم الذين دُعيَ اسمي عليهم» (أع ١٥: ١٦-١٧). الأمم والشعوب مدعوُّون كلهم ليكونوا لله.

وما نلاحظ في العهد الجديد عامّة وفي الأناجيل خاصّة هو أنَّ الرسل والتلاميذ يوردون نصوص العهد القديم حين لا يفهمون ما يحصل. أي يطلبون نور كلام الله لكي يضيء لهم الطريق بحيث لا يتشككون ولا يعثرون. اعتبر يوحنّا المعمدان أنَّ يسوع آتٍ كالديّان: «ها هي الفأس على أصول الشجر، فكلُّ شجرة لا تعطي ثمرًا تُقطَع وتُرمى في النار» (مت ٣: ١٠). جاء يسوع ليميِّز القمح عن التبن. يجعل القمح في الأهراء «ويحرق التبن بنار لا تنطفئ» (آ ١٢). ولكنَّ يسوع جاء كالحنون، كالمترئِّف بالخطأة. عاد يسوع إلى العهد القديم ولاسيَّما إلى نبوءة إشعيا: «اذهبا وأخبرا يوحنّا بما تسمعان وتنظران: العمي يبصرون، والعرج يمشون» (إش ٣٥: ٥-٦) والبرص يطهرون والصمّ يسمعون (إش ٢٩: ١٨-١٩) والموتى يقومون (إش ٢٦: ١٩) والمساكين يبشَّرون (إش ٦١: ١). أرسل الجواب إلى المعمدان بواسطة تلميذين يشهدان، والشهادة تتطلَّب على الأقلّ اثنين. وأنهى يسوع كلامه: أنت شككت، يا يوحنّا، كُدْتَ تسقط بسببي. قال الربّ: «طوبى لمن لا يعثر فيَّ». فأكون له سبب عثرة. ماذا فعل يسوع؟ عاد إلى النبيّ إشعيا فاستضاء يوحنّا من سجنه وسيكون موته صورة بعيدة عن موت يسوع، كما كانت ولادته مقدِّمة لولادة يسوع في بيت لحم.

هـ - يهوذا الصديق

ونعود إلى يهوذا (أو: يوضاس) صديق كاتبنا. تشكَّك التلاميذ: «صار دليلاً للذين قبضوا على يسوع» (أع ١: ١٦) ويواصل بطرس كلامه: «إذ كان بيننا وصار له نصيب (حظّ كبير) في هذه الخدمة (أن يكون بين الاثني عشر)، اقتنى حقلاً من أجرة الظلم (ظلم يسوع، وأخذ أجرته حين سلَّم معلّمه). وإذ سقط على وجهه انشقَّ من الوسط، فانسكبت أحشاؤه كلُّها» (آ١٧-١٨). كيف يكون هذا؟ من أين نأتي بالنور؟ من الكتاب المقدَّس، العهد القديم. قرأ الرسول مز ٦٩: ٢٦ الذي فيه يدعو المرتِّلُ الله لكي يخلِّصه بعد أن غرق في «حمأة عميقة». أخذ بطرس آية واحدة: «لتصر دارهم (بدل الجمع جعل بطرس المفرد: داره) خرابًا، وفي خيامهم لا يسكن ساكن.» صار الكلام في فم بطرس: «لتصر دارُه خرابًا ولا يكن فيها ساكن وليأخذ وظيفته آخر». وفي مز ١٠٦: ٨ نقرأ: «تكون أيّامه قليلة، ووظيفته يأخذها آخر». وهكذا تقرَّر اختيار الرسول الثاني عشر، فكان متيّا (آ٢٣).

اختلف الكلام في سفر الأعمال عمّا هو في إنجيل متّى. وصفَّق الصليبيّ: التضارب والتضادّ، فلا يبقى سوى أن نرذل الأسفار المقدّسة ونمضي إلى الينابيع «الأراميّة» – العربيّة التي قرأها يوحنّا في الأصل، وهو ابن فلسطين، وتُرجمَتْ للوقا وهو اليونانيّ.

كيف سقط يهوذا على وجهه؟ هذا لا يهمُّ سفر الأعمال. المهمّ أنَّه لاقى جزاء عمله حتّى على هذه الأرض، فكان النموذج للمسيحيّين الذين كانوا «يبيعون» إخوتهم ويشون بهم إلى السلطة فيُقبض عليهم ويُرسلون إلى العذاب. وماذا قال متّى عن يهوذا؟ «ندم وردَّ الثلاثين من الفضّة... ثمَّ مضى وشنق نفسه» (٢٧: ٣ي). ساعة كان الكلام في سفر الأعمال بشكل اعتراضة، صار هنا حوارًا بين يهوذا ورؤساء الكهنة، الذين تركوا هذا «الخائن» يتدبَّر أمره بأسوأ حال، لا بأحسن حال، كما قال الصليبيّ. عاد بطرس في كلامه إلى المزمورين

٦٩، ١٠٦. أمّا متّى فاستقى النور من نبوءة إرميا، كما قال النصُّ المتّاويّ، ولكنّه جاء مزيجًا من زكريّا (١١: ١٢-١٣) وإرميا (١٨: ٢-٣؛ ١٩: ١-٢؛ ٣٢: ٦-١٥). يا للويل والثبور! قال الصليبيّ: «واردة أو مفترضة» بل هي واردة. المهمّ؟ هي كلمة الله، والكتاب كلُّه كلام الله. كما نعرف أنّه كان في يد المبشّرين الأوّلين مقاطع من العهد القديم موجودة في درج صغير.

روايتان لموت يهوذا، مختلفتان. لكنّهما تنتهيان بموت من باع سيّده وقبض ثمنه. شدَّد أعمال الرسل على الموت والبحث عمَّن يحلُّ محلَّه. أمّا متّى فبنى خبره على «الثلاثين فضّة». نقرأ أوّلاً زك ١١: ١٣: «فوزنوا أجرتي ثلاثين من الفضّة.» نتذكّر هنا ما سبق وقلناه: هو زكريّا الثاني المتطلّع إلى المسيح الآتي وما يلحقه من آلام.

لن نضيّع وقتنا في شرح لفظ «إسخريوطيّ»، ولكن ننتقل حالاً إلى الموضع المرتبط بيهوذا. «حقل الفخّاريّ» كما قال إرميا. ويبدو أنَّ هذا الحقل اتّخذ اسم «حقل الدم» كما نقرأ في متّى وفي سفر الأعمال. ذاك ما قالت التقاليد الأورشليميّة وحدَّدت موقعه عند نبع القصّار. رج ٢ صم ١٧: ١٧: هي عين روجل. قرب أورشليم. ولكنَّ التقليد أخطأ والشرّاح كذلك! أمّا كمال الصليبيّ فأخذنا إلى حيث قلبه، على مثال ما قال الربّ: «حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك» (مت ٦: ٢١). لا شكَّ عرفتم: «جليل الحجاز» (ص ٩٥). واستند إلى التلمود في عمليّة ذرِّ الرماد في العيون. ما هذا المؤرِّخ الذي يتلاعب بالتاريخ، وكاتب الجغرافيا، الذي يعمل ما في وسعه لكي يُضلَّ الناس؟ فمن أجل حفنة من المال، نحن مستعدُّون أن نبيع إيماننا وإنجيلنا بعد أن باع يهوذا مسيحنا!

وأخيرًا، يتحدَّث الصليبيّ عن «تحرُّكات يسوع وأقواله وأعماله» (ص ٤٩). وحاول أن يوفّق فيما بينها فما افترق في شيء عن الكتّاب العرب الذين يرون اختلافات بين نصٍّ إنجيليّ وآخر. منذ بدايات الكنيسة، رأى الوثنيُّون هذا الأمر، فردَّ عليهم أوريجان ابن الإسكندريّة وفلسطين والمدفون في لبنان.

والقدّيس أوغسطين أيضًا. أمّا الإزائيّة فتدلُّ على آلاف الاختلافات. ولنعرف أنَّ الإنجيل ليس كتابًا تاريخيًّا، بل هو كتاب يتحدَّث عن يسوع الذي دخل في التاريخ، في أيّام هيرودس الكبير الذي توفّي سنة ٤ق.م. وفي أيّام أوغسطس قيصر، كما قال إنجيل لوقا (٢: ١ي). كلُّ إنجيل له نظرته الإيمانيّة إلى يسوع، ويحاول أن يوصل لاهوت كنيسته إلى المؤمنين. وأعطي مثلاً: شفاء المخلَّع. أراد مرقس أن يشدِّد على إيمان التلاميذ الأربعة الذين حملوا هذا المريض وما وقف في وجههم حاجز. «رأى يسوع إيمانهم» فغفر للمخلَّع (٢: ٥) وشفاه من مرضه فمجَّد الجميع الله وقالوا: «ما رأينا مثل هذا قطّ» (آ١٢). أمّا متّى وهو إنجيل الكنيسة، فشدَّد على دور الرسل في غفران الخطايا: سلطانهم سلطان يسوع. قال: «فلمّا رأى الجموعُ ذلك، تعجَّبوا ومجَّدوا الله الذي أعطى الناس سلطانًا مثل هذا» (٩: ٨). والسلطان هو غفران الخطايا، كما نقرأ في إنجيل يوحنّا: «من غفرتم خطاياه تُغفَر له...» (يو ٢٠: ٢٣). أجل، قدّم كل من مرقس ومتى تعليمًا، لأن الانجيل أغنى من أن ينحصر في فكرة واحدة.

الفصل الثاني عشر

الأناجيل والعهد القديم

هي قراءة أخرى للأناجيل، مع عودة إلى العهد القديم. ولكن «القديم» هذا، يأخذنا إلى حيث التوراة وصلت مع الصليبي: إلى الجزيرة العربية. وجهات ووجهات تبيّن الشطط الذي راح فيه العديدون في إثر كمال الصليبي.

البداية مع إنجيل متّى، كما سبق وقلنا. ولكنَّ التشكيك يجب أن يكون حاضرًا: «وُلد يسوع في بيت لحم اليهوديَّة». وهنا نحسُّ بالضعف أو بالكذب. يقول أستاذنا: «يناقضه يوحنّا الذي يفيد بأنَّ من الإسرائيليِّين من لم يعترف بكون يسوع هو المسيح المنتظر لأنَّه لم يأتِ من بيت لحم أرض يهوذا، حسب نبوءة ميخا، بل كان مجيئه من الجليل» (يو ٧: ٤١-٤٢). عافاك، أيُّها المؤرِّخ! إذا كان الناس أخطأوا لأنَّهم اعتبروا أنَّ يسوع أتى من الجليل، أفنتبع خطأهم! هم رفضوا يسوع لأنَّهم اعتبروا مجيئه «من الجليل». فهم يريدونه أن يأتي من بيت لحم. أما هذه هي الحقيقة التي نقرأ في متّى ولوقا وفي نبوءة ميخا؟ قال يو ٧: ٤١ مردِّدًا كلام الناس: «ألعلَّ المسيح من الجليل يأتي؟» والجواب هو كلاَّ. وواصلوا الكلام: «ألم يقل الكتاب إنَّه من نسل داود ومن بيت لحم، القرية التي وُلد داود فيها، يأتي المسيح؟» أهكذا يُقرأ النصُّ الإنجيليّ أيُّها المؤرِّخ! نجعله يقول العكس، لأنَّنا نقوِّله كما نريد.

وهناك نصوص أخرى لا مجال لذكرها. وينتهي كاتبنا: «يتبيَّن...». وماذا تبيَّن؟ نحن هنا أمام القصص الدينيّ المستند إلى عناصر تاريخيَّة لكي يربط يسوع المسيح بأخبار شعبه. وفي إنجيل يوحنّا يتوقَّف الصليبيّ عند يسوع الذي أخذوا ثيابه وعلى لباسه اقترعوا. أما هكذا كان يفعل الجنود عادة؟ ولكنَّ الإنجيليّ ربط هذا الأمر البسيط بما قاله مز ٢٢: ١٨. هذا يعني أنَّ مخطَّط الله يتجاوز مشاريع البشر. حسبَ اليهودُ والرومان أنَّهم أسياد التاريخ، ويكفي أن يصلبوا يسوع، هذا «الدجّال» (مت ٢٧: ٦٣) لكي ينتهي خبره. ولكنَّه قام. وها هم تلاميذه ينادون به مع أنَّ رؤساء اليهود حذَّروهم: «لا تعودوا إلى ذكر اسم يسوع إلى الأبد» (أع ٤: ١٧). فكان الجواب: «نطيعكم أم نطيع الله؟» (آ ١٩). نسمع منكم أم نسمع من الله؟ ونحن أنقرأ الأناجيل أم ترَّهات العديدين

في أرضنا؟ ألا يعرفون أنَّهم يجدِّفون على الله بأقاويلهم وتفاسيرهم؟ يقول فيهم يهوذا، أخو الربّ: «سلكوا طريق قايين واستسلموا إلى الضلال، مثل بلعام، طمعًا في الربح... هم أشجار خريفيَّة لا ثمر عليها. ماتت مرَّتين واقتُلعَتْ من أصولها» (آ ١١-١٢).

«يسوع ما هو إلاَّ المسيح المولود لبني إسرائيل» (ص ٥٤). إذا كان الأمر كذلك، نحصر يسوع في شعب محدود وفي أرض معيَّنة. هو يهوديّ ويجب أن يبقى يهوديًّا ولا يخرج من محيطه. ذاك كان فكر بعض اليهود الذين صاروا مسيحيِّين وراحوا باتِّجاه الشرق بعد سقوط أورشليم، سنة ٧٠ ودمارها التامّ سنة ١٣٥. إلى هناك راح الصليبيّ وأراد أن يجتذبنا جميعًا.

وها نحن نمضي في إثره وفي مؤلَّفاته. «النجّار» هو الذي صاحب صنعة ويعمل في الخشب. صار «نجارا» في الأراميَّة. من أيِّ قاموس استقى هذا اللفظ؟ من العبريَّة؟ هو «ح ر ش». ومن السريانيَّة هو «ا و م ن ا». بئس الاشتقاق الذي أوصلنا إلى بلادة: «نجارا اسم الفخذ من سلالة داود» (ص ٥٥). ويجب أن نصل إلى زربَّابل! شكرًا. وينهي برهانه الرائع: «وهذا، في رأيي، هو الأرجح». يشبه رأيك رأي أحد الأساتذة الذي تبع خطَّ الصليبيّ. ولمّا سألته: «هل تعرف العبريَّة؟» وأجاب: «كلاَّ». فقلت له: «ما قيمة رأيك؟» وهكذا يصل السؤال إلى صاحب «البحث عن يسوع». إن لم يكن في فلسطين، فنحن نمضي في البحث عنه حيث أنهى يهوذا حياته.

«أتباع وأصدقاء يسوع» (ص ٥٥). «لا بشكل متناسق». هناك الأسماء المعروفة: سمعان بطرس وأخوه أندراوس، يعقوب ويوحنّا أخوه، متّى، توما... وكان خدّام الهيكل، في الشرق والغرب، اثني عشر، هكذا وجب أن يكون الرسل. فاذهب يا أستاذنا، مع المجهر، وانظر كلَّ كلمة بحروفها، ولا تنسَ «أنَّ الروح يحيي والحرف يقتل». فما لك سوى أن تختار ويختار معك «تلاميذك» بحيث لا ينسون كلام الربّ: «أعمى يقود أعمى، كلاهما يقعان في

حفرة» (مت ١٥: ١٤). ذاك ما قال يسوع للكتبة والفرّيسيّين. وهو يقوله اليوم حتّى لبعض الكهنة الذين يشوّهون الإنجيل ويعتبرون أنّ اليهود شوّهوه وتبعهم الرسل. وعن التشويه: «ووُلد يسوع في بيت لحم زبولون (أي في لبنان. وهكذا تدغدغ العاطفة) لا في بيت لحم اليهوديّة، مهما شدّدت الأناجيل على ذلك. فنحن بوحي باطنيّ نعرف أكثر من «شهود عيان».

ومن الشروح الرائعة: «دعوة يسوع ابتدأت في مكان ما، خارج "اليهوديّة" أي خارج فلسطين وجوارها المباشر» (ص ٥٥). نذكّر أنّ اسم فلسطين وُلد على فم الرومان، إذلالاً لليهود، سنة ١٣٥. أمّا المقاطعات التي مرّ فيها يسوع فهي الجليل، المنطقة المحاذية لجنوب لبنان. ثمّ السامرة حيث مرّ يسوع والتقى بالسامريّة عند بئر يعقوب (يو ٤). وأخيرًا اليهوديّة. فهي المنطقة التي عاصمتها أورشليم. أمّا أن نكون في «اليهوديّة» وأمّا أن نكون «خارج فلسطين» فهذه حيلة. وجاء الحكم القاطع: «ولذلك، فلا بدّ أنّ "الجليل" الذي جاء منه يسوع أصلاً كان مكانًا غير الجليل الفلسطينيّ». ولكن قرب هذا «الجليل» مدينتا صور وصيدا حيث مضى يسوع (مت ١٥: ٢١). ولكنّ «صور» في نظر الصليبيّ هي واحة صغيرة في الجزيرة العربيّة. والسفن هي الجمال التي تدور في الصحراء. ذاك ما قال ذلك «المؤرّخ» في **التوراة جاءت من جزيرة العرب**. فإن لم يكن الجليل إلى الجنوب من لبنان، فأين جعله الصليبيّ؟ «هو وادي جليل بمنطقة الطائف من الحجاز.» (ص ٥٦). وبحيرة طبريّا، ونهر الأردنّ... ماذا يمنعنا من المضيّ إلى هناك؟ عقلنا الثاقب. إذا كان بعض الأميركيّين مضوا إلى جبل أراراط ليأتوا ببعض الخشب من سفينة نوح التي ارتفعت إلى ٥١٦٥ مترًا فوق سطح البحر، فلماذا لا نبحث عن الجليل الذي تحدّث عنه إشعيا أيضًا (٩: ١) في منطقة الطائف؟ كلّ شيء ممكن لهؤلاء الباحثين. هم لا يقرأون الشعر ولا يعرفون الرموز. كانوا يعتبرون أنّ الآلهة تقيم على رؤوس الجبال وإلى هناك لحقت بهم المياه «وأهلكت كلّ حيّ فيه نسمة حياة». لا شيء ولا أحد يقف في وجه الربّ الإله.

بدأ يسوع كرازته «عندما كان في نحو الثلاثين من عمره» (لو ٣: ٢٣). أراد أن يبدأ رسالته في عمر يقارب اللاويّين، أولئك الفقراء الذين يخدمون في الهيكل. وعند الصليبيّ: «الشكُّ المشروع» ماذا يعني هذا؟ إذا كان وُلد في زمن هيرودس الكبير الذي توفّي سنة ٤ ق.م. وصُلب في ٧ نيسان سنة ٣٠، ألا يكون عمل يسوع في ذلك الوقت معقولاً. ثمّ إنّ الإنجيل الرابع أورد كلام اليهود: «في ستّ وأربعين سنة بُني هذا الهيكل» (٢: ٢٠). وبما أنّ البناء بدأ سنة ٢٠-١٩ق.م.، فهذا يعني أنّ رسالة يسوع بدأت سنة ٢٧-٢٨ ب.م. يا ليتنا ندرس النصوص! ولكن إذا كانت النوايا سيّئة، فما حيلتنا! أما الأفضل لمؤرّخ عُرف بنزاهته حين كتب تاريخ لبنان (مع بعض الهنّات) أن يبتعد عن موضوع أكبر منه؟ صفّق له الناس فنال مديحهم، ولكن يمكن أن يصل إليه كلام الربّ: «الويل لكم إذا مدحكم جميعُ الناس. هكذا فعل آباؤهم بالأنبياء الكذبة» (لو ٦: ٢٦).

ونعود إلى «موقع الجليل» (ص ٥٧). ثمّ «الناصرة». والتلاعب على فعل «خرج». كان يسوع في عبر الأردنّ، فخرج إلى الجليل. يعني كان في شرقيّ الأردنّ «وصولاً إلى المحيط الهنديّ». فالصحراء بعيدة المدى، جاء يسوع من «جليل الطائف» إلى «جليل فلسطين». لم ينجح في الطائف، فأتى يجرّب حظّه في فلسطين، ولكنّ الأمور لم تكن أفضل إذ كانت نهايته على الصليب، إلاّ إذا اعتبرنا أنّه لم يُصلَب، بل رُفع، كما قالت الضلالات منذ بدايات الكنيسة، مرورًا بإنجيل برنابا وصولاً إلى القرن العشرين. وإذ لم يكن ابن الله، كما قال شوقي خيرالله، فبماذا يفترق موته عن موت كلّ إنسان؟ أمّا فعْل «رجع» في لو ٤: ١ فيُرفض، مع أنّ متّى (٢: ٢٣) أفهمنا أنّه «جاء إلى مدينة الناصرة». ولوقا (٢: ٥١) قال: «ورجع يسوع معهما إلى الناصرة، وكان مطيعًا لهما.» وهو انطلق من الناصرة ليبدأ كرازته كما قال يوحنّا (١: ٤٥-٤٦) ولوقا (٤: ١٦: «اعمل هنا في وطنك...»، ٢٣آ) وسفر الأعمال (١٠: ٣٨). إلاّ إذا كانت الناصرة

غير التي يأتي إليها الحجّاج من العالم كلّه. نقرأ في ص ١٣٣: «ولعلّ يسوع الناصريّ القادم من جليل الحجاز إلى فلسطين عن طريق «عبر الأردنّ»... «بل ولعلّ من هؤلاء الجليليّين المحلّيّين من أنصار بيت داود من كان على اتّصال بيسوع وهو لا يزال في الحجاز، يزوّده بما يلزمه عن المعلومات...». هل نحن أمام دراسة إنجيليّة أم رواية بولسيّة مختلقة كلّ الاختلاق؟ أتُرى المسيحيّ يبحث عن يسوع، والإنجيل يقول له: «ملكوت الله في داخلكم؟» ونقرأ: يسوع ليس في البرّيّة ولا في البيوت (مت ٢٤: ٢٦). فلا حاجة للبحث عنه. فهو الذي قال في سفر الرؤيا: «ها أنا واقف على الباب أقرعه. فإن سمع أحد صوتي وفتحَ الباب، دخلتُ إليه وتعشّيتُ معه وتعشّى هو معي» (٣: ١٠).

ودخول يسوع إلى أورشليم. قدم من «عبر الأردنّ، عن طريق براري اليهوديّة». من أين؟ اتركوا المخيّلة تقودكم. ويشير النصّ (ص ٥٩) إلى «وجود قديم لفريق من الإسرائيليّين داخل المدينة». فمن كان يعتبر يسوع صاحب الحقّ الشرعيّ في المطالبة بعرش «داود». من أين جاء أستاذنا بفكرة «الملك»؟ إنّه نسيَ أنّ يسوع هرب بعد تكثير الأرغفة حين علم «أنّهم يستعدّون لاختطافه وجعله ملكًا» (يو ٦: ١٥). كيف تصرّف؟ ابتعد عنهم ورجع وحده إلى الجليل. وفي الحوار بين يسوع وبيلاطس، فهمنا أنّ مملكة يسوع ليست من هذا العالم. وإن هو دعا إلى ملكوت الله، فهو ملكوت المحبّة والغفران والعطاء والتضحية.

وتحدّث الصليبيّ عن «أعمال عنف». ذاك ما نرى في الأفلام، لا في الأناجيل. أمّا يسوع فطوّب الودعاء لأنّهم يرثون الأرض (مت ٥: ٥) ومنع الانتقام والخصومة (مت ٦: ٣٨–٤٢). ونسأل: أين هو العنف؟ ونبدأ في إنجيل مرقس. «وجاؤوا إلى أورشليم، فدخل الهيكل وأخذ يطرد الذين يبيعون ويشترون... ومنع كلّ من يحمل بضاعة أن يمرّ من داخل الهيكل» (١١: ١٥–١٦). نتذكّر أنّه كانت ثلاثة أروقة: للرجال، للنساء، للوثنيّين. فلا بأس

إن «مررنا» في رواق الوثنيّين! كلاّ. هذا ممنوع. وهذا الرواق مقدّس شأنه شأن الرواقَين الآخرين. ونحن لا ننسى أنّ إنجيل مرقس كُتب، بشكل خاصّ، للعالم الوثنيّ في رومة. لهذا لا نرى عنده من إيرادات العهد القديم بقدر ما نرى عند متّى. ولم يختلف إنجيل متّى عن إنجيل مرقس وكلاهما شدّدا على قداسة الهيكل. ومثلهما فعل لو ١٩: ٤٥. أمّا إنجيل يوحنّا فقال عن يسوع: «ورأى في الهيكل باعة البقر والغنم والحمام (هي من أجل ذبائح العهد القديم، لم نعد بحاجة إليها في العهد الجديد)... فجدل سوطًا من حبال وطردهم كلّهم من الهيكل مع الغنم والبقر، وبعثر نقود الصيارفة وقلب مناضدهم (فراحوا إلى الأرض يجمعون الفضّة...). وقال لباعة الحمام: «ارفعوا هذا من هنا (هو ما حطّم أقفاص الحمام)، ولا تجعلوا من بيت أبي بيت تجارة» (يو ٢: ١٤–١٦). السوط لا يكون للبشر، بل للبقر والغنم. لا مكان لهما بعد. ثمّ إنّ النصّ لا يقول إنّه هجم على الناس وأخذ يضربهم. كلّ ما أراد يسوع أن يمنع التجارة في الهيكل وهي أمثولة لكلّ من يخدم في معبد من المعابد.

* * *

ونصل إلى الخلاصة التي تبدو بشكل رواية. هي لا تستند سوى إلى مخيّلة «الراوي» الذي اسمُه كمال الصليبيّ، الذي يسلّي بطرقه البهلوانيّة، ولكنّه لا يعلّم. أراد هذا الكاتب أن يكتشف التاريخ، ولكنّ الإنجيل ليس تاريخًا مهما حاول الباحثون اليوم وكلّ يوم. حتّى ولا هو كتاب جغرافيا، إلاّ إذا تركنا فلسطين وغرقنا في رمال الجزيرة العربيّة. وهنا نجد «الاكتشافات»، وأيّة اكتشافات! وبقدر ما نبتعد عن فلسطين، بقدر ذلك يكون الأمر صحيحًا. قال المثل: «إذا أردتَ أن تكذب، فأبعد شهودك.»

وها نحن نورد ما كتب الصليبيّ ونبتسم: «**وُلد يسوع المعروف بـ«النجّار»** (مر ٦: ٣؛ «النجّار ابن مريم») و«ابن النجّار» (مت ١٣: ٥٥). هو كلام هزء واحتقار. «**بالأراميّة، برنجارا» (!!) والملقّب «الناصريّ». هي مكان ما خارج أرض**

«اليهوديّة» بفلسطين. هو وادي جليل بمنطقة الطائف من الحجاز. وكان يوسف والده يُعتبَر سليلاً لزربّابل، بكرًا عن بكر، ومن ثمّ صاحب الحقّ في المطالبة بعرش داود. ولا بدّ أن يكون على جانب من الثراء، نظرًا لرفعة مكانته. وُلد له بعد يسوع أربعة بنين... عدا البنات. وعند وفاته، انتقل حقُّ المطالبة بعرش إسرائيل إلى بكره يسوع، ويسوع آنذاك في بداية شبابه، علمًا بأنّه لم يكن قد تزوّج بعد (ص ٦١–٦٢). ربّما سوف يتزوّج فيما بعد. ما رأي مؤرِّخنا بهذا الاستنتاج الذي فنّدناه عبارة عبارة.

ويسوع جمع حوله الأنصار، وإخوته يدعمونه في مسعاه («مع أنَّ إخوته لم يكونوا يؤمنون به»، يو ٧: ٥). أمل يسوع بأن يُعترَف به ملكًا في «الطائف» فلم ينجح. فأشار إليه إخوته بأن يمضي «إلى اليهوديّة التي بفلسطين» (ص ٦٢) «وحمل ما كان قد ورثه من مال عن أبيه» (دائمًا المال، المال). من سوف يساعد هذا «الملك» الآتي من الحجاز؟ يوحنّا المعمدان، يا له من حليف سوف يقتله هيرودس... عندئذٍ «فرَّ يسوع مع المقرَّبين من أصحابه» (ص ٦٥)، مع أنّه دعا هيرودس «الثعلب» وفي النهاية، خاطر بنفسه فكان نصيبه الموت.

ذاك ما قال كمال الصليبيّ، المؤرِّخ الشهير. قولوا لي: لماذا جعل يسوع يبدأ رسالته في الحجاز؟ حاولتُ أن أسأله فلم أوفَّق. ولكن عرفنا في النهاية. هناك منبع النبوءات منذ آدم، كما قالت عظات يهوديّة– مسيحيّة. وفرح الناس في الشرق العربيّ من هذا الذي لن يوازيه سوى برنابا وإنجيله العائد إلى القرن السادس عشر.

وفي إطار «محاكمة يسوع» يخبرنا الصليبيّ أنّ مريم المجدليّة كانت صديقة مقرَّبة ليسوع، بل أنّها كانت «عشيقة الله» (ص ٧٦). هذا ما يذكِّرنا بفيلم ظهر على شاشات السينما: «تجربة يسوع الأخيرة». نزل يسوع عن الصليب وراح يعيش مع المجدليّة ثمّ عاد وصعد إلى الصليب. هي مهزلة. بل مأساة لمسيحيِّين ينسون كلام الرسول: «الله لا يُستهزأ به». ولكن تراجع الصليبيّ في الصفحة

التالية: «كان يسوع لا يزال غير متزوِّج فكان من الطبيعيّ أن يحتاج إلى نساء يخدمنه في جولاته، تبرُّعًا أو لقاء أجر (والثاني هو الأرجح). وما كانت مريم المجدليّة إلاّ واحدة من خادماته» (ص ٧٧). ماذا تقول يا أستاذنا؟ المجدليّة هي «عشيقة» أم «خادمة»؟ فإن كانت «عشيقة» فهي تخدم من تحبُّ مجّانًا. إلاّ إذا أخذ صاحبنا بحضارة يحبُّها فاعتبر الزوجة (أو العشيقة) خادمة لزوجها.

أمّا ما أشار إليه الصليبيّ فنقرأه في لو ٨: ١–٣، وقد سبق وأشرنا إليه: بعض النساء، هنَّ تلميذات مثل التلاميذ. يتميَّزن بالخدمة. قال لوقا: «يساعدن (الفريق الرسوليّ) بأموالهنَّ» (آ٣). نساء غنيّات صرن خادمات، يا للدقّة التاريخيّة! الخدمة في الإنجيل غير التجارة باسم الربّ يسوع. ويقول لو ٢٣: ٤٩: «وكان جميع أصدقاء يسوع، والنساء اللواتي تبعنه من الجليل، يشاهدون هذه الأحداث عن بعد.» أجل، لم تكن المجدليّة وحدها الشاهدة للصلب والقيامة.

تحدَّث الإنجيل الرابع عنها وحدها، على أنّها نموذج النسوة اللواتي مضين إلى القبر. وكان توما نموذج الرجال الذين يحتاجون إلى لمس جروح يسوع لكي يروا ويؤمنوا. تحدَّثنا عن إنجيل مرقس (١٦: ١) حيث مضت النسوة بدون مريم، أمّ يسوع. ومتّى، ابن العالم اليهوديّ، ذكر امرأتين لتكونا شاهدتين: مريم المجدليّة ومريم الأخرى (٢٨: ١). أمّا لوقا فذكر هؤلاء النسوة (لم يذكر أسماء) اللواتي هيَّأن الطيب (٢٣: ٥٥–٥٦)، ومضين فجر الأحد إلى القبر (٢٤: ١ي). أربعة أناجيل، أربع شهادات، ما اعتاد المؤرِّخ الذي لا إيمان عنده أن يتوقَّف عند كلِّ شهادة عن قيامة يسوع. فكلُّ إنجيل هو تحفة رائعة. وإن نحن مزجن هذه التحف الرائعة، كما اعتاد العالم الشرقيّ أن يفعل لكي يكون له إنجيل واحد، نكون خائنين للبشارة الإنجيليّة بنصوصها الأربعة. نحن نحتاج إلى التاريخ لكي يكون الإطار الذي فيه كُتبَت الأناجيل، ولكنّنا لا نحدر الأناجيل إلى مستوى التاريخ. فهذا يشبه ما قال يسوع لتلاميذه: «أنتم

في العالم.» ولكن انتبهوا: «أنتم لستم من العالم.» وكذا نقول عن الإنجيل هو متسام، فلا نحدره إلى مستوانا.

وكان استنباط جديد حول كلاوبا! لا نضيّع وقتنا من جديد. أمّا «زبدى» والد يعقوب ويوحنّا (مر ١: ١٩) فهو من أسرة عربيّة. والخلاف كان كبيرًا بين بطرس من جهة ويعقوب ويوحنّا من جهة أخرى. من يكون المتقدّم؟ نسيَ صاحبنا كلام الربّ: «من أراد أن يكون عظيمًا فيكم، فليكن لكم خادمًا. ومن أراد أن يكون الأوّل فيكم، فليكن لجميعكم عبدًا» (مر ١٠: ١٣-١٤). والخلاف بين يوحنّا وبطرس؟ أين قرأ الصليبيّ اسم يوحنّا؟ الكلام هو عن «التلميذ الذي يحبُّ يسوع ويسوع يحبُّه». كلُّ واحد يستطيع ويجب أن يكون ذاك التلميذ. أهكذا نقدّم التاريخ، يا حضرة الأستاذ؟ نستند إلى فرضيّات! وإنجيل يوحنّا (ف ٢١) سوف يبيّن لنا بطرس ماضيًا لكي يكون «التلميذ الحبيب»، «التلميذ الذي يحبُّ يسوع أكثر من هؤلاء.»

* * *

ويطرح الصليبيّ جملة أسئلة (ص ٨٣)

السؤال الأوّل: لماذا ذكر إنجيل يوحنّا وحده حضور أمّ يسوع لصلبه؟ ونجيب: لماذا لم يتحدّث إنجيل يوحنّا عن طفولة يسوع كما فعل متّى ولوقا؟ ما أراد يوحنّا هو أن تكون مريم أمّ يسوع في بداية الإنجيل وفي نهاية الإنجيل. هذا ما يُدعى التضمين أو الاحتواء. سبع معجزات في إنجيل يوحنّا. وكلُّها تدلّ على الساعة، على موت يسوع وقيامته، في المعجزة الأولى، ذُكرت أمُّ يسوع على أنّها «المرأة» وعند الصليب هي المرأة. نحن في قلب اللاهوت: المرأة الأولى هي أمُّ البشريّة الخاطئة. حوّاء. والمرأة الثانية هي أمُّ البشريّة المفتداة. مريم. لهذا كانت قرب صليب ابنها. هل يستطيع المؤرّخ أن يصل إلى هذا المستوى؟ ربّما لا يريد. على كلِّ حال، الباب مفتوح. وإن تأخّر سوف يجده مغلقًا (لو ١٣: ٢٤-٢٥).

السؤال الثاني: لمَ (لا: لمَا) ذكر هذا الإنجيل وجود مريم زوجة كلوبا برفقة أمّ يسوع؟ نجيب: إذا كانت أخت أمّ يسوع، يكون الجواب نافلاً. هي مع أختها. ولكن إذا كانت أمُّ إخوة يسوع وامرأة كلوبا، نفهم في المعنى الروحيّ، أنّها أرادت أن تمثّل إخوة يسوع، الذين رافقوه في المعجزة الأولى فقيل في يو ٢: ١٢: «ونزل يسوع بعد ذلك إلى كفرناحوم ومعه أمّه وإخوته وتلاميذه.»

السؤال الثالث: لماذا ذكر هذا الإنجيل وحده وجود يوحنّا واقفًا «عند الصليب» قرب أمّ يسوع...؟ نجيب أوّلاً، لم يكن يوحنّا عند الصليب. فاسمه غير موجود كما ليس بموجود أيُّ اسم من الرسل. عند الصليب. هو «التلميذ الحبيب» الذي يمثّل كلَّ واحد منّا. فإذا كانت مريم أمَّ «التلميذ الذي يحبُّ يسوع»، عندئذ تكون مريم أمَّ كلِّ واحد منّا يحبُّ يسوع. فالواضح في يو ٢١ أنّ سبعة تلاميذ مضوا إلى الصيد. بطرس، توما... ابنا زبدى. ولكن من عرف يسوع هو صاحب الصيد العجيب؟ لا بطرس ولا ابنا زبدى، بل التلميذ الذي كان يسوع يحبُّه هتف: «هذا هو الربّ» (آ٧). هذا يعني أنّ من يحبُّ يسوع يأخذ مريم إلى بيته كما فعل التلميذ الذي كان يسوع يحبُّه. وإن لم يأخذ مريم إلى بيته لا يكون التلميذ الحبيب. فمن لا يكرم الأمَّ أتراه يحبُّ الابن؟!

والسؤال الرابع: لماذا جاء يوحنّا بمريم المجدليّة؟ نجيب: لا علاقة ليوحنّا بمريم المجدليّة. فلا هو رافقها ولا هي رافقته. سؤال كلُّه تلفيق بتلفيق.

أمّا الأجوبة التي قدّمها الصليبيّ (ص ٨٣-٨٤) فلا قيمة لها وفيها ما فيها من تكرار وأخطاء.

الفصل الثالث عشر

مصادر الانجيل الاربعة

أين هو نبع الأناجيل؟ لا فلسطين ولا العالم اليوناني الروماني بل الجزيرة العربية. واللغة التي كُتب فيها؟ الأراميّة التي وصلت منها نسخة إلى الحجاز، ولكنها ضاعت. غير أن يوحنا استطاع أن يقرأ النصوص في اللغة الاصلية. أما لوما فترجمَتْ له. ومتى ومرقس؟ بل نقول إن الأناجيل كُتبت في اللغة اليونانية، في اللغة التي أطلقها بولس الرسول مع رسائله التي دُوِّنت بأكثرها قبل الأناجيل. أساسها يسوع المسيح ابن الله، كلمة الله المتجسّد.

هنا نصل إلى ذروة الخطأ مع الأستاذ كمال الصليبيّ، لأنّه شابه عددًا من الكتّاب العرب: ينطلقون من كتبهم ليحكموا على صحّة الإنجيل أو تحريفه. وها نحن نقرأ صفحة بعد صفحة فنكتشف الشطط الذي راح فيه هذا «المؤرِّخ» فلم يترك شيئًا من الأناجيل، بل هو لم يسئ إلى الإنجيل، بل أساء إلى نفسه، وجعل نفسه خارج الوليمة مثل الابن الأكبر في لو ١٥: ٢٨: «غضب ورفض أن يدخل.» لبث في الظلمة البرّانيّة ساعة كانت الحفلة دائرة والفرح يغمر الوجوه.

ص ١٠٧. أتباع يسوع «الناصريّ» دُعوا «شيعة الناصريّين» (أع ٢٤: ٥). هي المرّة الوحيدة يُذكَرون بهذا الاسم واحتقارًا. لهذا لا نستطيع القول إنّ أتباع المسيح دُعوا «نصارى» أو: «ناصريّين» بشكلٍ عامّ. فالنصارى الذين تتكلّم عنهم الحضارة العربيّة فيشكّلون بدعة، تركت إنجيلاً وراءها لم يبقَ منه إلاّ القليل. أجل، نحن لسنا بنصارى، بل «مسيحيّين» كما دُعينا للمرّة الأولى في أنطاكية (أع ١١: ٢٦).

أمّا الاسم الأوّل لأتباع يسوع فهو «الطريق». نقرأ في أع ٩: ٢: «حتّى إذا وَجد (شاول أو بولس) أناسًا من الطريق». في ١٦: ١٧: «طريق الخلاص». قال: «شاتمين الطريق»! الشيء عينه في ١٩: ٢٣: «بسبب هذا الطريق». في ٢٢: ٤ تحدَّث بولس أنّه اضطهد الطريق. وجاء التمييز بين «الطريق» و«شيعة». قال بولس يدافع عن نفسه: «ولكنّي أقرُّ لك (يا فيلكس الوالي) بهذا، أنّني حسب الطريق الذي يقولون له «شيعة» (٢٤: ١٤). وفي النهاية يدعو فيلكس المسيحيَّة: «الطريق» (٢٤: ٢٢).

لماذا هذا الاسم؟ لأنّ يسوع قال عن نفسه: «أنا الطريق والحقُّ والحياة» (يو ١٤: ٦). ونستطيع القول: «أنا الطريق التي تقود إلى الحقِّ والحياة.» أجل، يسوع هو الطريق ونحن نسير وراءه. مرّات عديدة قال: «من أراد أن

يتبعني.» ليست المسيحيَّة «"شيعة"» أو بدعة، وليست ديانة مثل سائر الديانات مع شرائع وأحكام. المسيحيَّة هي شخص اسمه يسوع ابن الله. وقد انطلقت قبل أن يُوجَد نصٌّ مكتوب هو الأناجيل الأربعة. فالمسيحيَّة ليست ديانة كتاب. فهي التي دَوَّنت الأناجيل بعد غياب يسوع بعشرات السنين، على ضوء الروح القدس. وبأنوار الروح القدس اختارت الكتب الصحيحة وتركت جانبًا الكتب المضلَّة. كم هو بعيد كمال الصليبيّ عن هذه النظرة. في هذا المناخ نسمع بولس يكلِّم أهل فيلبِّي: «أحسب كلَّ شيء خسارة من أجل فضل معرفة يسوع ربِّي... أعرفه وأعرف قوَّة قيامته وشركة آلامه متشبِّهًا بموته، لعلِّي أبلغ قيامة الأموات» (٣: ٨-١٠).

لا، يا حضرة الدكتور. هذه «الطريق» لا تقابَل بما تعرفه في حضارتك وثقافتك. لا تُحدر الإنجيل إلى ما تعرف وإلى ما تحبُّ. حاول أن ترتفع إلى عظمة مسيحك، واستعمل كلَّ ما تعرف من أجل رفعة الإيمان، لا من أجل تدمير إيمانك وإيمان إخوتك. فبولس الرسول علَّمنا: «كلُّ شيء لكم وأنتم للمسيح.» ونشرح: كلُّ شيء لكم شرط أن تكونوا للمسيح. وكلُّ ما لا يوصلنا إلى المسيح يُحسب «نفاية»، «كالزبل». الهدف: «أن أربح المسيح وأوجَد فيه.»

* * *

ص ١٠٨. «ويبدو أنَّ مذهب النصارى (ما هذا الاسم الذي تعطيه للمسيحيِّين؟ أما حان لك أن تتخلَّى عنه؟) الذي هو "الطريق" (الحمد لله!) كان مركزه أصلاً في "العربيَّة"» (أي بلاد العرب). مَن مال بالمسيحيَّة إلى أورشليم؟ بولس الرسول. عشت، أيُّها الأستاذ! يوم العنصرة تحدَّث بطرس للآتين إلى أورشليم. وإن كان بولس انطلق إلى «عرابيا» أو المدن العشر، فلأنَّ لغتهم هي اليونانيَّة، فرافقهم في التعرُّف إلى المسيح.

ويتكلَّم الصليبيّ عن «الرقوق». وما أدراك ما هذه الرقوق التي ذكرها بولس في نهاية حياته (٢ تم ٤: ٩-١٣). هي بداية «رواية»، لأنَّ هذه الرقوق عرف بها لوقا وتيموتاوس «فاستخدمت كمصادر في كتابة الأناجيل ثمَّ ضاعت أو أتلفت.» وهل استطاع هذا المؤرِّخ أن يقابل بين الأناجيل وبين هذه «الرقوق» لكي يعرف أهمِّيَّتها؟!

ص ١٠٩. يقدِّم الصليبيّ نظرة معروفة حول الأناجيل الإزائيَّة، أي متَّى ومرقس ولوقا. الخبر مشترك ولكنَّ التفاصيل تُفهمنا أنَّ ما من نصٍّ يشبه الآخر حرفيًّا. فكلُّ كنيسة لها اهتماماتها، فغرفت من معين التقليد الشفهيّ ما تحتاج إليه في حياتها. ويكفي أن نقابل عظة الجبل في متَّى (ف ٥-٧) وعظة السهل في لوقا (ف ٦). فالمحيط الذي كَتب له لوقا، محيط مثقَّف بالحضارة اليونانيَّة، غير محيط متَّى المطبوع بالحصارة الساميَّة عمومًا وبالتقليد العبريّ خصوصًا.

ص ١١٠. معلومات واردة في إنجيل لوقا وإنجيل يوحنَّا. كلٌّ منهما غرف من التقليد الشفهيِّ ذاته وكيَّفه. لا ترجمة عن الأراميَّة، كما يقول الصليبيّ. فالمعروف أنَّه وُجد خطٌّ يونانيّ في الكنيسة منذ بدايتها كما يقول سفر الأعمال (ف ٦). أمَّا الهدف من كلام الصليبيّ عن الأراميَّة، فليعيدنا إلى الجذور، إلى الحجاز من حيث انطلق يسوع، ومن حيث انطلقت البشارة. هكذا يُبنى التاريخ على ثوابت هي في الحقيقة أمور واهية تشبه فقاقيع الصابون. والموسف أنَّ الناس يؤخذون بها ولا يتحرَّون ولا يتحقَّقون من صحَّتها. فمتى العالم العربيّ يقرأ، كما قيل عنَّا؟ وإن قرأ، متى يفهم؟ فلو فهمَ لما حسبَ كلَّ ما يقرأ كأنَّه الحقيقة بالذات؟

ص ١١١. «أنَّ لوقا نقل قصَّة». هل إنجيل الطفولة هي قصَّة أم قراءة لاهوتيَّة تنطلق من رسالة يسوع وتعليمه وتجعلهما في جذور حياته؟ فأيُّ قصَّة هي أن نقول مريم حبلت؟ فكلُّ امرأة تحبل. وولدت ابنها وجعلته في مذود. ذاك ما تفعله الأسر الفقيرة. وكلُّ طفل يهوديّ يُختَن في اليوم الثامن، ويُطهَّر في أربعين يومًا. ويعيش في كنف أمِّه. وفي الثانية عشرة من عمره، ينتقل من خيمة النساء

إلى خيمة الرجال بانتظار الانطلاق في الرسالة في عمر الثلاثين. إذا لم يكن هذا قصّة، فلماذا قدّمه لوقا؟ ليرفع القارئ. حبلت مريم، ولكنّ حبلها لم يكن مثل حبل سائر النساء: «الروح يحلّ عليك وقوّة العليّ تظلّلك.» وولادة يسوع؟ تميّزت بمجيء الملائكة فدلّت على أنّ هذا الطفل البشريّ هو كلمة الله وابن الله الذي صار بشرًا... عندئذ لا تُطرح الأسئلة التافهة: ماذا فعل يسوع قبل عامه الثاني عشر؟ الجواب: كان في البيت، شأنه شأن جميع الصبيان. يساعد والديه. يقول الكتاب: «كان طائعًا لهما.» وماذا فعل يسوع بين الثانية عشرة من سنيه والثلاثين؟ كان شابًّا مثل جميع الشبّان، يأكل خبزه بعرق جبينه ويستعدّ للرسالة. هكذا صار شبيهًا بنا على المستوى البشريّ في كلّ شيء. هنا نبتعد عن الأناجيل المنحولة، حيث يسوع يتكلّم في المهد، ويُجري المعجزات وهو صبيّ، ويدلّ على معرفته الإلهيّة باكرًا. كلّ هذا يتعارض والأناجيل القانونيّة ويشوّه صورة يسوع المسيح ابن الله، «الذي أخفى لاهوته وصار عبدًا طائعًا حتّى الموت والموت على الصليب. لذلك رفعه الله» (فل ٢: ٦ي).

ص ١١٢. أوّل خطأ: (منطقة) يهوذا غير اليهوديّة. فاليهوديّة هي في الطائف. ثمّ الكلام عن البكر يعني أنّ مريم وَلدت أبناءً آخرين. وهذا خطأ ثانٍ فادح. يكفي ما قلنا عن إخوة يسوع: هم أبناء كلاوبا (قريب يوسف) ومريم. أمّا الجزم بأنّ أبناء يتبعون البكر فخطأ أيضًا. كتب على قبر امرأة: «ماتت وهي تضع ابنها البكر.» أمّا يسوع فقال عنه الرسول: «بكر بين إخوة كثيرين» (رو ٨: ٢٩). أي بيننا نحن المسيحيّين. وفي كو ١: ١٨: «بكر من قام من بين الأموات.»

ص ١١٣. الكلام عن يوحنّا المعمدان، لا عن يحيى. فهذا الاسم غير موجود في الأناجيل ولا في كلّ العهد الجديد. أمّا يحيى فيشير إلى الحياة. ويوحنّا يعني حنان الربّ ورحمته. قال الملاك لزكريّا: «تسمّيه يوحنّا» (لو ١: ١٣). تبدّل الاسم في القرآن، ويسوع صار عيسى. وأورد الصليبيّ نصّ القرآن لا نصّ الإنجيل.

ص ١١٤. يتحدّث الصليبيّ عن «المصدر الأراميّ الذي اعتمده لوقا». ما هذه الكذبة أو الجهالة أو تشويه الحقائق؟ لوقا هو ابن حضارة يونانيّة، لا أراميّة. وكذا نقول عن إنجيل يوحنّا، ابن مدينة أفسس. لم يكن «مطّلعًا على المصدر الأراميّ» كليًّا. فلو عرف لوقا ويوحنّا معًا المصدر الأراميّ، لجاء إنجيل الواحد مطابقًا للآخر. تلك كانت نظريّة أحد الدارسين في باريس. فوصلت به النتيجة: إذا كان من خطأ في إنجيل، فهذا يعني أنّه كاذب، وبالتالي يُرمى جانبًا. وإن رمينا إنجيلاً نرمي الثاني. لا علاقة بين إنجيل وإنجيل سوى التقليد الشفهيّ واللاهوت الخاصّ بكلّ كنيسة.

عندئذ غاص الصليبيّ في دراسة القرآن، وهذا أمر آخر يخرج عن الأناجيل القانونيّة الأربعة، ويرتبط بالأناجيل المنحولة، مثل إنجيل يعقوب التمهيديّ وإنجيل الطفولة العربيّ...

* * *

وينتهي الكتاب مع فصل ١٣: الواقع والصورة.

وأوّل خطأ (ص ١٦٧): «ما كُتب أصلاً في اليونانيّة، وما نُقل إلى اليونانيّة من أصول أو مصادر أراميّة.» أين هي هذه المصادر؟ كلّ ما نعرف هو ما قاله أوسيب عن إنجيل متّى الأراميّ. ولكن لم يصل إلينا أيُّ شيء من هذا الإنجيل الذي ليس «مترجمًا»، بل مكتوبًا في بلاغة يونانيّة ما بعدها بلاغة. وواصل الصليبيّ خطأه: «التعاليم المنسوبة إلى يسوع في هذه الأناجيل ليست بالضرورة من تعاليمه، بل منها ما هو أقوال وأمثال نُقلت إلى اليونانيّة عن التراث الشعبيّ الأراميّ القديم». واعتبر الصليبيّ أنّ أهل الاختصاص يتّفقون على هذا القول، وليس فيه جديد. أن لا يكون فيه جديد، أمر صحيح. فهذه الأضاليل وصلت إلى الكنيسة منذ القرن الأوّل المسيحيّ. ولكن أن يتّفق أهل الاختصاص على هذا القول، فهذا كذب أو جهالة أو انحراف بالحقيقة.

والجديد؟ يا ليته لم يتكلّم عن هذا الجديد الذي يشوّه الأناجيل ويحرّف

التاريخ ويتلاعب بالوقائع. نظريَّات ونظريَّات لا أساس لها. وإن هو أوَّلَ الإنجيل، فالتأويل خاطئ عمدًا ليصل إلى فكرة مبدئيَّة لا يمكن أن تتوافق مع نصوص الإنجيل ولا مع طريقة شرحها. وماذا أصبح يسوع في نظر الصليبيّ؟ هل هو مجرَّد نبيّ بين الأنبياء أم يسوع المسيح ابن الله الحيّ؟ وإن كان النبيُّ يحمل الكلمة، فيسوع هو الكلمة وفيه تنصبُّ أقوال الأنبياء، وتكمل لأنَّها ناقصة، فيتمِّمها بحياته وأقواله وتعاليمه. والذين يتكلَّمون بعده من «وعَّاظ وأنبياء ومعلِّمين»، إمَّا ينطلقون منه وإمَّا يتيهون مثل العبرانيِّين في البرِّيَّة فيموتون هناك.

ويوسف. هو ابن داود الغنيّ. طلب المُلك في جليل الطائف فلم ينجح. فأخذ ابنه يسوع المشعل وجاء مع أنصاره إلى فلسطين وانتهى بالموت والفشل. ويهوذا أخذ المال وراح يعيش في الحجاز. قصص تصلح لأن تكون رواية مشوِّقة ولكنَّها أبعد ما تكون عن الإنجيل. والأناجيل وُلدت أيضًا في الجزيرة العربيَّة فعرفها من عرفها ونقلها إلى اليونانيَّة. هكذا يكون المؤرِّخون أو لا يكونون. ينطلقون من المخيِّلة ويقدِّمون الترَّهات ويعتبرون أنَّهم يكتبون التاريخ. بحث الصليبيّ عن يسوع، لا في فلسطين حيث عاش بل في الجزيرة العربيَّة، فبدا مثل إنسان أضاع غرضًا في العتمة فراح يبحث عنه حيث لا يستطيع أن يجده. أمَّا الصليبيّ فلم يكن في العتمة، بل هو جعل نفسه هناك على ما قال الربّ: «الظلمة أعمت عينيه.» وقال: «إن كان النور الذي فيك ظلامًا، فالظلام ماذا يكون؟»

أن يمضي الصليبيّ في الظلمة شأنه! أن يشوِّه الإنجيل، فنحن لا ندينه، بل الربُّ هو الديَّان. ولكن أن يرى فيه بعض الناس ولاسيَّما المثقَّفين «جديدًا»، أو أن يقتفوا بما كتب، فالخطيئة عليهم، والخطيئة عليه مضاعفة. فيا ليتنا نطلب نعمة التمييز فنعرف الأنبياء الكذبة ونكتشف كذبهم والبواعث التي تدفعهم إلى الكتابة. والربُّ قال: «فمن نقض إحدى هذه الوصايا وعلَّم الناس هكذا، يُدعى الأصغر في ملكوت السماوات.»

الخاتمة

أردنا هذه المسيرة مع الدكتور كمال الصليبيّ الذي كتب الكثير في التاريخ اللبنانيّ: تاريخ لبنان الحديث، منطلق تاريخ لبنان، بيت بمنازل كثيرة، ملتقى طرق حرب أهليَّة، ١٩٥٨–١٩٧٦. وما نسي «الموارنة» في صورة تاريخيَّة، وكتابه المؤرِّخون الموارنة في العصر الحديث. وراح إلى «بلاد الشام في العصور الإسلاميَّة». محاكمة إمبراطوريَّة من ٥٣٤ وإلى ١٩٧٦.... وقدَّم: تاريخ الأردنّ الحديث، «تاريخ الجزيرة العربيَّة»، والكتاب الطريق الذي أرَّخ فيه حياته ونشأته: طائر على سنديانة. مؤرِّخ يستحقُّ بجدارة هذا الاسم. ولكنَّ خلفيَّة كلِّ هذه الكتب تبقى مثار جدل، بالنسبة إلى موقع لبنان في العالم العربيّ، والحضارات التي مرَّت في هذا البلد، ولاسيَّما الفينيقيَّة منها التي تركت آثارها العميقة في الكثير من أبناء هذا البلد.

في هذا الإطار، انعطفت أبحاث الدكتور الصليبيّ باتِّجاه الكتاب المقدَّس، القديم منه والجديد. ما هذه البلدان الصغيرة، وماذا تشكِّل في عصبة الأمم؟ ما هو لبنان بالنسبة إلى الصين مثلاً؟ وفلسطين المقسومة اليوم والمتألِّمة، والأردنّ الذي وُلد بشكل مصطنع، وحتَّى الشامّ؟ لماذا لا تكون كلُّ هذه البلدان في الوحدة العربيَّة، من المحيط الهنديّ إلى البحر المتوسِّط؟ فهذه البلدان المفتعلة هي من نتاج الانتدابين الإنكليزيّ والفرنسيّ. وإن علَّمهم الانتداب حول التراثات القديمة، فهذه المدن المرتبطة بهذا التراث ليست موجودة كما هي اليوم، بل كانت في الأصل، في الجزيرة العربيَّة، وبشكل خاصّ في اليمن. أمَّا يونان النبيّ فلم يمضِ إلى نينوى، بل إلى عمان. وشيشانق الفرعون المصريّ،

لم يأتِ إلى أورشليم القدس، بل عبر البحر الأحمر ووصل إلى عمق الجزيرة العربيَّة. وكذا نقول عن سرجون الأشوريّ.

وحين يعتدُّ اللبنانيُّون بفينيقيا وبمدن مثل صور وصيدون وجبيل، فهذا الاعتداد هو في غير محلِّه. أتعرفون أين هي صيدون؟ هي زيدان. وصور هي واحة في الجزيرة العربيَّة حيث الجِمال حلَّت محلَّ السفن التي جاءت البحر المتوسِّط وأسَّست المدن العديدة.

وهكذا انتقلت أرض التوراة كلُّها، ويسوع نفسه لم يُولَد في فلسطين... وفي أيِّ حال، نحن لا نتحدَّث عن ولادته، بل عن انطلاقته طلبًا لمُلك خسره. فنذكر جدَّه زربَّابل، هذا الأمير الداوديّ الفاشل، العائد من المنفى مع رئيس الكهنة يشوع بن يوصاداق. اختفى زربَّابل، لا نعرف كيف، وصار رئيسُ الكهنة هو المتحدِّث باسم الجماعة اليهوديَّة، على المستويَين الدينيّ والمدنيّ.

غير أنَّ يسوع لم يكن أوفر حظًّا من جدِّه زربَّابل، فانتهت حياته على الصليب، وانتهى مُلكه على الأرض بصورة نهائيَّة.

قصص وروايات من عالم الخيال. والمدهش هو أنَّ الناس في محيطنا يقرأونها بشغف مع أنَّها تشبه «طبخة بحص». هذا يدلّ على مستوى الفكر في العالم العربيّ والقدرة على التحليل وإمكانيَّة الاستنتاج. لأنَّنا حُصرنا في قراءة حرفيَّة، أصوليَّة، نستعدُّ لأيِّ قراءة تخرجنا من هذا السجن وتطلقنا إلى الحرِّيَّة. ولكنَّ ما هذه الحرِّيَّة التي لا توصل إلى هدف، بل تجعلنا نتيه ونتيه في الصحراء، أو ننقلب مع أمواج البحر. بما أنَّه لا يحقّ لنا أن ندخل هذه «القلعة» التي اسمها الكتب الإلهيَّة، نهدم ما نستطيع هدمه لنرى... ولكن ماذا رأينا؟ بقايا تفكيرنا. ولكنَّنا لم نَدخل، ولبثت النصوص الموحاة في واد ونحن في واد. أهكذا يكون كلام الله النور الذي نطلبه؟ بل انقلب ظلامًا. أهكذا يكون كلامُ حياة؟ بل هو كلام موت وجثَّة هامدة. هكذا صارت التوراة مع كمال الصليبيّ، ومثلها صار الإنجيل فنشبه المجدليَّة التي راحت إلى القبر فوجدته فارغًا، فأضاعت يسوع.

ولكن الحمد لله أنَّها وجدته حين ناداها باسمها، وذلك بعد أن كلَّمت بطرس والتلميذ الآخر. في الكنيسة التي هي جسد المسيح، هناك نكتشف يسوع المسيح ومعه نقرأ الكتب المقدَّسة القادرة على «التعليم والتوبيخ والتقويم والتأديب... لكي يكون الإنسان كاملاً ومستعدًّا لكلِّ عمل صالح.» ذاك ما قال بولس الرسول (٢ تم ٣: ١٦-١٧) الذي دوَّن أولى كلمات العهد الجديد في اللغة اليونانيَّة، فكُتبت الأناجيل في هذه اللغة العالميَّة، وهو كلام الله انتشر في العالم كلِّه.

الفهرس

«على هامش الكتاب» :

١ – كتابات قُمران – الجزءُ الأول	١٩٩٧
٢ – كتابات قُمران – الجزءُ الثّاني	١٩٩٨
٣ – أخنوخ، سابع الآباء	١٩٩٩
٤ – وصيات الآباء، الإثنَي عشر	٢٠٠٠
٥ – اليوبيلات أو التكوين الصغير	٢٠٠٠
٦ – رؤيا باروك، إبراهيم، إيليّا	٢٠٠٠
٧ – الأدب الفلسفي والحكمي	٢٠٠١
٨ – كتابُ العاديّات البيبليّة	٢٠٠١
٩ – كتابات عزراويّة	٢٠٠٢
١٠ – ترجوم نيوفيتي، سِفر التكوين	٢٠٠٢
١١ – مزاميرُ سليمان وصلوات في المجامع	٢٠٠٣
١٢ – موشّحات سُليمان ومؤلّفات يَهوديّة	٢٠٠٣
١٣ – ترجوم نيوفيتي. سفرا الخروج واللاويين	٢٠٠٤
١٤ – إمتداد الأدب البولسيّ في الأسفار المنحولة	٢٠٠٧
١٥ – الحركة الغنوصيّة في أفكارها ووثائقها	٢٠٠٩
١٦ – الأقوال السيبليّة	٢٠٠٩
١٧ – التيّارات الدينيّة في الشرق القديم	٢٠٠٩
١٨ – فُيوض في الفكر المشرقيّ	٢٠٠٩

١٩ – المرقيونيّة والمانويّة	٢٠١٠
٢٠ – التراث اليوحناوي الجزء الأول	٢٠١٠
٢١ – التراث اليوحناوي الجزء الثاني	٢٠١٠
٢٢ – بطرسُ الرسول في العالم الغنوصي	٢٠١٢
٢٣ – إنجيل برنابا ترجمة، دراسة، تحليل	٢٠١٢
٢٤ – بين الرسل والأنبياء بين بطرس وأشعيا	٢٠١٢
٢٥ – أعمال بطرس وكرازته وموته	٢٠١٢
٢٦ – بطرس وبولس تقليد وتراث	٢٠١٢
٢٧ – من آثار الكنيسة الأولى	٢٠١٣

منذ الثمانينات، ترك الدكتور كمال الصليبي مجاله كاستاذ للتاريخ الحديث. وراح يقرأ الكتب المقدسة، عائدًا إلى اللغات القديمة، من عبرانيّة ويونانيّة. أما الأساس الذي انطلق منه فهو أننا لا نجد الأسماء الموجودة في هذه الكتابات، لا نجدها في فلسطين التي نعرفها اليوم، ولا في لبنان الساحلي، أي فينيقيا، ولا في سورية مع عاصمتها دمشق. كل هذا صار في الجزيرة العربية وصولاً إلى اليمن. ضاعت صور وصيدا، كما ضاعت أورشليم ودمشق وسائر المدن، صغيرها وكبيرها. وهكذا يكون المصدر الأول للوحي، الجزيرة العربية، حيث راح يهوذا (يوضاس) ينهي أيامه في حياة وادعة، كمزارع بسيط. ويسوع نفسه انطلق من هناك لأن والده يوسف فشل، وهو نفسه فشل، فأتى إلى فلسطين حيث مات. فيسوع غير المسيح. وأمّه لا تدعى مريم، ويهوذا هو أفضل صديق ليسوع. وهكذا وجب على الحجّاج الآتين إلى القدس وغيرها من المدن، أن يمضوا إلى اليمن وما يجاورها.

ماذا يقول الكتاب المقدّس، العهد القديم؟ وماذا تقول الأناجيل؟ وهكذا عاد المؤلّف إلى النصوص، وهو الذي ترجم الكتاب المقدس برفقة الشاعر يوسف الخال، رحمه الله. وما اكتفى بقراءة الحرف، بل البحث عن الروح الذي يساعدنا لكي تكون كلمة الله عزاءً للمؤمنين، على ما قال بطرس للرب: «إلى من نذهب، يا ربنا، وكلام الحياة الأبدية عندك؟»

من أجل هذا كان **الردّ على كمال الصليبي**.

